كلاسيكيات الإسلام

ثيودور نولدكه

حياةُ محمّدٍ

وفقاً للمصادرِ المشهورةِ



ترجمة وتقديم:

نزار هليل

المركز الأكاديمي للأبحاث

حياةُ محمَّد
وفقاً للمصادرِ المشهورةِ

تاليف:

ثيودور نولدكه

ترجمة وتقديم:

نزار هليل

حياةُ محمَّد وفقاً للمصادرِ المشهورةِ

The Life of Muhammad

تأليف: ثيودور نولدكه

ترجمة: نزار هليل

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني
الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: الطبعة الأولى 2026
العراق/ تورنتو - كندا
The Academic Center for Research
TORONTO -CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية.
Library and Archives Canada
ISBN : 978-1-998556-15-1
naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq

+964 780 226 2494 facebook.com/acadcntr www.acadcr.com info@acadcr.com

مقدِّمةُ المترجم

يتميَّزُ العصرُ الحديثُ بالدراسات النقديَّة، التي يجب على كلّ إنسان أن يخضعَ لها، وتعدُّ حياةُ النبيّ محمَّد وتعاليمه من أولويات هذه الدراسات في الغرب، التي خضعتْ لبحوث ونقد مكثفين، ويمكن القول إنَّ القرن التاسع عشر وما بعده كان بمكانة ثورة كبيرة في مفاهيم العصور الوسطى وأفكارها، التي اشتهرت أوروبا خلالها بآرائها العديدة حول شخصيَّة محمَّد.

ويعترفُ المستشرقون بأنَّ المفكرين البيزنطيين الذين أخذوا أفكارهم عن الأمم المسيحيَّة لم يكنْ لهم قيمة، ولم يكونوا مصدراً موثوقاً به، ولم يكتفوا بطبيعة الحال بها كتبوه، وساووه بالجهل أو التشويه المتعمد للصورة الكاريكاتورية التي كتبت عن مؤسّس هذا الدين، وقد بدأت هذه النظرة المتحيزة القديمة في التلاشي في العصر الحديث مع ظهور الوثائق والمخطوطات التي كتبها المؤرخون الإسلاميون عن السيرة المبكّرة للنبيّ محمَّد، وهي مادة ببليوغرافيَّة غنية جداً عن حياة النبيّ محمَّد، ذكر رينان [1]: أن الأديان الأخرى

(1) إرنست رينان (1823-1892): فيلسوف ومستشرق فرنسي، اشتهر بكتاباته حول الفلسفة والتاريخ والدين. من أبرز مؤلفاته كتاب «ابن رشد والرشدية» الذي أكد

أحاطت في مهدها بالغموض، لكن ولادة الإسلام في وسط هذا التاريخ، إذ تبدو جذورها واضحة تماماً في الأرض، حياة محمد معروف لنا بنفس درجة معرفتنا بحياة أي مصلح ديني في القرن السادس عشر، ويمكننا تتبع تقلبات أفكاره عامًا بعد عام ودراسة تناقضاته ونقاط ضعفه[1].

وفقاً لجوستاف وايل [2] قال: فإنَّ حياة مؤلفي الكتب المقدَّسة المختلفة غير معروفين إلى حدّ كبير، ولم تُحدَّد المصادر التي توفر معلومات موثوقة

فيه أنه لولا ابن رشد لما تمكن من فهم فلسفة أرسطو، وقد ترجمه عادل زعيتر إلى العربية. من أعماله المهمة أيضًا «تاريخ شعب بني إسرائيل» في خمسة مجلدات، و«حياة المسيح»، و«تاريخ أصول المسيحية». تناول في مؤلفاته موضوعات متنوعة مثل اللغات السامية، الأديان، الأخلاق، والنقد، ومن أبرز كتبه: «دراسات في تاريخ الأديان»، «قضايا معاصرة»، «الإصلاح الفكري والأخلاقي في فرنسا»، «مستقبل العلم»، و«مذكرات إرنست رينان».

(1) في هذا النص، يشير رينان إلى بعض النقاط المهمة حول النبي محمد، لكن دراسته لم تكن شاملة. النص مأخوذ من كتاب رينان «دراسات في التاريخ الديني والنقد» المترجم إلى الإنجليزية، ويشمل 13 فصلاً، أبرزها الفصل الثامن بعنوان «محمد وأصول الإسلام»، الذي يتكون من 55 صفحة وطُبع منفصلاً بالإنجليزية. سبق أن ترجمت هذا الفصل إلى العربية، لكن توقفت بعد اكتشاف ترجمة الدكتور منتجب صقر للكتاب.

(2) جوستاف وايل (1808 – 1889)، مستشرق ألماني وأستاذ اللغات الشرقية بجامعة هايدلبرغ. من أبرز أعماله كتاب «محمد النبي: حياته وتعاليمه» (1843)، الذي يُعد من أوائل الدراسات الحديثة عن سيرة النبي، مستندًا إلى مصادر مثل سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وسيرة الديار بكري. ومن مؤلفاته الأخرى: «أساطير الإسلام حول الشخصيات المقدسة» (1853)، «مقدمة تاريخية نقدية للقرآن» (1878)، و«تاريخ الشعوب الإسلامية من محمد إلى السلطان سليم» (1866).

عن سيرتهم الذَّاتيَّة للأنبياء والرسل، وبسبب الفرضيَّات التي تهدف إلى سد الفجوات التاريخيَّة غالباً ما يُنظر إلى هؤلاء الرجال العظماء على أنَّهم شخصيَّات أسطوريَّة، والأمر مختلف مع القرآن؛ إذ لدينا وثائق تاريخيَّة مفصلة عن حياة محمَّد منذ ظهوره بعدّه رسولاً لله، ومع أنَّ هذه الوثائق تكون أحياناً مشوهة بالروح الحزبيَّة ومختلطة بالأساطير، إلا أنَّ المعرفةَ العامَّةَ التي يقدّمها النقاد تشكّل أساساً آمناً يمكن الاعتماد عليه[1].

لقد أصبحتْ مصادرُ دراسة السيرة النبويَّة اليوم وفيرة وواضحة، بينما كانتْ في الماضي تحتوي على ألغاز كثيرة حُلّ معظمها، بسبب كثرة الدراسات والرغبة الملحة في معرفة المزيد[2] ولا يمكن تحقيق التقدم من دون المصادر العربيَّة، وبفضل هذه المصادر أصبحنا نعرف الآن كثيراً من الجوانب التفصيليَّة والموثَّقة من حياة النبيّ الشخصيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وحتى الاقتصاديَّة، حيث كانتْ مكَّة، وما تزال مركزاً تجاريَّاً مهمَّاً، ولم تنتهِ هذه الجهود البحثيَّة، بل امتدَّت، فغطَّت الحدود البيئيَّة والجغرافيَّة، مع وصف شامل لشبه الجزيرة العربيَّة، ودراسة طبيعة الأرض، والشخصيَّة العربيَّة، وأحوال القبائل البدويَّة، والحقيقة أنَّ التاريخَ العربيَّ كان سيُهمل

(1) راجع مقدمة كتاب «مقدمة تاريخية نقدية في القرآن» جوستاف وايل، الصفحة 7، طبعة 1878.

(2) يقول جوستاف وايل: إن الجمهور المثقف يرغب في التعرف على مؤسس الإسلام وفهم تعاليمه ومنهجه بصورة أعمق، دون الحاجة إلى التعمق في مؤلفات مطولة حول هذا الموضوع. المصدر السابق، ص. 5.

لولا دعوة النبيّ، وكما قال فلهاوزن: «لكنّنا لا نعرف العرب إلّا من خلال الإسلام، لقد دخلوا إلى العالم عن طريق الإسلام، ولولاه لدفنوا في الظلام والضباب»؛ لذلك الإسلام هو البوابة الصحيحة، وهو أمر بالغ الأهمية لتطوير الدراسات حول التاريخ العربيّ والخلفاء وما بعده [1].

ومن المؤكّد بذلت جهوداً جبَّارة لسدّ هذه الفجوة والتغلب على كلّ الصعوبات والتناقضات الموجودة في كتب السيرة، واستخلاص شخصيَّة النبيّ، لقد امتزجت الأكاذيب بالحقائق إلى حدّ أنَّ من يريد أن يفصلَ الحقيقة عن الخيال، والغموض عن الأصالة، عليه أن يستخرج تلك الحقيقة من مواد ومصادر متعددة؛ إذ ليس لدينا مصادر أخرى، أغلبها مكتوب من قبل المحبين، كما يقول النقاد، ولذلك ذكر المستشرق ألويس سبرينجر [2] أنَّ من يكتب السيرة النبويَّة من المستشرقين ينبغي أن يقوم بالدور الخبيث أو محامي الشيطان (advocatus Diaboli) للتهمة نفسها، وهي انتزاع العيوب في شخصيته وسط المحبين الذين يحيطون به [3].

(1) فلهاوزن، بقايا الوثنية عند العرب، ص. 204.

(2) ألويس سبرينجر (1813-1893)، مستشرق نمساوي تجنس بالجنسية البريطانية. عُين عميداً لكلية إسلامية في دلهي لإحياء الأدب العربي والفارسي. من أبرز مؤلفاته كتاب حياة محمد وتعاليمه (1851) في ثلاث مجلدات، اعتمد فيه على مصادر غير مسبوقة، كما كتب محمد والقرآن (1898) في 80 صفحة. تعد دراسته عن حياة النبي محمد من المؤلفات المؤثرة على المستشرقين والمسلمين.

(3) رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص. 24.

والسبب في عدم ملاءمة الاعتماد على كلّ تلك المراجع دون نقد هو أنَّ الاستشراقَ عموماً لا يشارك المسلمين رغبة الاعتماد على تلك المراجع دون فحص وتمحيص، معظم هذه المراجع كُتِبت بعد فترة طويلة من زمن النبيّ، بعد ظهور الدعاية السياسيَّة والدينيَّة في الإسلام التي نشرتْ روايات ملفقة، ولذلك كان لا بدَّ من التعامل مع كلّ رواية بالحذر والنقد والتدقيق قبل قبولها.

وفي هذا السياق ذكر هاينريش بيكر[1] وقال: يجب أن نتعرف لذلك لأنَّ النقد التاريخيّ الحديث يستبعد على وجه التحديد ملامح الصورة النبويَّة التي تعدّ الأكثر أهميَّة بالنسبة إلى المسلمين وبالتالي ضروريَّة لفهم الإسلام، وفي البداية، رأى النقاد القدماء الغربيون منذ ألف عام محمَّد على أنَّه محتال ولكن تدريجياً بدأ الناس بالتعرف إلى عدالته بعدّه كشخصيّة، بالرغم إلى القصص الموجودة بالسيرة التي لا تصدق. تم الفصل في المقام الأوّل بين دعوة محمد وتطور الإسلام بعدها. تابعنا التطور الدينّي لمحمد بحب واهتمام. من جانب، أطلق جوستاف وايل عصرًا جديدًا من المراقبة، وتم توسيعها فعليًا في الستينيات[2] عن طريق ويليام

(1) كارل هينريش بيكر (1867-1933)، مستشرق ألماني وأستاذ في جامعتي هامبورغ وبون. اشتهر بدراساته حول التاريخ الإسلامي، وأسس مجلة «الإسلام» (Der Islam) عام 1910.

(2) يشير بيكر إلى فترة الستينيات من القرن التاسع عشر، استنادًا إلى نشر كتابه «دراسات إسلامية» في عام 1924.

مور[1] وثيودور نولدكه [2] والويس سبرينجر، واستمروا في تطوير هذا المجال، جولدتسيهر[3] علمنا أن ننظر إلى التقاليد بنظرة جديدة، بينما فلهاوزن[4] علمنا أهمية النظر إلى التاريخ، وسنوك هورجروني[5] هو الوحيد الذي علمنا كيف

(1) وليم موير (1819-1905)، مستشرق إسكتلندي، من أبرز أعماله «حياة محمد وتاريخ الإسلام» (1858) في أربعة مجلدات، و«الجدل المحمدي» (1897)، و«القرآن: تأليفه وتعليمه» (1878)، الذي تُرجم حديثًا من قبل مالك المسلماني ونُشر عام 2023. تناول فيه تسلسل نزول القرآن بين الفترتين المكية والمدنية. كما كتب «حياة محمد وطفولته» و«حياة محمد من شبابه إلى سن الأربعين» (1854)، و«الخلافة: أصولها وانحلالها وسقوطها».

(2) ثيودور نولدكه (1836-1930)، مستشرق ألماني وأستاذ للغات الشرقية في جامعات ألمانية مثل جوتنجن وستراسبورغ. من أبرز مؤلفاته «تاريخ القرآن»، «حياة محمد»، ومساهماته في نشر تاريخ الطبري وترجمة قسم «الساسانيين» إلى الألمانية، فضلاً عن قواعد اللغة السريانية والمندائية، وتاريخ الشعوب السامية. كتب دراسات عن قواعد اللغة العربية والشعر العربي واللغات الشرقية والفقه الإسلامي، وله أعمال مترجمة وأبحاث غزيرة في الأدب العربي والدراسات الإسلامية.

(3) إجناز جولدتسيهر (1850-1921): مستشرق مجري وأستاذ بجامعة بودابست، من رواد الدراسات الإسلامية في أوروبا. زار سوريا ومصر والتقى الشيخ محمد عبده وعلماء الأزهر. من أبرز أعماله: العقيدة والشريعة في الإسلام، دراسات محمدية، والأساطير عند العبرانيين. نشر العديد من المخطوطات والدراسات عربية.

(4) يوليوس فلهاوزن (1844-1918)، مستشرق ألماني بارز، له عدة مؤلفات عن الإسلام، منها «السيادة العربية»، «الخوارج والشيعة»، و«الدولة العربية وسقوطها»، التي تُرجمت إلى العربية. كتب أيضًا «محمد في المدينة»، «التمهيد للتاريخ الإسلامي»، «دستور المدينة في أيام النبي»، «الأحزاب المعارضة في الإسلام»، و«بقايا الوثنية العربية»، إضافة إلى العديد من الدراسات الأخرى.

(5) سنوك هورجروني (1857-1936)، مستشرق هولندي زار مكة عام 1884 وغادرها

نفهم التطور الداخلي لشخصية محمد، ونحن مدينون بالمناقشات الضخمة لجميع مشكلات أبحاث حياة محمد، وذكر جميع المصادر تقريبًا، ليون كايتاني[1] في كتابه «حوليات إسلامية»[2]. وأكد نولدكه في مقدمته عن الأعمال البارزة قائلاً: على الرغم من الأبحاث الجادة التي أجريت على مدار العشرين عامًا الماضية فيما يتعلق بمحمد وأصول الإسلام، أودُّ أن أذكرَ هنا الأعمال المميزة لجوستاف وايل، كوسان دي بيرسيفال [3]، وموير، وسبرينجر. ومع ذلك، أعتقد أنه من

قبل موسم الحج. أستاذ اللغة العربية بجامعة لايدن (1907-1927)، وكان من أبرز الباحثين في الفقه الإسلامي وتفسيره ودراسات الحديث في أوروبا. من مؤلفاته «الحج إلى مكة» (بالهولندية)، «المهدي» و«مكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر» (بالألمانية)، الذي وُصف بالدقة والشمولية. أجرى أبحاثًا حول الإسلام وانتشاره، إبراهيم في القرآن، والسياسة الدينية للنبي. ألقى أربع محاضرات مهمة للجنة الأمريكية لتاريخ الأديان تناولت أصل الإسلام.

(1) الأمير ليون كايتاني (1869-1926)، مستشرق إيطالي بارز عُرف بدراساته في تاريخ الإسلام. استثمر ثروته في العلم والسفر، جمع الكتب والمخطوطات، ونشر أعماله، لكنه انتهى بالإفلاس. من أبرز مؤلفاته «دراسة التاريخ الشرقي» (1911) في أربعة مجلدات، وكتاب «حوليات إسلامية» (1905) في تسعة مجلدات. موّل ثلاث بعثات لرسم خرائط المناطق الجغرافية والطوبوغرافية، واعتمد منهجًا نقديًا لتحليل المصادر العربية، السريانية، واللاتينية. تعاون مع جوزيبي غابرييلي لإعداد قاموس سيرة الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي، لكن المشروع توقف عند المجلد الثاني بسبب وفاته. انظر: «المستشرقون» للعقيفي 1/429.

(2) هينرش بيكر، من كتاب «الدراسات الإسلامية - حول طبيعة وكينونة العالم الإسلامي»، ص. 339.

(3) كوسان دي بيرسيفال (1795-1871)، مستشرق فرنسي وأستاذ اللغة العربية بالجامعة

المهم، تقديم تاريخ مختصر وشعبي ومعتمد على المصدر لمحمد وإنه مشروع مهم يجب تقديره.

وفقًا لمارجوليوث[1] قال: فإن اكتشاف هذه الأعمال القديمة واستخدامها هو جهد مشترك بين جوستاف وايل وكوسان دي بيرسيفال وفوستنفيلد[2] وسبرينجر والسير وليم موير.

منذ تأليف هذه الأعمال، ازدادت المعرفة بمحمد وعصره من خلال نشر

الفرنسية. من أبرز أعماله كتاب «بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام» (1847)، الذي استغرق تأليفه 15 عامًا ونُشر في ثلاثة مجلدات تضم حوالي ألفي صفحة. يغطي الكتاب تاريخ العرب منذ العصور القديمة حتى عصر النبي محمد والخليفتين أبي بكر وعمر. أشاد به رينان، مشيرًا إلى أنه حل مشكلة أصول الإسلام بشكل نهائي. امتاز بيرسيفال بحرصه على نقد المصادر وفهمه العميق للحقائق والأساطير في التقاليد العربية.

(1) دافيد صمويل مارجوليوث (1858–1940)، مستشرق بريطاني وأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد منذ عام 1889. اشتهر بدراساته حول الإسلام وتاريخه، الأدب العربي وأصوله، وترجماته للنصوص العربية. من أبرز أعماله: «محمد وظهور الإسلام» (1905)، «الإسلام» (1911)، «انتشار الإسلام» (1914)، «جنوب الجزيرة العربية والإسلام» و«أصول الشعر العربي» (1925).

(2) هاينريش فيرديناند فوستنفيلد (1808–1899)، مستشرق ألماني ومؤرخ للأدب العربي، درس اللاهوت واللغات الشرقية في غوتينغن وبرلين، وعمل أستاذًا في غوتينغن بين 1842–1890. نشر العديد من النصوص العربية المهمة وكتبًا عن التاريخ العربي. يُعد من أبرز المستشرقين في مجاله، ويُقارَن بجوستاف فلوجل. انظر: موسوعة المستشرقين، بدوي، ص. 399.

كثير من النصوص العربية وجهود العلماء الأوروبيين في مجال الآثار الإسلاميَّة، مثل أعمال جولدتسيهر، وليفي بروفنسال[1]. لقد أوضح ثيودور نولدكه الكثير من الأمور الغامضة، وسهل فهم التاريخ العربي قبل النبي وبعده [2].

وقال مستشرق آخر: ظهرت في الأعوام 1833 و 1843 و 1844 منشورات فتحت آفاقاً جديدة في البحوث التاريخية والنقدية الحديثة التي تناولت محمداً وبدايات الإسلام [3].

نحاول أن نقدّم تعريفاً ونظرة موجزة لهؤلاء المستشرقين وأعمالهم المهمَّة التي مهَّدت الطريق لفهم حياة الرسول وشخصيته، وقد أصبحت هذه الأعمال مصادر مهمَّة اعتمد عليها فيما بعد أغلب المستشرقين، ومنهم مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا، ولتوضيح الأمر أكثر، فلنبدأ بكلمات المستشرق «غوستاف وايل» في مقدّمة كتابه الصادر سنة 1843، حيث ذكر أنَّ آخر أسلافه الذي كان لمؤلفه قيمة وإسهام شخصيّ هو جان جانييه، الذي كتب كتابه قبل قرون، والآن دعونا نلقِ نظرة سريعة على الدراسات النقديَّة

(1) ليفي بروفنسال (1894-1956)، مستشرق ومؤرخ فرنسي متخصص في العصور الوسطى والإسلام، ومؤسس الدراسات الفرنسية للإسلام وأول مدير لمعهد الدراسات الإسلامية في الجزائر. ركز على تاريخ الأندلس والمسلمين في إسبانيا. من أبرز أعماله: إشبيلية تحت الحكم الإسلامي في القرن الثاني عشر، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، وتاريخ إسبانيا الإسلامية.

(2) راجع مقدمة كتاب مرجليوث «محمد وظهور الإسلام»، الصفحة 2.

(3) رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص. 24.

المبكرة التي ستساعدنا على فهم أصول تلك الأبحاث.

جان جانييه (Jean Gagnier) (1670-1740).

نشرَ جان جانييه أستاذ اللّغات الشرقيّة بجامعة أكسفورد في عام 1732 كتاباً عن حياة النبيّ لأبي الفداء[1] ترجمه إلى اللاتينية[2] مع مقدّمة شاملة وحواشٍ نقديَّة، وكانتْ سيرةُ أبي الفداء للنبيّ هي السيرة الوحيدة التي درسها المؤرخون على نطاق واسع لفترة طويلة ونظراً للطلب الشعبيّ من العلماء والمثقفين المهتمين بمعرفة المزيد عن النبيّ، كتب[3] جانييه سيرة محمَّد باللّغة الفرنسيَّة بعنوان «حياة محمَّد، مترجمة مع مجموعة من القرآن والأحاديث الصحيحة وأفضل المؤلفين العرب»، نُشِرَ الكتابُ في مجلدين في أمستردام عام 1732، ثم أعيد طبعه لاحقاً في ثلاثة مجلدات عام 1748.

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن علي الأيوبي (672 هـ)، وُلد في دمشق وتولى إمارة حماة. عُرف بنشاطه العلمي، ومن أبرز مؤلفاته «مختصر تاريخ البشر» الذي اهتم به المستشرقون مثل جانييه، ويشمل قسمًا عن سيرة الرسول. كما ألف «تقويم البلدان» في الجغرافيا، ووصفه جورج سارتون بأنه أعظم جغرافي في عصره. للإشارة إلى المؤلفات الأوروبية حول أعماله، راجع كتاب «الإسلام في تصورات الغربيين»، ص. 140.

(2) أول طبعة لكتاب سيرة أبو الفداء كانت عام 1723.

(3) أشار مارجوليوث في كتابه «محمد وظهور الإسلام» (ص. 1) إلى أن المؤرخين، لفترة طويلة، اعتمدوا بشكل أساسي على سيرة أبو الفداء (توفي عام 722 هـ / 1322 م) في معرفتهم بحياة النبي محمد. وأضاف أن جان جانييه نشر أعماله في طبعة ذات جودة ضعيفة.

عُدَّ العملُ علميَّاً إلى حدّ ما في البداية، لكنَّه ظلَّ متواضعاً مقارنة بالمنشورات اللاحقة، يخصص الكتاب بعض الفصول لدحض الحجج التي قدَّمها بعض العلماء المسيحيين الذين كتبوا في المقام الأوَّل عن حياة محمَّد، مثل «لويجي ماراتشي» الكاثوليكيّ[1] و«همفري بريدو» الأرثوذكسّي،[2] وكلاهما عدَّا محمَّداً «أعظم مخادع في العالم»، يدحض جانبيه مزاعمهم ونظرياتهم الأخرى من خلال إدراج الكثير من الحكايات التي ارتبطتْ زوراً بالنبيّ بوصفها جزءاً من أخطائه، وعدَّ جانبيه أنَّ محمَّداً بريء من مثل هذه الادّعاءات. يتحدى جانبيه في الكتاب نفسه المفكر القدير «الكونت بولانفيليه»[3] في كتابه «تاريخ العرب وحياة محمَّد»، ورأى في محمَّد بوصفه

(1) لويجي ماراتشي (Marracci): كان رجل لاهوت إيطالي كرّس حياته لإعداد دراسات تهدف، كما زعم، إلى إثبات بطلان الإسلام وصحة الديانة المسيحية. أصدر كتابه «تفنيد القرآن» عام 1691، حيث قدّم لمحة عن حياة النبي محمد، ثم نشر النص العربي الكامل للقرآن عام 1698 مع ترجمة لاتينية وهوامش تحليلية. (الإسلام في تصورات الغربيين، ص. 138، بتصرف).

(2) همفري بريدو (1648–1724) (H. Prideaux)، مستشرق إنجليزي، كتب عن ابن ميمون والعهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود. أصدر كتابه «حياة محمد» في لندن عام 1697، ونُشر لاحقًا بالفرنسية. هدف بريدو إلى جعل كتابه جزءًا من تاريخ الكنيسة في الشرق، موضحًا أن النبي كان، في نظره، وسيلة لمعاقبة الكنائس الشرقية ودفعها للتوبة. مشابهًا لماراتشي، كتب بريدو للدفاع عن المسيحية في مواجهة الإسلام. (الإسلام في تصورات الغربيين، ص. 138، بتصرف).

(3) هنري دي بولينفيلييه (1658–1722)، نبيل وكاتب ومؤرخ فرنسي، تلقى تعليمه في كلية جولي وخدم في الجيش حتى عام 1697. من أبرز أعماله: «تاريخ الحكومة

نبيّاً شخصيَّة عبقريَّة ومشروعاً وفاتحاً عظيماً مكَّن قومه، وأقام ديناً عقليّاً، ولم يكنْ عمل الكونت بولانفيليه مبنياً على أيّ دراسة عربيَّة دقيقة في وقته، وذهب في وصف النبيّ بأقصى اتجاه من دون ذكر أيّ مادة تاريخيَّة، وقد ظهر ذلك في كتابه المذكور، حيث كان ينظر إليه على أنَّه روائيّ وكاتب أكثر من كونه مؤرخاً، وأرجع ذلك إلى وجود الفساد الذي لعب به الدين في تلك الفترة [1]. وقد حاول جان جانييه تجنب كلا النقيضين، وبذل كلّ جهده في استخدام المصادر الموثوقة، على الرَّغم من ندرتها.

المصدر العربي الوحيد المتاح هو سيرة أبي الفداء، التي حرّرها جانييه، ولم يزد أو ينقص من كتابه عن السيرة النبويَّة شيئاً إلَّا إذا كان خاصاً به، لقد ربط جميع الأحداث بأسلوب سرديّ نقي وبسيط وعالي المهارة، عدّ أفضل سيرة ذاتيَّة في القرن الثَّامن عشر في ذلك الوقت.

الفرنسية السابقة» (1727)، و«دولة فرنسا مع ذكريات الحكومة السابقة» (1727)، و«تاريخ العرب وحياة محمد» (1731)، الذي أعيد نشره عام 2001 بعنوان «حياة محمد». نشر ترجمة فرنسية مبكرة لأخلاقيات سبينوزا، وكتب في موضوعات مثل التنجيم، الفيزياء، الفلسفة، واللاهوت. أُشيع عنه أنه كان سبينوزيًا وملحدًا، واستخدم اسمه لترويج أطروحات معادية للدين، مما أثار جدلاً حول هويته الفكرية.

(1) جان جانييه وصف محاولات الكونت بولينفيلييه بأنها مبالغات مضحكة، فرد الأخير بضرورة تقديم وصف غير متحيز لسيرة النبي محمد، مستندًا إلى المصادر المتوفرة، لتجنب تطرف ماراتشي وبريدو من جهة ومبالغات بولينفيلييه من جهة أخرى. في عام 1723، قام جانييه بترجمة سيرة أبي الفداء إلى اللاتينية، ثم نشرها مع ترجمة فرنسية، وألّف كتابًا عن حياة محمد في جزئين (أمستردام، 1732). انظر: المستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص. 83.

كان هناك اهتمام متزايد بالدراسات الاستشراقيّة في القرن التاسع عشر، وبعد فراغ طويل دام أكثر من قرن، ولا سيَّما الدراسات التاريخيَّة والنقديَّة لحياة النبيّ محمَّد، لقد وضع الأساس لهذه الدراسات.

جـــوستاف وايل (Gustav Weil) (1808-1889).

الذي قدَّم كتابة منهجيَّة حقيقيَّة ونقديَّة، أشاد رينان بعمل وايل، قائلاً إنَّه بفضل الأعمال الممتازة لجوستاف وايل، وكوسان دو بيرسيفال، يمكننا أن نقولَ بثقة إنَّ مسألة أصول الإسلام قد حُلَّت بالكامل في يومنا هذا دون أيّ غموض، وقد قدَّم السيد كوسان دو بيرسيفال على نحو خاص عنصراً مهمَّاً وحسَّاساً من خلال المعلومات الجديدة التي قدّمها عن الشخصيَّات السابقة واللاحقة لمحمَّد، وهو موضوع كان قد أُغْفِل من قبل، وسيظلُّ هذا العملُ القويُّ والرَّائع نموذجاً لثقافة متوازنة ومنعزلة فكرياً خالية من أيّ تكهنات، وإنَّ الإدراكَ الذكي، والذكاء الذي يتمتع به السيد كوسان دو بيرسيفال يكفي لتمييز المدرسة الفرنسيَّة[1].

ومن مؤلفات جوستاف وايل «النبيّ محمَّد: حياته وتعاليمه»، وكتاب «مقدّمة تاريخيَّة نقديَّة للقرآن»[2] الذي قدَّم المنهج التاريخيّ، ويبرز كلا

(1) انظر أعلاه صفحة 6.

(2) بالطبع، اطلعت بعناية على أعمال موير، نولدكه، وسبرينجر وغيرهم حول محمد والقرآن، التي صدرت منذ الطبعات الأولى. ومع ذلك، نادرًا ما وجدت ما يدعوني لتغيير آرائي السابقة. راجع مقدمة كتاب «مقدمة تاريخية نقدية للقرآن».

الكتابين من حيث شموليَّة موضوعهما، ويستحقّ كتاب السيرة الذّاتيّة، على وجه الخصوص، عدّه فجرَ عصر جديد.

إذا لم يجد هذين الكتابين قرّاء اليوم، فقد يكون ذلك بسبب تقدّم البحث في حياة محمَّد وظهور نتائجه في منشورات حديثة، استخدم وايل جميع المصادر المتاحة في سيرته الذّاتيَّة، فجعل كتابه الأكثر أهميَّة «حياة محمَّد» الذي نُشِرَ لأوَّل مرَّة عام 1843 أوَّلَ كتابٍ تاريخيٍّ نقديّ حول هذا الموضوع، وكانتْ هذه خطوة مهمَّة في سعيه لتصوير صورة أكثر تاريخيّة وواقعيَّة عن حياة النبيّ وأصول الإسلام، خاصة بعد اكتشاف مخطوطة سيرة ابن هشام[1] التي حقَّقت تقدّماً.

وتمكَّنَ الكاتب من تطبيق المنهج وتحقيق تقدّم في دراسته مع أنَّ معظم المصادر التي استخدمها كانت غير معروفة وغير مطبوعة عند أسلافه، لكن على الرغم من ذلك، كتاب وايل المميز في الدراسات الاستشراقيَّة وتأثيره فيما بعد، ومن بين المصادر التي أدرك نولدكه أهميتها، واعتمدها في كتابه الحاليّ الذي بين يديك.

يقول البرفيسور جوستاف وايل في مقدمة الكتاب: «حين عملتُ على كتابي «حياة محمَّد» عام 1837، لم أجد سوى عمل واحد لمؤلف ذي قيمة

(1) نود الإشارة إلى أن السيرة النبوية لابن هشام (توفي عام 833م/218هـ) هي نسخة مختصرة ومنقحة من سيرة ابن إسحاق. قام ابن هشام بحذف العديد من القصص والأشعار غير الموثوقة وتنقيح النص. أما سيرة ابن إسحاق (توفي عام 769م/151هـ) فقد تم حفظ معظمها بالكامل تقريبًا في عمل ابن هشام.

شخصيَّة يمكن أن يخدمني، وهو السيرة الشاملة للنبيّ العربيّ «جان جانييه» للباحث الفرنسيّ الذي نشر كتابه عام 1732، ووصف محمَّد كما كان، وأشار جانييه إلى أنه ينبغي للأوروبيين أن يكونوا على دراية بما يقوله المسلمون، ويعتقدونه عنه «النبيّ محمّد» لأنَّ الجميع استخدموا مصادر أخرى وغير عربيَّة، من تلك المتاحة لجان جانييه لكتابة سيرة محمَّد، وقد تم ذلك على نحو سطحيّ وإهمال لا يليق بالتاريخ، وقد شوهته مبالغات وإضافات عديدة لا أساس لها من الصحة، فكان لا بدَّ من خسارة الثقة في الأمر برمته، حتى في عصرنا هذا، كما كان الحال في زمن جان جانييه، اختلطت الحقائق التاريخيَّة ببعضها، وهو ما ينبغي أن ترفضه الغريزة السليمة، لقد أسّسوا عملهم على أساسهم الحزبيّ والسياسيّ، أو الروح الكنسية أحياناً، ويسعى القارئ إلى توضيح أهمّ اللحظات في حياة النبيّ العربيّ، ومنذ ذلك الحين ظلَّ محمَّد موضوعاً استثنائيّاً للدراسة بالنسبة إليّ، ورفيقاً مألوفاً لأفكاري، والقرآن وتفسير الجلالين وتعليقات العلماء، حتى إن لم تكنْ دقيقة دائماً، ظلَّتْ موضوعاً ثابتاً لدراستي.

كان حلُّ المهمَّة التي حدّدتها لنفسي صعباً للغاية، لأنَّه لم يكنْ يتعلَّق فقط لتقديمه لمؤرّخي المستقبل، حول سيرة محمَّد وإقامة الإسلام، بل أردت أن أكتب التاريخ الداخليّ والخارجيّ لهذا الرجل الاستثنائيّ وتعاليمه أيضاً، وهذا يعني أنَّه لم يكنْ مسموحاً لي ببساطة نقل المصادر أو الحصول عليها حسبما أراه مناسباً، وبدلاً من ذلك اضطررت إلى إخضاع معلوماتهم لتدقيق صارم، فهل من الضروريّ أن يشكّكَ المرء في كلّ الكتب التاريخيَّة التي

ألفها الشرقيون لمجرَّد أنَّهم لم يسترشدوا بعواطفهم وخيالهم فحسب، بل بحماستهم الدينيَّة أيضاً؟

في الواقع، في القرن الثَّاني، حين ظهرت السيرة الأولى لمحمَّد، أولئك الذين تجرؤوا على تتبع قصصهم وجمع الروايات المعاصرة، لم تكنْ حياة محمَّد بأكملها منذ ولادته إلى وفاته سوى شبكة من الحكايات والأساطير وحتى العين الأوروبيَّة الأكثر صرامة لم تكنْ قادرة دائماً على الفهم والإزالة الكاملة، حتى القرآن الذي جُمِع بعد وقت قصير من وفاة محمَّد، ليس دليلاً موثوقاً به، فبغض النظر عن كونه معدوم الفائدة تماماً من حيث التسلسل الزَّمنيّ، فإنَّ محمَّداً نفسه سحب أشياء كثيرة في حياته، وكان هناك حذف وإضافة بعد وفاته، وبعد إنهاء مهمَّة البحث التاريخيّ قدر الإمكان، جاءت المهمة الثانية والأكثر تحدياً في مجال التاريخ: تحقيق كلّ الحقائق المكتشفة، ونظراً إلى عدم وجود معلومات متماسكة عن السنوات الأولى من حياته وشباب النبيّ، فإنَّه من الصعب إثبات التطور الوراثيّ المنظَّم للنبيّ، وفيما بعد، حين ظهر محمَّد بوصفه نبيَّاً، أصبح المؤرخون القدماء مهتمين على نحو خاص بحياته الخارجيَّة والنمو التدريجيّ لسلطته، وبدرجة أقلّ بتطوره الداخليّ، لقد تابعت نشاطات محمَّد بعناية خطوة خطوة في المصادر دون أيّ تحيز في البحث والفحص، مجتهداً في استخلاص الحقيقة التاريخيَّة من الهالة المحيطة به، وبما أنَّه لا يمكن الوصول إلى أيّ مكان آمن، فقد أعلنت شكوكي للقارئ صراحة، في فصل الأسطورة عن القصة، وفهم هذه الشخصيَّة الغامضة ووصفها، وكذلك استكشاف المصادر التي شهدها وعيي الخاص، فلا بدَّ

لي من أترك الحكم للخبراء المحايدين، ومن الممكن للمرء أن يقبل كحقيقة ذات مصداقية أنَّ محمَّداً كان لديه مراجع كاملة لكلّ من العهدين القديم والجديد[1].

ومنذ ذلك الحين لم تستمر دراسة غوستاف وايل طويلاً حتى بدأت دائرة العلماء من المستشرقين تميل نحو الدراسات الإسلاميَّة، فظهرت الدراسة الجديدة عن السيرة النبويَّة التي كانتْ أكثر شمولاً.

كوسان دو بيرسيفال (Caussin de Perceval) (1795-1871).

اعتمد على مصادر أوسع، حتى إنَّ «رينان» الذي ذكرنا رأيه آنفاً، قال: «وقد قدَّم السيد كوسان دو بيرسيفال على نحو خاص عنصراً مهماً وحسَّاساً من خلال المعلومات الجديدة التي قدَّمها عن الشخصيات السابقة واللاحقة لمحمَّد، وهو موضوعٌ كان قد أُغفِل من قبل، وسيظلّ هذا العمل القويّ والرائع نموذجاً لثقافة متوازنة ومنعزلة فكرياً خالية من أيّ تكهنات، وإنَّ الإدراك الذكي، والذكاء الذي يتمتع به السيد كوسان دو بيرسيفال يكفي لتمييز المدرسة الفرنسيَّة»[2] .

يعدُّ كتاب «مقالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، في زمن محمَّد وتوحيد جميع القبائل في ظلّ الشريعة الإسلاميّة»، الذي نُشِر عام 1847، أعظم تحفة

(1) راجع مقدمة جوستاف وايل في كتاب «النبي محمد: حياته وتعاليمه».

(2) راجع رينان، «محمد وأصول الإسلام»، ص. 6.

له وأهمّ أعماله، وهو يتألف من ألفي صفحة تقريباً في ثلاثة مجلدات، وهو نتيجة لخمسة عشر عاماً من العمل، وهو يتتبع تاريخ العرب من فترة الجاهليَّة إلى توحيدهم في ظلّ الشريعة الإسلاميَّة الذي يضعه في العام 650، وقد نُظِّم النص في المقدّمة حسب التقسيمات الجغرافيَّة والزَّمنيَّة عبر عدّة فصول، يغطي المجلد الأوَّل موضوعات مثل: «الأصول والقبائل المنقرضة»، و«اليمن»، و«مكة»، ويتناول المجلد الثَّاني تاريخ المناطق الشمالية: «الحيرة»، و«غسان- عرب سوريون»، و«نجد»، و«يثرب»، أمَّا المجلد الثَّالث فيركز على محمد وخلفائه أبو بكر وعمر. وقد حرص كوسان بشدَّة على التأكيد على ضرورة النقد المصدريّ، إذ كان يدرك تماماً مزيج الحقيقة والخيال، والتاريخ والأسطورة المتمثّل في الكتابات العربيَّة، ولم يستسلم بسهولة للتغيرات التي حدثت لأسباب مذهبيَّة أو طائفيَّة، وأظهر عيناً ثاقبة تميز الجيد من السيّئ، ولاحظ أنَّ السيرةَ تطوَّرت، وأعيد تشكيلها مراراً وتكراراً، تماماً كما تطوَّر الدينُ الإسلاميُّ نفسه، ممَّا يجعل التقدير الدقيق للمصادر ممكناً من خلال دراسة متعمقة للمصادر لإعادة بناء التاريخ حيث لا يمكن تقديم سوى انعكاسات متأخرة لهذا التاريخ.

ويناقش كوسان دو بيرسيفال هنا في مقدّمة الكتاب أهميَّة تجميع كلّ الوثائق ومناقشتها وتنظيمها، والتي قدَّمها المؤلفون الشرقيّون عن الشعب العربيّ منذ نشأته حتى اللحظة التي بدأت بها قوّته في التطور، لقد انقسم الشعب العربيّ لفترة طويلة إلى أجزاء شكّلت كثيراً من الدول المختلفة أو الجمهوريَّات الصغيرة أو الفصائل المتعادية، لوحدة العرب في النهاية على

يد محمَّد، وتأسَّستْ وحدة الأمة أخيراً في زمن عمر، هذا هو الموضوع الذي حاولت معالجته في هذا العمل، ولإنجاز هذه المهمَّة تمكنت من الوصول إلى كثير من المواد التي جمعتها، وفحصتها وقارنتها لأكثر من عشر سنوات، ومع ذلك، وعلى الرَّغم من هذه الجهود، إذا لم تكن المواد المتاحة كافية لسدّ جميع الثغرات، أو إذا كانت قيمتها المشكوك فيها لم ترض النقد تماماً، فإنَّ هذا، في رأيي، يعدُّ عيباً متأصلاً في هذا الجزء من موضوعه، ومن هو الشعب الذي لا يحجب تاريخه البدائيّ بالضباب؟ إنَّ الأحداثَ في حياة الأمم لا تسجل إلَّا حين تشكّل حضارات كبيرة منظمة، لم يكنْ لشبه الجزيرة العربيَّة سجلات حقيقيَّة إلَّا في وقت متأخر جداً، منذ عصر الحضارة الإسلاميَّة، باستثناء بعض النقوش القديمة الموجودة في اليمن التي لا يعرف معناها، ليس لدى العرب نصوص مكتوبة أو آثار أقدم من القرآن من الفترات القريبة من ميلاد محمَّد.

أمَّا الأحاديث الشفويَّة غير المؤكَّدة والمربكة والفريدة من نوعها التي تمَّ الحفاظ عليها حتى الآن، فلم تُجمَعْ إلَّا بعد فترة طويلة في كتب لم تصل إلينا، ومع ذلك، فإنَّنا نمتلك أجزاء منها دون أيّ ترتيب معين، وقد كتبها مؤلفون لاحقون، ونُقِلت إلينا، وفي كثير من الأحيان تكون هذه الأحاديث والأساطير متناقضة مع بعضها، على الأقلّ في المظهر، وعادة ما تكون ممزوجة بالخرافات، ومع اقترابنا من العصر النبويّ نرى تدريجيَّاً الجانب الأسطوريّ يتلاشى من الأحاديث، وتصبح الطبيعة التاريخيَّة أكثر وضوحاً.

إنَّ العملَ الذي كلفني أكبر عناء في إعداد الجدول الزّمنيّ لعصور ما قبل الإسلام مدعم بالوثائق التي تحدّد التسلسل الزّمنيّ لهذه القصة، ويهدف إلى مساعدة القارئ على اكتساب فهم واضح للفروع المختلفة للأنساب المختلفة وفهم الروابط الأصليَّة التي توحّد القبائل أو العائلات العربيَّة المختلفة، هذه الروابط ضروريَّة، ولا ينبغي إهمالها، وذكرت أن ليست كلّ أنساب العرب مؤكّدة، بل نجد عدداً لا بأس به منها يفتقر إلى الأدلة الواضحة، ومع ذلك هناك من النصوص الأصليَّة التي يعود تاريخها دون أيّ ثغرات محتملة إلى نحو ستة قرون قبل محمَّد، وهذه ظاهرة فريدة في نوعها بين الأميين الذين لا يعرفون عموماً فن الكتابة، مثل العرب، إنَّ ذلك نابع من تفانيهم في الحفاظ على ذاكرة أسلافهم، وكانتْ أسماء الأجداد المحفورة في أذهان الأطفال بمكانة سجلات أرشيفيَّة للعائلات، وارتبطتْ هذه الأسماء بالضرورة ببعض المفاهيم المتعلقة بحياة الأفراد والأحداث التي برزوا فيها، وهكذا انتقلت القصص من جيل إلى جيل لتصبح مقدِّمة لتاريخ الاسلام، وممراً لتاريخ محمَّد وخلفائه، لا يمكن فهم الثورة التي قام به الإسلام السياسيّ في شبه الجزيرة العربيَّة دون فهم شامل لأصولها.

وبفضل مخطوطات المكتبة الملكيَّة تمكنّا من تقديم تفاصيل جديدة عن محمَّد وعصره، ولا سيَّما السنوات الأولى من رسالته، ممَّا سيساعد في تسليط الضوء على هذا الشخص الاستثنائيّ، الذي ظهر في وقت كانتْ عبادة الأصنام منتشرة بين العرب، ممَّا أثار الشكوك، ودفع البعض للبحث عن دين أفضل وأطهر. لقد أصبح وصول النبيّ الوشيك اعتقاداً منتشراً في

كثير من العقول، لقد أقنعه خياله التأمليّ والمنعزل بأنَّه كان النبيّ المتنبأ به، وبدا له أنَّه كان عليه أن يؤمن بنفسه ليتحمل ما يقرب من اثنتي عشرة سنة دون أن يتخلَّى عن دوره بوصفه رسولاً، على الرَّغم من السخرية والإذلال والاضطهاد الذي تعرَّض له أهل وطنه، ولكي يغرس في رجال مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من الشخصيَّات البارزة التي دعمت عمله، واستمروا فيه، القناعة بأنَّ لديه مهمَّة عليا يجب أن يؤديها، كان عليه أن يتصرَّف وفقاً لذلك، وهو نفسه كان لديه هذه القناعة العميقة؛ لذلك إذا لجأ فيما بعد إلى وسائل الحيلة والعنف، فلا داعي للمفاجأة، ففي نظر من يسير نحو هدف يعتقد أنَّه أمر إلهيّ، فالغاية تسوغ الوسيلة، ولن يكون من العدل أن نرى في محمَّد إلَّا مخادعاً ماكراً، أو عبقريّاً طموحاً، وكان محمَّد على قناعة بأنَّه مؤتمن على إنقاذ قومه من الضلال، هذا هو الانطباع الذي اكتسبته من دراستي لحياة مؤسّس الإسلام وخليفتيه الأولين أبي بكر وعمر، إنَّهم يستحقون ذلك حقاً، ويبدو لي أنَّ فترة حكمهم، وتحديداً الثَّاني، كانت من أفضل الفترات التي عاشها الشعب العربيّ، وبعد قرون من العيشْ في ظروف غامضة، وهم محرومون من الحضارة العربيَّة على الرَّغم من طبيعتهم العسكريَّة الملحوظة، ومنقسمون، تحولوا فجأة إلى أمة منتصرة بمجرَّد أن اتحدوا في ظلّ الشريعة الإسلاميّة، وتوسّعوا في الأراضي التي قدّمت ديناً ومؤسّسات جديدة، وبدافع من دوافع القوة التي غرسه فيهم محمَّد، دون أيّ منافسة سوى تفانيهم في نشر إيمانهم، لم يفقدوا بساطتهم الايمانية البدائيَّة، وفي غضون سنوات قليلة نجحوا في غزو الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة كلّها وبلاد

فارس ومصر، وأحكموا هيمنتهم بالقرآن، إنَّ الحماس الذي دفعهم خلال هذا الوقت، إلى جانب تقشفهم الفخور، يفوق عظمة الخلافة في العصرين الأمويّ والعباسيّ[1].

وليم موير (William Muir) (1819 - 1905).

لا يمكن إنكار أنَّ أعمال وليم موير، في مجلداته الأربعة الشاملة عن حياة محمَّد، اعتمدتْ على أعمال أسلافه مثل الدكتور غوستاف ويل، والسيد كوسين دي بيرسفال، والدكتور سبرينجر، لكن الجدير بالذكر أن ظهرت في زمنه إصدارات ومخطوطات جديدة لم يسبق نشرها، فاستعان بها، منها: «مختصر سيرة ابن هشام»، و«مغازي الواقدي»، و«الكامل» لابن الأثير، و«طبقات ابن سعد»، و«تاريخ الطبري»، و«البلاذري»، و«تاريخ الخلفاء»، وغيرها الكثير من المصادر، ولذلك لا يمكن إنكار أنَّ عمل وليم موير يحمل جانبًا جدلياً، وكما يذكر مارجولوث «مكتوب بتحيز مسيحيّ معترف به»[2]، فإنَّ هذا قد يجعل الكتاب غير مريح للمسلمين، ويسلط الضوء على الجدل العقيم الطويل الأمد بين الإسلام والمسيحيَّة، ومع ذلك لا شك في أنَّ وليم موير حرص دائمًا على التحلي بالعدل والإنصاف، ويظهر ذلك بوضوح لمن يطالع الفصل الثلاثين من المجلد الرابع، وهو الباب الأهم حيث جاء فيه أنَّه

(1) الاطِّلاع على مقدّمة كتاب «مقالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، خلال فترة محمَّد، وحتى تقليص جميع القبائل تحت القانون الإسلاميّ» من تأليف كوسان دي بيرسيفال.

(2) راجع مقدمة كتاب مارجوليوث «محمد وظهور الإسلام»، ص. 2.

«قبل أن أنهي هذا العمل، لا بدَّ أن أجمع في فصل واحد السمات الأساسيَّة لشخصيَّة محمَّد في مراحل حياته المختلفة»[1].

وفي هذا الفصل الأخير الذي يناقش «شخصيّة النبيّ» هناك ما يكفي من الأدلة والإنصاف لإظهار حسن نيَّاته وصدقه، فهو على الرَّغم من اتّخاذه موقفاً قوياً لصالح عقيدته في الجدل الدائر، فإنَّه كان دائماً متمسكاً بالموقف الصحيح لجلب ثقة المسلمين، ويتضمَّن الكتابُ سلسلةً من الأبحاث النقديَّة التي لها قيمة دائمة ومشهود لها بأهميتها الكبيرة وضخامة العمل الذي تمثله.

الويس سبرينجر (Aloys Sprenger) (1813-1893).

كتاب «حياة محمَّد وتعاليمه - حسب المصادر غير المستخدمة حتى الآن»[2] هو العمل الذي يهيمن حالياً على السوق في الألمانيَّة[3]، وينطبق هذا على نحو خاص على أهمّ أعماله وأشهرها حيث أعرب نولدكه[4] عن إعجابه به بعدّه «كتاباً رائعاً»، وذكر أنَّه بالنسبة إلى العمل الضخم «حياة محمَّد وتعاليمه» لسبرينجر المعروف بالدقة والحدَّة وذكاء العرض، ورغم اختلافاته الكبيرة في الرأي، فأنا لم أستطعْ إلَّا أن أستخدمَ الجزء الأوَّل منه في

(1) وليم موير، «حياة محمد»، المجلد الرابع، ص. 302.

(2) كتاب سبرينجر، الذي صدر في ثلاثة مجلدات بين عامي 1861 و1865، أُعيد طباعته بالكامل عام 1869.

(3) فلهاوزن، «محمد في المدينة»، ص. 20، طبعة عام 1882.

(4) حكم ورأي نولدكه لهما أهمية كبيرة هنا، رغم كونه منافسًا قويًا لسبرينجر.

أثناء تأليفي هذا الكتاب[1] وأشار إلى الدراسة المذهلة والثاقبة لحياة الرسول، التي مكنته لفتح عهد جديد في هذا المجال[2].

ظهر كتاب سبرينجر التاريخيّ والمثير للجدل في ثلاثة مجلدات بين عامي 1861 و 1865 في برلين، وأعيد طبعه لاحقاً بكامله في عام 1869، وهذا العمل الضخم هو نتيجة للدراسات الشاملة والدقيقة، ممَّا يجعله أحد ألمع ممثلي الدراسات الشرقيَّة، وقد شيد به لدقته الرائعة، ويظلّ بحثه عن الإسلام والسيرة النبويَّة من أغنى الأعمال العلميَّة في هذا الموضوع وأعمقها، ومن المؤكَّد أنَّ الأمرَ المهمَّ هو أنَّ أعمال سبرينجر، إلى جانب الأعمال المهمَّة، كان لها تأثير كبير في القضايا والمناقشات المركزيَّة المحيطة بسيرة النبيّ وسلامته العقليَّة والجسديَّة[3].

ولا يوجد أدنى شك أنَّ هناك وجهات نظر مختلفة ومناقشات قديماً وحديثاً حول كتابه «حياة محمَّد وتعاليمه»، و أهمّ تلك الآراء حول كتاب سبرينجر ما ذكره فلهاوزن، وقال: «المهمّ أنّه كتاب خطير لمن يضطرّ إلى الاعتماد عليه بأيّ وجهٍ من الوجوه دون أن يتمكّنَ من التحقق من دقته،

(1) راجع مقدمة نولدكه في هذا الكتاب، ص. 46.

(2) راجع المجلة النمساوية لشرق، سنة 1913، ص. 199.

(3) دراسة «محمد والقرآن» لسبرينجر تقدم تحليلاً طبيًا لشخصية النبي، مشيرة إلى أعراض نفسية وجسدية مثل الانهيارات العصبية، ارتعاش العضلات، حركات لا إرادية للرأس والعينين، والأرق، مع الإشارة إلى تأثير هذه الأعراض على شخصيته ورغباته في مراحل متأخرة من حياته.

ويمكن عدّه منجماً غنياً بالمواد والأفكار، لكنَّه لا يوصي به كتوجيه لجمهور أكبر، ومع ذلك، فهو يقدّم فهماً واضحاً للعمليَّة التي امتدَّتْ لآلاف السنين وأدَّت إلى ظهور الشعب السامي، لقد تطورت دائماً طبقات جديدة ترسبت وما زالت تترسَّب على السواحل السوريَّة البابليَّة لبحر الصحراء العربيَّة، فهو يعرف ويتقن كلّ الأدبيَّات الأصليَّة المتعلقة بالقرآن والإسلام، ونحن مدينون بإثراء مكتبتنا العربيَّة على نحو هائل بفضل حماسته وحدسه لكنَّه لا يهتم بالفهم الدقيق لنصوص الرواية.

بغض النظر عن فائدة كتاب سبرينجر «حياة محمَّد» في تقديم البحث، وفي رأيي أنَّه لا يليق إطلاقاً أن يكونَ على حاله الحالية؛ أي الكتاب الذي يتناول هذا الموضوع، وقد قدَّم الفرنسيون أحدث أعمالهم وأفضلها، وهو إنجاز كوسين دي بيرسفال، ومن ناحية أخرى أثبت جوستاف وايل قدرته على استخدام القرآن بعدّه مصدراً أساسيَّاً لقصة النبيّ وتاريخه.

أمَّا المهمة الثَّالثة والأصعب، وهي الكشف عن جذور الإسلام في تربة الديانات القديمة، فربَّما تناولها سبرينجر بوعي أكبر لكن دون أن يكونَ مجهزاً على نحو كافٍ لهذا الغرض؛ إذ لا يمكن فعل الكثير مع المصادر العربيَّة وحدها، لا يخطر ببالي إنكار أهميَّة عمل سبرينجر أبداً، وهو النظر إلى الأدب العربيّ بوصفه مجموعة واسعة من الأمثلة على القواعد النحويَّة، فقد ظهر سبرينجر منعشاً للغاية من خلال إحساسه الصحيّ والحيويّ بالأشياء، ومن خلال اهتمامه الحقيقيّ والفوريّ غير المتعلّم والمتدرب بمحتوى الأحاديث،

وهنا تكمن كلّ نقاط الضعف التي يريد أن يثبتها وفقاً لجميع قواعد فنّه آنة يفتقر إلى الأساس، ومع ذلك، فإنّ التعليقات التي أدلى بها على مدى فترة طويلة غالباً ما تلقي ضوءاً مذهلاً على هذه القضيَّة» [1].

لكن تُعدّ سيرة حياة محمَّد لسبرينجر رغم ما فيها من ألوان النقص هذه جهداً مهماً، لا لأنّها أثّرتْ في الصورة التي ظلَّ الناس في البيئات المثقفة في ألمانيا عشرات السنين يكونونها عن الإسلام فحسب، بل لأنّها تمثّل محاولة ناجحة أيضاً، على الأقلّ من الناحية الشَّكليَّة لصبّ معلومات مفصَّلة مستقاة مباشرة من المنابع في قالب جامع ضخم، ولتقديمها إلى جمهور واسع من القرّاء، كذلك كان مهتماً بتتبع الأثر العظيم الذي كان للظروف الثَّقافيَّة النابعة من الإسلام في أوروبا في العصر الوسيط، وكان حريصاً على فتح أعين مجتمعه عليه وتنبيهه إليه.

خط في شبابه على تكريس نفسه للدراسات الآسيويَّة كلّها، وزيارة الشرق والإسهام في إدخال الثقافة الأوروبيَّة هناك، والعودة إلى أوروبا بمعرفة صحيحة بالشرق وآدابه، وظلَّ مدَّةً تزيد على 12 عاماً مقيماً بالهند عاملاً في ميادين التعليم والمكتبات والثَّقافة العامَّة، وانتهزَ الفرصة فوسَّع اطّلاعه في الثَّقافة الإسلاميَّة المدونة، وعرف ما كُتِبَ عن التاريخ العربيّ الإسلاميّ والتاريخ الهنديّ الإسلاميّ، فدفع ما دفع إلى المطبعة وجمع لنفسه

(1) فلهاوزن، «محمد في المدينة»، الصفحات 21-24. أشار مارجوليوث إلى أن «حكم فلهاوزن على سبرينجر عادل وسليم تماماً». انظر هامش ص. 2 في كتاب «محمد وظهور الإسلام».

ما استطاع إلى جمعه سبيلاً، وهكذا خرجَتْ بإشارة منه طبعة «فهرس كتب الشيعة» للطوسي، وطبعة «الإتقان» للسيوطي، في سلسلة المكتبة الهنديَّة Indica Bibliotheca.

كذلك كانتْ له يد في إخراج طبعة الكشاف للزمخشري، وفي إخراج طبعة مقتطفات من كتاب المغازي للواقدي، وقد اكتسب سبرينجر علماً واسعاً غير مألوف في عصره بأعمال أدب العصر الإسلاميّ المبكّر، وكان يمتلك مخطوطات من سيرة ابن هشام/وتفسيرها، ومن أجزاء من حوليات الطبري، وقد عثر على الجزء الأوّل من كتاب الطبقات لابن سعد في مكتبة خاصة في كاونبور، وعثر على أجزاء أخرى من الكتاب في تاريخ دمشق، وكان على الأقلّ يعرف موطأ مالك، والصحيحين للبخاري ومسلم، ومجموعات الحديث الأربع المشهورة الأخرى، واستيعاب ابن عبد البر، والإصابة لابن حجر، وتاريخ ابن الأثير، ولمّا عاد سبرينجر عام 1856 نهائيّاً إلى أوروبا أحضر معه مجموعة من الكتب تقرب من 2000 مجلد، بينها 1100 مخطوط عربيّ، انتقلتْ ملكيتها بعد ذلك بقليل إلى مكتبة برلين، وتقوم مكتبة جامعة توبنجن منذ نهاية الحرب العالميَّة الثَّانية بالإشراف عليها والعناية بها، وباب الاطلاع عليها مفتوح للطالبين[1].

يعبّرُ سبرينجر في المقدّمة عن عمله قائلاً: «بعد انتهاء الفترة التي

(1) رودي بارت، «الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية»، الصفحات 24-26.

قضيتها في السفر، أراه واجباً عليَّ إذا أردت أن أكون مخلصاً لخطة حياتي، وأن أقوم بمعالجة بعض المواد التي جمعتها في الشرق، يعدّ الإسلام من أعظم الظواهر التاريخيَّة في حدّ ذاته، ثم إنَّه يحتوي على لحظات تهدف على نحو خاص إلى جذب انتباه المؤرخين، وبغض النظر عن عمره، فإنَّ تاريخ ظهور هذا الدين العالميّ هو التاريخ الوحيد الذي لدينا عنه معلومات موثوقة عن أصوله، الموضوع لم يكنْ صعباً بالنسبة إليّ، ويضيف قائلاً: نتائج أبحاثي تؤكّد بالقناعة أنَّ الإسلام لم ينشأ من الدم، أو من إرادة الجسد، أو من إرادة رجل، بل انبثق نتيجة لاحتياجات الزَّمن، لقد بذلتُ مجهوداً كبيراً لنقل هذه الفكرة إلى قرَّائي وإثبات أنَّ محمَّداً لم يكنْ بطلاً في مفهوم كارلايل[1] ولم يكنْ أداة للشيطان[2]، وقال: إنَّ التعليمَ الفلسفيَّ أكثر شيوعاً بين المسلمين ممَّا نفترض عادة، وهم يتميزون من جميع الطوائف الدينيَّة الأخرى بثبات قناعاتهم، أفضل الالتزام بقواعد النقد التاريخيّ التي وضعها المتكلمون المسلمون، وأنا في هذا الأمر أتبع مدرسة ابن خلدون، وأعمل مثل هذا المفكر الكبير على وضع القوانين التاريخيَّة.

(1) توماس كارليل (1790-1881)، مؤرخ وفيلسوف إنجليزيّ، يُعد من أبرز مفكري الحضارة. أصدر كتابه الشهير «الأبطال وتقدير الأبطال» عام 1840، حيث خصَّص المحاضرة الثانية فيه للحديث عن النبيّ محمد. وقد ترجم الأستاذ علي أدهم هذا الجزء إلى اللغة العربية.

(2) ذكر وليم موير أنَّ محمَّداً كان أداة من أدوات الشيطان، غير أنَّه أقرَّ بأنَّ هذا الشيطان قد تجلَّى له في هيئة رسول إلهيّ. انظر: «سيرة الرسول في تصورات الغربيين»، للمستشرق الألمانيّ جوستاف بفانمولر، ص173.

حيث يبدو أنَّ الناس يميلون إلى العودة إلى مفاهيم الدين في العصور الوسطى، بسبب نقص الفلسفة التاريخيَّة المبنيَّة على الحقائق، ومهما كانتْ انحرافات الفلسفة الطبيعيَّة كبيرة، فمن الواضح أنَّه من دونها لم يكنْ من الممكن أن يصلَ البحث العلميّ إلى مستوياته الحاليَّة، وبالمثل، فإنَّ علمَ التاريخ لا يمكن أن يزدهرَ إلَّا تحت تأثير الفلسفة التاريخيَّة المعقولة، لقد قضيت أفضل جزء من حياتي في المشرق، وكان أعزّ أصدقائي وأقربهم هم المسلمون.

ثيودور نولدكه (Theodor NÖldeke) (1836-1930).

شيخ المستشرقين غير المدافع[1] اعترف كلّ من فلهاوزن، وجولدزيهر بالأولويَّة المطلقة لنولدكه[2] وقال سنوك هورجروني: «كان واحداً من أعظم المستشرقين الذين عاشوا مطلقاً»، وقال أيضاً[3]: تلاميذ نولدكه هم بمكانة كلّ المستشرقين، ولا سيَّما كلّ الساميين، وباحثي الإسلام والإيرانيين منذ ستينيات القرن التاسع عشر، لأنَّ كلَّ واحد منهم وجد نفسه مضطراً لأخذ معرفة بسلسلة من كتب نولدكه، كانوا من العلماء الذين جلسوا عند قدميه أو الذين جاؤوا في سن أكبر للاتصال الشَّخصيّ به، حتى إنَّ نولدكه البالغ

(1) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص. 495.

(2) في كتاب «العرب في الدراسات الأوروبية» لجون فوك، ص. 219، ذكر أن «نولدكه وفلهاوزن كان كلٌّ منهما يرى أن الآخر أكثر أهمية منه».

(3) ثيودور نولدكه، «سنوك هورجروني»، مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، 1931، المجلد 85.

الحادي والعشرين عاماً قد أثّر في حياة نظيره دي خويه وعمله [1].

أخّرنا الكلامَ عن دور نولدكه عن قصد بحسب الترتيب الزمنيّ والتسلسل الهرميّ لفترة الستينيات من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تعدُّ ذات أهميَّة كبيرة في التعريف عن بدايات الدراسات الاستشراقيَّة النقديَّة المتعلّقة بسيرة النبيّ محمَّد وشخصيّته وظهور الإسلام، وتركت نجاحاته العلميَّة وتأثيرات بصمات شخصيّته على جميع الدراسات الشرقيَّة، ويحظى إنتاجه من الكتب والأبحاث بتأثير كبير في كلّ الأنشطة الأدبيَّة التي كانت في المشرق والمغرب.

أمّا من الناحية المنهجيَّة وموهبته في التأمل الفلسفيّ العميق، فكان يهتمُّ بادئ ذي بدء بفهم الوقائع وتحليلها، وقد ذكر عن نفسه أنَّه يتبع المدرسة العقليَّة [2]، ويصح أن نقول عنه: إنَّه كان يتبع الوضعيَّة، وهو في كلّ نظريَّاته يعالج الأمور كلّها على نحو موضوعيّ خالص يلازمه أشدّ الالتزام، ويعبر عمّا يريد بعبارات واضحة، وإذا حدث بشيء صدق وأخلص، فإذا صادف

(1) دي خويه (1836-1909)، مستشرق هولندي بارز وأستاذ اللغات الشرقية في لايدن منذ عام 1866. من أبرز أعماله «المكتبة الجغرافية العربية» في سبعة مجلدات، وهي مرجع هام للجغرافيين العرب. كما ألف «مذكرات في تاريخ الشرق وجغرافيته». كان من تلاميذ المستشرق الكبير رينهارت دوزي.

(2) نولدكه وصف نفسه مرارًا بـ«العقلاني»، لكن ليس بالمعنى الشائع للكلمة، إذ يمكن اعتباره ممثلاً للعقل السليم في المسائل العلمية، بينما كان عاطفيًا للغاية في الأمور الشخصية. كان يلقب نفسه مازحًا بـ«الوثني المحافظ»، مفضلاً الشعر العربي الوثني. انظر مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، 1931، المجلد 85.

أمراً لم يكنْ متأكداً منه، أبان عن ذلك، أو تركه كلياً دون أن يقول فيه رأياً، فما ضلَّ من انضوى لقيادته العلميَّة قط [1].

حتى نفهم نولدكه وطريقة تفكيره دعني آخذك قليلاً لبداية مسيرة حياته العلميَّة.

وُلِد مؤسّسُ الدراسات الشرقيَّة الحديثة في أوروبا في الثّاني من ربيع الاول 1836 في هاربورغ، حيث كان والده كارل نولدكه [2] آنذاك مديراً للمدرسة الثانويَّة في لينغن، وُلِد الصبيّ ضعيفَ البنية، إلى الحدّ الذي جعله لا يشارك في ألعاب الشباب في هاربورغ، لأنّه لم يكنْ قادراً على التمتع بالحيويَّة المفرطة مثل الأطفال الآخرين، وعدَّ نفسه مرشحاً للإصابة بمرض السل.

وعانى في سن الخامسة عشرة من نزيف حاد، ممَّا جعله يتغيَّب عن المدرسة، وخلال هذه الفترة من عيد الفصح 1849 إلى خريف 1853، كان الصبيّ مستعداً في المقام الأوَّل للدراسة الجامعيَّة تحت إشراف والده، ومن خلال القراءة الشخصيَّة المكثَّفة أسَّس تعليماً عميقاً كأساس لتحيزه المعلن خلال هذه الفترة، وتمكن من تكريس نفسه بالكامل للغات الكلاسيكيَّة؛ اللاتينيَّة

(1) رودي بارت، الدراسات العربية في الجامعات الألمانية، ص. 27.

(2) كارل نولدكه، عالم فيلولوجيا من أسرة ألمانية شمالية تعود جذورها لعدة قرون، وكان يفخر بأصوله. كان ثيودور نولدكه يأمل أن ينتمي أسلافه لقبيلة شيروسي الجرمانية، التي قادت بقيادة أرمينيوس هزيمة كبيرة للرومان في معركة غابة تيوتوبورغ عام 9م. هذه الهزيمة تُعد نقطة تحول تاريخية، حيث منعت الرومان من فرض سيطرتهم على الشعوب الجرمانية شرق نهر الراين، وصُنفت كإحدى أعظم هزائم الإمبراطورية الرومانية.

واليونانيَّة، تحت إشراف والده، وركَّز على دراسة العبريَّة، ونجح في تعلّمها بمفرده إلى الحدّ الذي جعله، بعد تعافيه إلى حدّ ما[1] يُعفى من دروس العبريَّة في المدرسة، كان الأب قدوة لابنه في الواجب، وبوصفه باحثاً في الأدب القديم، فقد غرس فيه حبّ العصور الكلاسيكيَّة التي ظلَّتْ معه طيلة حياته، وذكر هو نفسه في سنواته الأخيرة، «لقد بحثت دوماً عن أرض اليونان بروحي»[2] وفي ذلك الوقت كتب والده في الرَّابع من شوال 1853 إلى صديقه الأستاذ الجامعيّ هاينريش إيفالد[3] في غوتنغن، «بينما أوصيك بابني ثيودور، أعتقد أنَّني أوصي

(1) عانى خلال شبابه من سوء الصحة واضطرابات مزمنة في المعدة والأمعاء، إضافة إلى الأرق. أثَّر مناخ شمال غرب أوروبا سلبًا على بنيته الهشة. في رسالة عام 1895، كتب: «إذا كنت ترغب في رؤيتي مرة أخرى، فعليك الإسراع، لأنني سأبلغ الستين قريبًا ولا أتوقع الكثير». بعد ست سنوات، قال: «من المدهش أنني تجاوزت الأربعين، وما زلت قادرًا على العمل، لكن هذا قد لا يستمر طويلاً». راجع: مقال ثيودور نولدكه بقلم سنوك هرخرونيه، مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، 1931، المجلد 85.

(2) سأل سنوك هورجروني نولدكه ذات مرة عن سبب اختياره الدراسات السامية بدلًا من اليونانية، فأجاب بأن الدراسات اليونانية قد استُكشفت على نطاق واسع، مما قلل من فرص الاكتشاف، بينما اللغات السامية لا تزال توفر مساحة كبيرة للاكتشافات المهمة. ومع ذلك، ظل حبه للأدب اليوناني القديم معه طوال حياته. في رسالة لصديق شاب، ذكر أنه أعاد قراءة هيرودوتس بالكامل، واصفًا إياه بأنه مختلف عن الطبري والمسعودي. كما قرأ ثوسيديديس، المآسي، وهوميروس، مع إعجابه الخاص بـ«الأوديسة» التي كان يصطحبها معه في إجازاته. المصدر: مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، 1931، المجلد 85.

(3) البروفيسور هاينريش إيوالد (1803–1875)، عالم متخصص في العهد القديم وباحث لغوي في اللغات السامية.

بشاب يتميز بالاجتهاد والسلوك المستقيم والحبّ الذي لا يقهر للحقيقة، لقد تراكمت لديه المعرفة المدرسيَّة التي تفوق المعتاد»؛ هذه الكلمات وحدها تضمن إلى حدّ وتميزه بأجمل طريقة بمعنى العمل العلميّ الدؤوب، والإنسانيَّة النبيلة، والسعي بلا هوادة نحو الحقيقة في الحياة والبحث، والمعرفة الشاملة [1].

غادرَ هاربورغ وانتقل غرباً أكثر في لينغن، في خريف عام 1853، التحق بجامعة غوتينغن، بعزم على أن يصبح متخصصاً في الدراسات الشرقيَّة، شجَّعه معلمه الذي كان يحظى بتقدير عالٍ عند نولدكه، وظلَّ ممتناً له طوال حياته، لكن بوصفه مدرساً كان يطلب الكثير، وغالبًا ما كان يُبالغ في مطالبة طلابه، محثًّا إياهم على التفكير العميق بأقصى قدر ممكن. التحق بجامعة غوتينغن، ليصبح - حسب كلمات والده - مستشرقاً، كانت لديه رغبة في دراسة اللّغات الكلاسيكيَّة والشرقيَّة، وأصبح مكرساً تماماً لعلم الشَّرق. درس بجانب اللّغات[2] السامية الفارسيَّة والتركيَّة؛ لأنهَّما اللغتان الرئيستان الثَّانية والثَّالثة للإسلام، حينما كان طالباً تحت إشراف «بنفي»[3] ثم انتقل إلى ستراسبورغ،

(1) جان فوك، العرب في الدراسات الأوروبية، ص. 52.

(2) اللغات السامية، المنسوبة إلى سام بن نوح، تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

A. العربية: وتشمل فروعًا مثل الحميرية والأثيوبيّة (الحبشيّة).

B. الآرامية: وتشمل السريانية، الكلدانية، السامرية، الآشورية، والعيلامية.

C. العبرية: وتشمل الكنعانية والعيلامية المنسوبة إلى عيلام.

(3) ثيودور بنفي (1809-1881)، عالم لغويات ألماني وباحث في اللغة السنسكريتية، وُلد في نورتهايم قرب غوتنغن وتوفي فيها. اشتهر بإسهاماته في دراسة اللغة السنسكريتية، ولا سيما من خلال قاموسه الإنجليزي السنسكريتي، الذي كان له تأثير

حيث تعلّم اللّغة السنسكريتيّة [(1)]، وهناك التقى بجورج بوهلر[(2)] الذي نشأتْ بينهما صداقة دامتْ مدى الحياة، وكان ملزماً بإلقاء محاضرات عن العهد القديم، وكذلك باللغات السامية بالإضافة إلى السنسكريتيّة، وفي نهاية المطاف حول تركيزه إلى الدراسات اللغويّة، ولا سيّما مجال الآرامية، ومن خلال جهود البحث المستمرّة هذه، حتى بعد تعيينه في ستراسبورغ في عام 1872، ظهرت نتائج مهمة، ومن بين أعماله البارزة كتابه عن قواعد اللّغة المندائيّة في عام 1875 والسريانيّة 1880، وكلاهما يتميز بنهجه الوصفيّ الدقيق ورغم تخليه عن خطته في كتابة قواعد اللغة العربيّة في شبابه، فإنَّ دراسته «نحو قواعد العربيّة الفصحى» 1896 أظهرتْ مساراً حقيقيّاً نحو الدراسة التاريخيّة، فقد عرض آراءه حول لغة العرب القدماء في مقالين عن العربيّة الفصحى واللهجات العربيّة في مساهماته في اللّغويات السامية 1904، وعن «القرآن

كبير على هذا المجال.

(1) السنسكريتية هي لغة قديمة تُستخدم في الهند، وتعد لغة شعائرية للهندوسية، البوذية، والجاينية. تحظى بشعبية واسعة في الهند وجنوب شرق آسيا، وتُعتبر نظيرة للاتينية واليونانية في أوروبا من حيث الأهمية التاريخية والثقافية.

(2) وُلِد جورج بوهلر في بورسفيلده، هانوفر، لوالده يوهان ج. بوهلر. التحق بمدرسة هانوفر الثانوية، حيث برع في اليونانية واللاتينية، ثم تابع دراسة اللاهوت والفلسفة بجامعة جوتنجن، متخصصًا في اللغات الكلاسيكية مثل السنسكريتية، الفارسية، الأرمنية، والعربية. حصل على الدكتوراه عام 1858 في اللغات الشرقية وعلم الآثار. سافر إلى باريس لدراسة المخطوطات السنسكريتية، ثم إلى لندن، حيث عمل مدرّسًا خاصًا ومساعدًا لأمين مكتبة الملكة في قلعة وندسور، واستغل تلك الفترة لدراسة المخطوطات في مكتب الهند ومكتبة بودليان بأكسفورد.

واللغة العربيّة» وفي مساهمات جديدة في اللغات السامية، 1910، وهما مقالان يعدّان نموذجيين في منهجهما.

وتبرز ترجماته وتفسيراته لخمس قصائد مؤثّرة في اللغة الشعريّة القديمة براعته، وأظهر براعته في التفسير من خلال اختياره للقصائد العربيّة القديمة، التي تشكل مجموعة غنية من الشعر العربيّ حتى نهاية العصر الأمويّ[1].

وما يميز أعمال نولدكه على وجه الخصوص هو أسلوبه الدقيق في الكتابة، حيث يجمع الدقة العالية في الموضوع الذي يقدّمه، ثم إنَّ أعماله ونشاطاته الأدبيّة العديدة والمتنوعة تحظى بتقدير كبير، ممّا يجعله الأكثر تأثيراً وأفضل من عمل في هذا المجال، فقد ترك للعالم أربعة وعشرين كتاباً وأكثر من سبعمئة بحث ودراسة عن الشرق[2] في لغاته وآدابه وتاريخه وأديانه، ومن المستحيل ذكرها جيعها، لكن يمكننا أن نذكر أوّل كتابين مهمين في حياته هما «تاريخ القرآن»[3] وكتاب «حياة محمّد»[4].

(1) جون فوك، العرب في الدراسات الأوروبية، ص. 217.

(2) فهرس مؤلفات ثيودور نولدكه يعتمد على المقالة التي أعدها البروفيسور إرنست كون وصنفت حسب مجالات البحث حتى عام 1907. أكملها الدكتور فرانز روزنتال ورتبها زمنيًا حتى عام 1939. لمزيد من التفاصيل، راجع كتاب «حياة تيودور نولدكه وأعماله في مرآة رسائله» لبيرنارد ماير، ص. 420، الذي يحتوي على قائمة مؤلفاته في حوالي 40 صفحة.

(3) تُرجم كتاب «تاريخ القرآن» لأول مرة إلى اللغة العربية على يد الأستاذ الدكتور عارف تامر، وطُبع عام 2004 في «مطبعة الجمل»، وذلك بعد 162 عامًا من نشره لأول مرة.

(4) طُبع هذا الكتاب لأول مرة عام 1863، ولم يُترجم إلى أي لغة أخرى.

كتاب «تاريخ القرآن»

ظهرتْ في عام 1856 أولى مؤلفات «تاريخ القرآن» باللّغة اللاتينيَّة حين كان المؤلف في العشرين من عمره، وكان عنوان الكتاب الأصليّ «حول نشوء السور القرآنيَّة وتركيبها» ثم تغيَّر العنوان فيما بعد إلى «تاريخ القرآن».

وعقدت الأكاديميَّة الباريسيَّة للنقوش والآداب في عام 1858 مسابقة تحت عنوان «أصل القرآن» كان أحد أعضاء تلك اللجنة المستشرق الكبير «إرنست رينان» الذي قدم فيما بعد تقريراً ايجابياً عن أطروحة نولدكه، الذي كان مؤهلاً تأهيلاً جيداً لهذه المهمَّة، فبدأ العمل عليها بسرعة، وأكمل مهمته في عام 1857 في أثناء وجوده في لايدن، حيث التقى المستشرق «دي خويه»، وقضى بعض الوقت في دراسة المخطوطات الشرقيَّة هناك، ثم غادر لايدن لدراسة مجموعة من المخطوطات في غوتا وبرلين، التي كانت تشتهر بالمخطوطات الشرقيَّة وحاسمة لعمله، ووصل إلى برلين، وأجرى بعض المراجعات الطفيفة، وأكمل المؤلف الكتاب مرَّة أخرى في العامين التاليين بعد دراسة أعمق، وأُرسلت المخطوطة إلى الأكاديميَّة الباريسيَّة في نهاية عام 1858، والتي أعلنت مسابقة حول الموضوع نفسه، وهناك نال عمله الجائزة، وشارك في الجائزة عالمان مشهوران هما الألمانيّ الويس سبرينجر[1] والإيطاليّ

(1) ينبغي ترجمة دراسة سبرينجر حول القرآن إلى اللغة العربية، نظرًا لفوزها بجائزة وتتمتع من قيمة علمية ككتاب نولدكه.

ميكيلي أماري[1] وقد ضاعفت الأكاديميَّة الجائزة، ووزعتها بالتساوي بين المتقدمين الثلاثة، حيث حصل كلُّ متسابق على 1333 فرنكاً، وبهذا نجح الشاب الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره في منافسة العلماء الأكبر سناً منه، ثم كتب بعد ذلك معالجة، ونُشرت في عام 1860، وكانت تلك المعالجة الشهيرة المعروفة بـ«تاريخ القرآن»، وقد عد كتابه أطروحة دكتوراه، ممَّا أتاح له الحصول عليها، ووُسّع هذا العمل إلى حد بعيد وأُعيدَ ترتيب بمشاركة المؤلف نفسه من خلال تعاونه مع أشخاص آخرين.

ويعدُّ الآن أهمّ كتاب في مجال الدراسات الإسلاميَّة، ولا سيَّما في مجال البحث القرآنيّ، وصدر الكتاب في نسخته الألمانيَّة لأوَّل مرَّة سنة 1860، ثم تلاه طبعة ثانية توسَّعت إلى ثلاثة مجلدات في أعوام 1909 و1919 و1938، وقد بدأ المستشرق «فريدرش شفاللي»[2] في تحرير المجلدين الأوَّلين، لكنَّه توفي قبل إتمامهما، ثم تولَّى «جوتهلف برجشتريسر»[3] العمل على المجلد

(1) البحث بعنوان «الترتيب الزمني لآيات القرآن»، وحاز على جائزة من المعهد الفرنسي عام 1858. يتمتع هذا الكتاب بقيمة علمية مشابه لأعمال نولدكه وسبرينجر.

(2) فريدريك شفاللي (1863-1919)، مستشرق ألماني درس على يد نولدكه. حقق كتاب «المحسن والمساوي» للبيهقي في ثلاثة مجلدات (1902) وطُبع في القاهرة. كما شارك في نشر كتاب «الطبقات» لابن سعد، وأعاد طباعة كتاب «تاريخ القرآن» لنولدكه بعد تحريره وإضافة تعليقات عليه، في مجلدين (لايبزيج، 1909-1919).

(3) جوتهلف برجشتريسر (1886-1933)، مستشرق ألماني متخصص في اللغات السامية، خاصة اللهجات العربية والقراءات القرآنية. درس الفلسفة واللغات الكلاسيكية بجامعة لايبزيغ، وتعلم السامية على يد المستشرق أوغست فيشر. توفي إثر حادث أثناء تسلق جبال الألب. لم يكمل الجزء الثالث من كتاب نولدكه «تاريخ القرآن»، والذي أكمله

الثَّالث، لكنَّه توفي قبل إتمامه أيضاً، ثم أكمله «أوتو برتسل»[1] ومنذ ذلك الحين أصبح «تاريخ القرآن» كتاباً أساسيّاً للباحثين في الدراسات الإسلاميَّة القرآنيَّة.

كتاب «حياة محمَّد»

نُشِر في عام 1863 كتابه الذي ما يزال يستحقّ القراءة اليوم «حياة محمَّد وفقاً للمصادر المشهورة» الذي أهداه إلى خطيبته، وأرسله كهدية لعيد ميلادها، كان هذا البحث ذا قيمة كبيرة في ذلك الوقت نظراً لدراساته العميقة حول تاريخ القرآن، فإنَّه يفي بكلّ متطلبات العلم؛ إنَّه كتاب عظيم القيمة لكلّ الذين يدرسون الإسلام، ولكنَّه بالنسبة إلى غير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال، أمَّا كتاب «حياة محمَّد» للمؤلف نفسه فإنَّه كتاب شعبيّ ومختصر، وهو يقيناً أفضل كتاب من هذا النوع، ولكنَّه لا يستوفي سيرة النبيّ، ومنذ أن مهَّد كلّ من موير وسبرينجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهرْ كتاب واحد له قيمة إبداعيَّة عن حياة محمَّد.

وهناك عددٌ كبيرٌ من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء

تلميذه أوتو برتزل. (موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص. 85).

(1) أوتو برتسل (1941-1893)، مستشرق ألماني متخصص في الدراسات القرآنية واللغات الشرقية. درَّس في جامعة ميونيخ وحصل على الأستاذية الكاملة عام 1935. كان عضوًا في الأكاديمية البافارية للعلوم واهتم باللغات المصرية القديمة، القبطية، الفارسية، التركية، والعربية. شارك في تحرير الطبعة الثانية من «تاريخ القرآن»، التي نُشرت في ثلاثة مجلدات بين 1909 و1938 في لايبزيغ.

بدرجات متفاوتة في الفهم، وعرضوها على الجمهور في صورة دراسات لا تحصى، إمَّا دون أيِّ تغيير، وإمَّا بإضافة شيء من عندهم، وهذا أحياناً ما يكون أكثر سوءاً بظهور المؤلفات المشار إليها من عدد المواد المتوافرة لسيرة محمَّد، وقد أصبح من الميسر عن طريق الطباعة الاطّلاع على نصوص عربيَّة مهمَّة بأعداد كبيرة، ولكلّ من يشعر لسبب أو لآخر أنَّه يتحتم عليه أن يكتب سيرة محمَّد من جديد لا يستطيع إلَّا أن يقتصر اليوم على النظر إلى الأمور القديمة من زاوية جديدة، وإنَّما يجب عليه أن يضيف شيئاً جديداً إلى ما أتى به سابقوه [1].

أعتقد أنَّ أيَّ شخص يجب عليه التعامل مع تاريخ محمَّد دون أن يكون قادراً على الرجوع إلى المصادر العربيَّة، سيعمل على نحو أفضل مع هذا المقتطف البسيط «محمَّد في المدينة»، مع إضافة كتاب نولدكه الصغير «حياة محمَّد» الشهير، على سبيل المثال، مقارنة بكتاب سبرينجر الكبير «حياة محمَّد»، العمل الذي يهيمن حالياً على السوق في ألمانيا [2].

ما يميز نولدكه هو كتابه المشهور تاريخ القرآن، أمَّا كتبه الأخرى، وتلك السيرة النبويَّة القصيرة، التي هي شبه منسية، وكتبت بطريقة أشدّ خفة من كتابه الأوَّل، ولم تكن موسوعة إلى حدّ بعيد، فجاءت بعرض شعبيّ ممتاز لحياة

(1) سيرة النبي في البحوث الاستشراقية، للمستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، ص. 91، ترجمة الدكتور محمود حمدي زقزوق.

(2) فلهاوزن، محمد في المدينة، ص. 23.

محمَّد، لقد عبر نولدكه عن نفسه من الغاية لكتاب تلك السيرة، وقال: «وعلى الرَّغم من البحوث التي أجريت بحماس بالغ في العشرين سنة الأخيرة عن محمَّد، وعن أصل نشأة الإسلام وأخص بالذكر هنا تلك المؤلفات الرائعة لكلّ من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر، فإنَّ مجال البحث لم يختتم إطلاقاً، ولهذا فأنا مع كلّ هذا أعتقد بأنَّ عرضاً شعبيَّاً لتاريخ محمَّد مرتكز على المصادر يعدّ عملاً مناسباً للعصر وأمراً مشكوراً، وقد تجنبت عن عمد كلّ المناقشات العلميَّة، وكذلك كلّ المجادلات، ولم أذكر من الاقتباسات إلَّا نحو ستة اقتباسات فقط، ومع ذلك فإنَّه يصح لي أن أؤكد أنَّ عملي يستند تماماً إلى بحثي الخاص بالمصادر والأسس العلميَّة لهذا العمل هي في جوهرها تلك الأسس التي ترتكز عليها الفصول الأولى من كتابي «تاريخ القرآن» وقد وضعت أمام عيني أوَّلاً أمثال هؤلاء القرَّاء الذين لا يعرفون اللُّغة العربيَّة، ولكنّي آمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا مثار اهتمام المستشرقين أيضاً، وقد أوليت الأحوال السياسيَّة والشعبيَّة قدراً خاصاً من الاهتمام، وأفادتني في ذلك بصورة أساسيَّة دراستي الطويلة والمتواصلة للشعر العربيّ القديم، وهناك قصور يجب أن أعترف به، ويتمثَّل في عدم الدقة في الترتيب الزّمنيّ للسنين العشر الأخيرة من حياة محمَّد، ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف سبرينجر إلَّا القسم الأوَّل فقط عند كتابة هذا، ويمتاز مؤلف سبرينجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف، ولكني كثيراً ما اضطررت إلى أن أخالف آراءه أيضاً»[1].

(1) مقدمة المؤلف، ص. 53.

كان نولدكه منافساً جيداً لسبرينجر، ليس في دراسة القرآن والمنافسة بالجائزة فحسب[1] لكن في تحليل السيرة النبويَّة أيضاً كتاب نولدكه يحوي نقداً كبيراً لكتاب سبرينجر، وكان حينها في ذروة نضجه وعمره 25 عاماً.

نولدكه باحثاً حذراً جداً في التاريخ، مع حس عالٍ بالعدالة وخلوه من العواطف في الأمور العلميَّة، وقد وضع الأسس لدراسة القرآن بسلاسة، لم يهدف إلَّا إلى تعديل المسار الذي سبقوه، لكن في تقديره والحكم على محمَّد اجتهد نولدكه في تحقيق ذلك بموضوعيّة وهدوء، على عكس من طريقة سبرينجر الذَّاتيَّة والحادة:

قال: لكي يكون المرء عادلاً تجاه محمَّد، يجب أن يراجع حياته، لا بصفته نبيًّا وواعظاً وأميراً فحسب، بل في تعامله مع أتباعه وأصدقائه وفي حياته اليوميَّة أيضاً، هناك ملامح ثابتة تظهره في ضوء جميل، فيما يتعلَّق بأخطائه يجب على الناس التفكير في أنَّ هذه الأخطاء كانتْ جزءاً كبيراً من العصر والشعب الذي عاش فيه، وعلى الرَّغم من ذلك كان يظهر صفات نبيلة بمراتب عالية، كان مقتنعاً بمهمته لإنقاذ إخوانه في الإنسانيَّة من العذاب الأبديّ من خلال توجيههم نحو العقيدة الصحيحة وجعلهم شركاء في السعادة السماويَّة.

(1) كتب نولدكه مقالًا بعنوان «هل كان لمحمَّد معلمون مسيحيون»، ترجمنا المقال حديثاً، كُتِب المقالة بوصفه رداً على مقال نشره الكاتب سبرينجر، بعنوان «لقاء محمَّد بالراهب المسيحيّ بحيرى»، واستخدم سبرينجر الأفكار نفسها في كتابه الشهير حول «حياة محمَّد».

وفي ختام تلك المقدمة دخل قاعة البحث هومل [1] العالم المتواضع والشيخ الذي أقبل على السبعين من العمر، عابساً مضطرباً، لقد كان اليوم عبوساً قمطريراً، وما كاد يصل إلى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب: مات نولدكه، واستطرد في الحديث عنه و في رثائه، مات زعيم المستشرقين الذي كان في العالم القديم يذكر، ففي الجديد لا ينكر، مات نولدكه الذي رفع لواء الاستشراق عالياً، وظلَّ رافعة زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذي كان أمّةً في فرد وأجيالاً في شخص، نولدكه هو ذلك المستشرق الذي خلق علوماً لم تكنْ معروفة من قبل، وهجم على أكثر المشكلات تعقيداً فجلاها لنا، ووضع أيدينا على حقيقتها، فهو لم يمتْ إلَّا بعد أن ترك للعالم أربعة وعشرين سفراً، وأكثر من سبعمئة بحث في الشرق؛ لغاته، وآدابه، وتاريخه، ودياناته [2].

ولا أريد أن أذكر كلّ المناقشات القيمة التي بدأها نولدكه، فهي كثيرة ومتناثرة في جميع كتبه، كما لم نتطرق إلى سلسلة عناوين كتبه الثمينة، التي

(1) فريتز هومل (1854–1936)، مستشرق ألماني وأستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ، وعضو مراسل في المجمع العلمي العربي بدمشق. استمر في إلقاء المحاضرات بعد تقاعده عام 1925. من أبرز أعماله: «قراءات مختارة من جنوب العربية»، «التاريخ العام لبلاد الجنوب العربي»، و«التاريخ العربي القديم». أشرف على أطروحة الدكتوراه لمحمد إقبال حول «تطور الميتافيزيقيا في بلاد فارس». اهتم بالقضايا اللغوية وتاريخ الشرق الأوسط، وتخصص في أدب الرافدين، الشعر العربي القديم، النقوش التركية، ونصوص الأهرامات المصرية.

(2) مقال ثيودور نولدكه، بقلم فؤاد حسنين، في العدد 216 من مجلة الثقافة، أكتوبر 1944.

سنضمها إلى كتابنا القادم عن نولدكه، حيث قمنا بترجمة أفضل ما كتب.

أمَّا عن رأي نولدكه في شخصيَّة النبيّ محمَّد، فإنّي أقدم لكم مقتطفاً قصيراً من الفصل الأخير حيث يعبّر بصراحة عن أفكاره حول شخصيَّة النبيّ محمَّد.

قال نولدكه: «وممَّا قيل حتى الآن لا بدَّ أن يتبيَّنَ للقارئ أنَّ الرجل الذي ارتكب أفعالاً استثنائيَّة ومدهشة لا يمكن أن يكون محتالاً عادياً، لكن من الجدير بالذكر أنَّ السَّردَ السريعَ للأحداث السياسيَّة منذ الهجرة يمكن أن يصور شخصيته على نحو سلبيّ بسهولة، فنرى هنا أوصافاً للخداع المنظم، والخيانة، بل حتى الازدواجيّة في الانتقام العنيف، ونظراً لأنَّ هذه السمات لم تكنْ موجودةً في فترة وجوده في مكّة، فقد قيل إنَّ شخصيَّة محمَّد، الذي ظلَّ صامداً في مواجهة كلّ المصاعب في الفترة المبكرة، ربَّما تعرَّض لإغراءات السلطة والسيطرة في أثناء فترة وجوده في المدينة.

ويقول أيضاً: على الرَّغم من جديته وكرهه لكثرة الكلام، كان صديقاً لأبسط العرب، وكان يسألهم عن أحوالهم بعطف وتعاطف، ويضحك بصدق حين يرى شيئاً مضحكاً، ولكنَّ حزنه على أحبائه كان يجلب إليه الدموع المريرة، ومع ذلك كان سريع الغضب الشديد، ممَّا يجعل أتباعه يرتجفون حين يرون الوريد بين حاجبيه منتفخاً، كان يجمع بين فصاحة العرب الطبيعيَّة والبساطة التي تتكيَّف مع كلّ موقف، وكان يتردَّد في رفض طلب شخص ما حين يكون هناك خياران، مفضلاً الحلَّ الذي يجلب السلام والعدالة، لم يكن لديه نظام

صارم في حياته أو تعاليمه، كان يغفر دائماً تقريباً للعدو المهزوم، وكان واضحاً في كثير من الحوادث المماثلة، لكن مذبحة بني قريظة كانتْ حالة استثنائيّة ونادرة للغاية، وبوصفه حاكماً لجميع العرب، فقد امتلك ممتلكات وعقارات واسعة، ومع ذلك كان يعيش في بساطة تامة، كان يعيش مثل أبسط الدعاة، يواجه السخرية في مكّة، وينفق دخله الكبير بالكامل على الأغراض الدينيّة والحكوميّة، ويعيش مع زوجاته في أكواخ متواضعة من الطين وسعف النخيل، يمكن الوصول إلى سقوفها باليد، وكان طعامه يتكون من التمر والخبز واللبن، وكان اللحم نادراً، وكانت أدوات بيته وملابسه بسيطة للغاية، وكان يحتقر كل أشكال الثراء والإسراف، على النقيض من العرب الشرفاء الذين اعتادوا أرقى مظاهر الرفاهية، كان وفياً في صداقاته، ووفقاً للعادات الشرقيّة، ويعامل زوجاته بنبل رغم تزايد عدد الزيجات وما يصاحبها من منافسات جديدة ...إلخ[1]

(1) انظر الفصل الأخير من هذا الكتاب، ص 189.

الخاتمة:

لا أتذكَّر أين لفت انتباهي عنوان الكتاب، الذي ألفه أحد أعظم مؤسّسي الدراسات الشرقيَّة الحديثة؛ نولدكه، كان لكتابه «تاريخ القرآن» تأثير كبير في الأوساط الأكاديميَّة والثقافيَّة، ومن الضروريّ أن يحملَ كتاب (حياة محمّد) الرنين والقيمة الفكريَّة نفسهما.

وأنا على يقين من أنّني عثرتُ على كنز حقيقيّ لا يدرك قيمته إلّا من يكتشفه، ومع أنَّ هذا الكتاب قد كتب قبل أكثر من قرن ونصف، فإنَّه ما يزال معاصراً في محتواه ومتماشياً مع روح عصرنا، ولا يوجد كتاب يستحقّ الترجمة إلى العربيَّة أكثر من هذا الكتاب، وعلى حد علمي لم يقم أحد في الشرق أو الغرب بمهمَّة ترجمته من لغته الألمانيَّة الأصليَّة إلى لغة أخرى، وهذا يذكرني بكلمات السيد جمال الدين الأفغاني حين كتب إلى «بطرس البستاني» مرحّباً بترجمة كتابة الجديد «الإلياذة» قائلاً: «نحن سعداء جداً لأنَّك تفعل اليوم ما كان ينبغي للعرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف».

وهذا بالضبط ما أريد أن أقوله: لأنَّ باحثينا مع الأسف نادراً ما يركّزون على مثل هذه الموضوعات المهمَّة، فالكتاب يتحدَّث عن أعظم شخصية تحظى بالاحترام بين جميع المسلمين، وكان ينبغي أن يُترجم قبل أكثر من مئة عام، لأنَّ قيمته تكمن في أنَّ مؤلفه نولدكه الذي كرَّس نفسه دائماً للاختيار الدقيق للمواد الحسَّاسة داخل المناخ الفكريّ في عصره.

وأخيراً، نجحت في الحصول على أكثر من نسخة من الكتاب؛ إحداها قديمة والأخرى حديثة، لبدء عمليَّة ترجمته إلى العربيَّة، وأعتقد أنَّ القارئ سيلاحظ وجود بعض الأخطاء غير المقصودة في هذا الكتاب، سواء في المحتوى بوجهٍ عام أو في الترجمة، وينبغي للقارئ أن يدرك الجهد الذي يبذله لتصحيح كلّ عيب، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً، فكلّ كاتب لا بدَّ أن يكون لديه بعض النواقص هنا ونقاط الضعف هناك.

ذكر المؤلف أنَّ الكتاب يفتقر إلى الهوامش، وإن كان ذكر القليل المتناثر هنا وهناك، ووضعتهم بين قوسين، رغم ذلك لم تكنْ لهم قيمة فعليَّة كبيرة، ومع ذلك حرصت على تزويد الكتاب بكثير من الهوامش والتعليقات من أجل إنصاف الترجمة من خلال استكمالها بأكبر قدر ممكن من التعليقات المفيدة في هذا الكتاب، واعتمدت في ذلك على المصادر الأجنبيَّة، حيث اعتمد نولدكه في تأليف كتابه على كثير من المراجع التي انتقدها باستمرار، أو اتفق معها، وإن كان المؤلف يتردَّد في ذكر أيّ من تلك العناوين، حيث اني تعرفت إلى أكثر تلك المراجع التي كان يقرأها وينقل عنها.

لقد حاولتُ جاهداً أن أعرض الكثير من آراء العلماء في هوامش الكتاب، ولكنَّ الحقيقة أنَّ المهمَّة كانت شاقَّة للغاية، على صغر حجم الكتاب تتطلَّب مني بذل الكثير من الجهد والصبر، فضلاً عن مراجعة كثير من المصادر المختلفة، من أجل ترجمة هذا النص أو ذاك، وهو جهد إضافيّ يضاف إلى ترجمة النص الأصليّ، وقد فعلت كلّ هذا من أجل تقديم فائدة

أكبر من مجرَّد الالتزام بنص المؤلف وحده.

في نهاية هذه المقدَّمة هناك نقطة مهمَّة أودّ توضيحها، وهي أنَّني ممتن للغاية لكلّ من ساندني، وحفزني على تجاوز هذه المرحلة الصعبة في الترجمة التي كنتُ أظنها مستحيلة وغير متوقعة، وشكراً لكلّ من بذل معي الكثير من الجهد والصبر لتهيئة الظروف التي سوف تمهّد لأعمال أكثر نحو النجاح.

نزار هليل

دالاس تكساس

USA.2025

إلى صوفي [1]

في

عيد الميلاد 1862.

(1) الكتاب هو هدية من المؤلف لخطيبته بمناسبة عيد ميلادها.

مقدِّمةُ المؤلّف

وعلى الرَّغم من الأبحاث الجادة التي أجريت على مدى العشرين عاماً الماضية حول محمَّد وأصل الإسلام، ولن أذكر هنا إلّا الأعمال البارزة جوستاف وايل، وكوسان دي بيرسيفال، ووليم موير، والويس سبرينجر، فإنّني أعتقد أنّه يجب تقديم تاريخ موجز وموثوق لمحمَّد استناداً إلى مصادر موثوقة ممّا يشكّل مشروعاً مهمّاً ومستحقاً للثناء.

لقد تجنبت عمداً الدخول في مناقشات وحجج، ولم أقدّم سوى عدد قليل من الاستشهادات، ومع ذلك أستطيع أن أؤكد أنَّ هذا العمل يستند عموماً إلى بحثي الخاص في المصادر، وتعتمد المبادئ الأساسيَّة لهذا العمل في المقام الأوَّل على تلك الموجودة في الأقسام السابقة من كتابي «تاريخ القرآن» (الكتاب الفائز بجائزة أكاديميَّة النقوش في باريس عام 1960).

في البداية، كانت تلبية احتياجات القرَّاء الذين ليسوا على دراية باللغة العربيَّة مقصودة، ولكنّني آمل أن تثير الآراء والمفاهيم المعبر عنها هنا على الأقلّ اهتمام المستشرقين، لقد ركزت على نحو خاص على دراسة السياق

المجتمعيّ والسياسيّ والشعبيّ، وكان لدراستي المكثفة والمستمرَّة للشعر العربيّ القديم، وتحديداً «الشعر الجاهليّ»[1] ما قبل الإسلام، تأثير كبير وجوهريّ على هذا العمل.

ولا بدَّ ألَّا أتجاهل العيب الذي شاب هذا الكتاب منذ البداية، وهو عدم الدقة في تسلسل الأحداث خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة محمَّد، فنحن لا نجد إلا القليل من التفاصيل الزمنيَّة الدقيقة لتلك الفترة، التي لم تكنْ واضحة بما يكفي لتحديد تاريخ محدَّد من التقويم «ليولياني»[2].ولكن المعلومات الزمنيَّة الدقيقة تصبح أكثر اتساقاً بدءاً من الهجرة وما بعدها، ويمكننا أن نحدّد بثقة تواريخ هذه الفترة الأخيرة من حياة النبيّ استناداً إلى حساباتنا الحاليَّة، وبعد ذلك بسنوات وضع محمَّد تقويمه الخاص الذي ما زال أتباعه يتبعونه حتى يومنا

(1) أشار الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي»، ص. 11، إلى أن تيودور نولدكه كان أول من تناول هذا الموضوع بالتفصيل عام 1861، أي قبل طه حسين بـ65 عامًا. في كتابه «خمس معلقات»، بحث نولدكه أصالة الشعر الجاهلي، وخلص إلى أن عددًا قليلاً من القصائد يمكن التسليم بصحتها، مع بقاء شكوك حول ترتيب ألفاظها وأبياتها. كما قدم دراسة موسعة بعنوان «إسهامات في فهم الشعر العربي القديم» عام 1864. لاحقًا، تناول مارجوليوث القضية في كتابه «أصول الشعر العربي» (1925)، حيث رفض صحة الشعر الجاهلي بالكامل.

(2) التقويم اليولياني، المعروف أيضًا بالتقويم الروماني، أنشأه يوليوس قيصر عام 46 ق.م وبدأ تطبيقه عام 45 ق.م لتقريب السنة الشمسية. يتكون من 365.25 يومًا مقسمة إلى 12 شهرًا. استُبدل بالتقويم الغريغوري في القرن السادس عشر بسبب افتقاره إلى الدقة، إذ يحتسب السنة 365.25 يومًا، بينما يعد التقويم الغريغوري السنة بدقة أكبر (365.2425 يومًا).

هذا، الذي يتألف من اثني عشر شهراً قمرياً خالصاً (354 يوماً)، ولا شك أنَّ العرب كانوا يحسبون الوقت وفقاً للسنة القمريَّة، التي كانت تعدّل أحياناً بإضافة بعض الإضافات إلى السنة الشَّمسيَّة، ولكنَّنا لا نملك تفاصيل دقيقة عن تلك الإضافات، ولم تقدّم أيّ من النظريات المقترحة حلاً لكل التناقضات في الأدبيَّات المحفوظة، نظراً لعدم امتلاكي للمعرفة الرياضيَّة والفلكيَّة اللازمة للوصول إلى نتيجة ثابتة من خلال حساباتي الخاصة، فقد عرضت البيانات على نحو تقريبي للفصول أو الأشهر فقط. وإذا أردت تحديد البيانات بدقة، فلا بدَّ أن أقتبس ممن سبقوني فقط، الذين لديهم شبهات بخصوص صحة حساباتهم، لكنّي أرغب في التحقق منها بدقة أكبر، فيما يتعلق بالكلمات والأسماء العربيَّة المذكورة هنا، فإنَّ القارئ سيتمكن من نطقها على نحو تقريبيّ صحيح.

وبالنسبة إلى الأسماء الخاصة المركبة، أودّ أن ألاحظ أنَّ كلمة «أبو» في العربيَّة تعني «الأب» و«ابن» تعني «الابن»، و«بنت» تعني «الابنة»، أمَّا بخصوص العمل الضخم «حياة محمَّد» سبرينجر، الذي اتّسم بالدقة والحدّة والعرض الذكي، فرغم اختلافي الكبير في الرأي مع الكاتب، فإنَّني لم أستطعْ في كتابة هذا الكتاب إلَّا الاستفادة من الجزء الأوَّل منه [1].

ثيودور نولدكه

غوتينغن، ديسمبر 1862.

(1) صدر الجزءان الثاني والثالث من عمل سبرينجر بعد أربع سنوات من نشر كتاب نولدكه.

القسمُ الأوَّل

حياة محمد حتى بداية نبوته

كانت المسيحيَّة بحلول عام 600 ميلادية قد انتشرتْ في شبه الجزيرة العربيَّة من سوريا إلى الحبشة، وكان الأحباش قد أسَّسوا إمبراطوريَّة مسيحيَّة في الأراضي المزروعة قديماً في اليمن المعروفة باسم «الجزيرة العربيَّة السعيدة»[1] التي سرعان ما دمرها الغزو الفارسّي، ومع ذلك، فإنَّ كثيراً من القبائل في شمال غرب وشمال شرق شبه الجزيرة العربيَّة تحوَّلت جزئياً إلى المسيحيَّة، وحققت بعض التوغلات في مناطق أخرى، كانت أماكن مثل

(1) يقول لويس سيديو في كتابه «خلاصة تاريخ العرب»، ص. 20: «إن اليمن سميت بهذا الاسم بسبب رخائها وبركاتها، وتشير إلى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية مع منطقة عسير في الشمال. وكان سكان اليمن القدماء يُعرفون باسم بني حمير، وكان لهم تفاعلات مع المصريين، والأثيوبيين، والفرس، وغيرهم من الأمم التي سافرت في المحيط الهندي.»

الكنائس والرهبان مألوفة للشعراء العرب، ولكنَّ المسيحيين العرب، بطبيعة الحال، كان لديهم القليل من المعرفة، وكانوا متحمسين للغاية لظهور الدين الجديد، ولم يكونوا مهتمين بالتحسس السطحيَّة التي حدثت بين البدو، وبوجهٍ عام كان لديهم وعي ومعرفة دينيَّة محدودة، بسبب حياتهم المحرومة والمضطربة.

ولم تحرز المسيحيَّة تقدّماً كبيراً على المستوى الخارجيّ حتى بين سكان الواحات، ولم تكنْ جذور المسيحيَّة راسخة في تلك المناطق إلى الحدّ الذي لم تتأثّر فيه بالعاصفة الأولى للإسلام، وإلى جانب المسيحيَّة، احتلّت اليهوديَّة مكانة مهمَّة نسبيّاً في شبه الجزيرة العربيَّة، ولا سيَّما اليمن، فقد حكمت لفترة قبل الفتح الحبشيّ، وكانت لها السلطة والسيطرة لفترة من الزَّمن، وقد تعرَّضتْ هذه المجموعة الدينيَّة البارزة لاحقاً للاضطهاد من قبل المسيحيَّة، وفي شمال الحجاز كانتْ هناك مستوطنات يهوديَّة عديدة أسَّسها المهاجرون بعد تدمير القدس حتماً، وهؤلاء اليهود،[1] إلى جانب تقاليدهم الدينيَّة،

(1) من الصعب العثور على دراسات موثوقة تؤرخ للحكم اليهودي في اليمن، رغم أن اليهودية ازدهرت فيها وأصبحت في فترة ما الدين الرسمي للدولة. يذكر الدكتور جواد علي في «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، المجلد 12، ص. 114، أن وجود اليهودية في اليمن يعود إلى الروابط القديمة مع طرق التجارة في بلاد الشام، بالإضافة إلى هجرة الجاليات اليهودية عبر الحجاز. ويرى يهود اليمن المعاصرون أن وجودهم يعود إلى عهد «بخت ناصر»، حيث استقروا في اليمن ولم يعودوا إلى فلسطين.

أصبحوا عرباً [1] بالكامل، وكانوا أقوياء على نحو خاص في منطقة يثرب، التي عرفت فيما بعد بالمدينة المنورة، [2] ومع أنَّ المسيحيين المنتصرين الذين انضموا إليهم لم يكونوا كثيرين، إلّا أنَّهم كان لهم تأثير كبير في أهل الحجاز، بسبب تعاليمهم الدينيَّة القديمة، التي لم تعترف بها المسيحيَّة إطلاقاً، وإلى جانب اليهود والمسيحيين كانتْ هناك بعض الطوائف القديمة على حدود سوريا وبابل من القرون الأولى الميلاديَّة، التي أدَّت دوراً مثمراً، مثلاً الصابئة المندائيون، الذين يشار إليهم على نحو غير مناسب بالقديس المسيحيّ «يوحنا المعمدان» [3] المذكورون في القرآن، ولكنَّنا لا نستطيع أن ننسبَ إلى هذه الطوائف تأثيراً كبيراً على الوضع الدينيّ في شبه الجزيرة العربيَّة.

ورغم هذا فإنَّ الارتباط العربيَّ المتكرّر بالمسيحيين واليهود والصحوة الروحيَّة قد تجلّى في ازدهار الشعر العربيّ الأصيل، الذي لم يُستكشَفْ ويُبحَثْ على نحو كافٍ، قد أثار هذا الإحياء للشعر اهتمام العرب المستقرين، في حين

(1) في كتاب «مهد الإسلام»، ص. 27، يذكر الأب هنري لامنس (1862–1937): «لا توجد قبيلة بدوية واحدة معروفة بأنها يهودية.»

(2) كانت يثرب الاسم القديم للمدينة التي غيّر النبي محمد اسمها إلى «المدينة»، ونهى عن استخدام اسمها السابق. وقد ورد ذكر يثرب في القرآن الكريم، في سورة الأحزاب، الآية 13: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}.

(3) خصص نولدكه عدة أبحاث عن الصابئة، وألَّف كتابًا مهمًا بعنوان «القواعد المندائية» من 175 صفحة. يُذكر أن مصطلح «الصابئة» ورد ثلاث مرات في القرآن، مما يشير إلى انتمائهم إلى أهل الكتاب. غالبًا ما يُطلق عليهم اسم «مسيحيي القديس يوحنا»، اعتقادًا بأنهم من أتباع يوحنا المعمدان.

أضعف في الوقت نفسه التعلق بالعبادات القديمة والعادات الموروثة عن الآباء التي سمحتْ بالحفاظ على العبادة القديمة دون عقيدة حيَّة أو حبّ العرب لها.

يعتمد الدين العربيّ القديم في المقام الأوَّل على عبادة النجوم، مع رحلات الحج المستمرة، والمهرجانات، والعادات الاحتفاليَّة في المعابد والأصنام الخشنة البدائيَّة، ولا ينبغي لنا أن نفترض وجود طوائف سريّة قديمة لها أدبياتها في مكّة سنة 600 ولكنَّ كثيراً من الرجال في منطقة الحجاز يعلنون بين الحين والآخر انفصالهم عن الدين الوثنيّ القديم، سعياً إلى تلبية احتياجاتهم الدينيَّة والروحيَّة وانتمائهم لليهوديَّة والمسيحيَّة أو في الإيمان والسلام الإلهيّ الذي صنعوه بأنفسهم، ومن الممكن أن يكون إبراهيم؛ الجد المزعوم للأمة وسلفها، الذي لم يعرفه العرب إلَّا عن طريق اليهود، قد وجد في تلك الفترة، وذكره الباحثون عن الخلاص بعدّه أساس الإيمان والتوحيد، ومن الممكن أن يكونَ محمَّد هو أوَّل من ذكر النبيّ إبراهيم أمام قريش(1).

إنَّنا نملك معلومات متناثرة عن تلك الشخصيَّات والحركات التي سبقتْ محمَّد، ولكنَّ ندرة المصادر تشجع الخيال على ملء الفراغات بسهولة، لكن

(1) رينهارت دوزي (1820-1883) ذكر في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام»، ص. 232، الذي ترجم الأستاذ كامل الكيلاني فصلاً منه بعنوان «نظرة عامة على التاريخ الإسلامي». أخذنا بعض الاقتباسات حسب الحاجة. يتناول الكتاب تاريخ العرب والإسلام والمذاهب، ويقول دوزي: «إن كل قبيلة وضعت صنمها المعبود داخل الكعبة، حتى بلغ عددها 360 صنمًا، وساد التسامح الديني آنذاك. كما وُجدت داخل الكعبة صور لإبراهيم خليل الله، والملائكة، ومريم العذراء مع طفلها عيسى.»

ينبغي لنا أن نحرص على عدم المبالغة في أهميَّة تلك الحركات، وما نعرفه تقريباً عنهم يتعلَّق بالمكان الذي وجدت فيه تطلعاتهم وجهودهم في نهاية المطاف[1] وهو مكَّة، فمكَّة تقع بالقرب من الساحل الغربيّ لشبه الجزيرة العربيَّة، في واحدة من أكثر المناطق قحطاً على وجه الأرض، وتنحدر المرتفعات العربيَّة الداخليَّة (لنجد) عبر جرف صخريّ (للحجاز) إلى البحر الأحمر، الذي تحده أراضٍ واسعة ومنخفضة باتجاه تهامة، وعلى الحدود بين تهامة والحجاز توجد صخور مرتفعة نسبياً في {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ}، كما ورد في القرآن، حيث لا تستطيع حتى الآبار الصناعيَّة أن توفّر غطاءً نباتيّاً، وكان هناك معبد منذ زمن محمَّد، وبسبب شكله الهندسيّ يُطلق عليه اسم «الكعبة»؛ أي «المكعب»، ويحتوي على «الحجر الأسود» الذي ربَّما كان نيزكاً،[2] وكان مزاراً وموقعاً مقدَّساً في زمن محمَّد،

(1) يشير نولدكه إلى حركة الأحناف الأوائل الذين رفضوا عبادة الأصنام والتماثيل، ولم يكونوا من أتباع المسيحية أو اليهودية. كانوا أفرادًا تركوا ديانات العرب التقليدية، مما جعل العرب أكثر استعدادًا لقبول دين جديد. ويرى نولدكه أن الحنيفية، بتسامحها وعقلانيتها، كانت سهلة الإقناع للعرب، وأن النبي محمد أكمل ما كان ينقصها.

(2) تعرض الحجر الأسود لانتهاكات متعددة عبر التاريخ، مثل الفيضانات والحرائق والحروب. أشار دوزي في «مقالة في تاريخ الإسلام»، ص. 232، إلى أن الحجر كان أبيض ثم أصبح أسود بفعل الحرائق المتكررة. وصفه بعض الرحالة الأوروبيين بأنه صخر بركاني لامع به بقع بلورية، مع ظلال حمراء وبنية داكنة، ويتكون حاليًا من 12 قطعة ملتصقة نتيجة تعرضه للكسر. ذكر الجاحظ ساخراً من قول ابن عباس: «وإن كان المشركون قد سوّدوه، فقد كان حقاً على المسلمين إذا أسلموا أن يبيضوه». وتقول رواية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم» (ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث 1/413). ويُروى أن ابن الحنفية قال: «هو من جبل من هذه الجبال»، بينما قال آخرون

وكان هذا المعبد مركزاً للحج لجزء كبير من القبائل العربيَّة، ويمتدُّ إلى حدود سوريا واليمن وأعماق نجد.

تعدُّ الكعبةُ جزئيّاً الدَّافعَ المشترك للشعوب السامية للشروع في الحج وفوائد التجارة الآمنة على طول طرق القوافل الرئيسة بين سوريا واليمن في المناطق المقدَّسة خلال الأشهر المقدَّسة، وخلال هذا الوقت تستقرّ جميع النزاعات القديمة، ولا يُسمح بأيّ عدوان، وقد أدَّتْ هذه المزايا إلى توسيع ممارسة الحج إلى حدّ بعيد، مع أنَّه من المستحيل تحديد متى حدث ذلك لأوَّل مرَّة، ومع ذلك، فمن المؤكَّد أنَّ الكعبة والحج يؤديان إلى أماكن مقدَّسة أخرى (مثل جبل عرفات ووادي منى)، التي هي أقدم من الكعبة نفسها.

قد يكون قصي غريباً، ومن شمال شبه الجزيرة، ولكنَّ أصله خفيّ عمداً في الروايات اللاحقة، ولكنَّ قريشاً، بوصفها فرعاً من القبائل الكنعانيَّة البدويَّة التي سكنتْ تلك المناطق، سيطرت على الكعبة المشرفة بمجرد استقرارها في الوادي نفسه، وهكذا ظهرت مكَّة [1] واعتمد سكانها

إنه من جبل أبي قبيس.

(1) راجع كتابنا القادم (نولدكه - دراسات ونصوص تاريخية)، المجلد الأول، ص. 16، حيث يشير سبرينجر إلى الكعبة بوصفها «مستودع البدو» في شبه الجزيرة العربية.

يذكر دوزي في «نظرات في تاريخ الإسلام» ص. 231 أن مكة كانت مركزاً حضارياً في وسط الجزيرة، بُنيت في منتصف القرن الخامس الميلادي من قبل قبيلة قريش، في وادٍ رملي ضيق. وقد جُددت الكعبة وأعيد بناؤها عدة مرات، وتتكون من أربعة جدران من حجارة غير مصقولة مربوطة دون ملاط، ومغطاة بقطعة قماش، بارتفاع لا يتجاوز طول الإنسان ومساحة تقارب 200 قدم مربع.

على الإمدادات الأجنبيَّة، بسبب فقر الأرض، وسرعان ما أصبحوا أكثر الرجال نفوذاً وهيبة في شبه الجزيرة العربيَّة، وذلك بفضل تجمع الناس في الحج وموقعها تقريباً في منتصف الطرق الرئيسة وقربها من البحر، ممَّا سهَّل الاتصال بالساحل الإفريقيّ، الذي كان له أهميَّة خاصة، بسبب تجارة الرقيق، وكلّ هذا يشير إلى أنَّ الأثرياء كانوا ينظمون قوافل سنويَّة إلى اليمن والشام في أوقات محدَّدة لتبادل البضائع مع هذه البلدان وبيعها للبدوء الذين يجتمعون في الحج، وقاموا بإدارة جميع المناسك والشعائر المخصصة لمواسم الحج، دون عدّ هؤلاء الشخصيات البارزة كهنة أو خدماً للكعبة، حيث لم يكنْ هناك كهنة مطلقاً، ولم يكنْ ذلك معروفاً بين العرب، وقد تولى هؤلاء الشخصيات إدارة جميع الشعائر والشعائر المخصصة لمواسم الحج، دون عدّهم كهنة للكعبة.

دستور[1] مكة وغيرها من المدن في داخل شبه الجزيرة العربيَّة ما زال يتمتّع البدو فيها بالحريّة الكاملة، فمكّة تفتقر إلى سلطة حاكمة تسمح للقبائل والأسر والأفراد بإدارة شؤونهم بسهولة دون تدخل من الآخرين، وذلك بسبب غياب الدولة الفاعلة وعدم وجود أيّ وسيلة قانونيَّة للإكراه،

(1) بحسب المستشرق البريطاني وليم مونتغمري وات (1909-2006) في كتابه «محمد في مكة»، ص. 27، كانت الشؤون الإدارية في مكة تدار من خلال مجلس أعيان يُسمى «الملأ». تألف هذا المجلس من زعماء القبائل، وكان بمثابة هيئة استشارية دون سلطة تنفيذية. تمتعت كل قبيلة باستقلالية تامة في تصرفاتها، ولم تكن القرارات ملزمة إلا إذا أُقرت بالإجماع.

ولكنَّ الروابط العائليَّة القوية، والشعور بالتضامن المجتمعيّ، والمشاركة في أمور الشرف والعار، إلى جانب نفوذ الأفراد بناءً على سمعتهم فقط، أو من خلال الشجاعة والثروة والأسر القويّة، تعوض إلى حد كبير عن هذا النقص. والوعي بأنَّ الأسرة بوصفها كلاً تتحمَّل المسؤوليَّة عن شرف أعضائها وأتباعها متأصل بعمق، ويجب أن ينتقم أيّ قريب أو عضو من العائلة يقتل بسفك دم القاتل أو أحد أقاربه المقربين؛ هذه الرابطة العائليَّة القويَّة والمفيدة بوجهٍ عام سائدة بين العرب، ولكنَّ الخوفَ من الثأر العائليّ والقبليّ، وما يترتب عليه من خسائر ومعارك قد تمنع حدوث كثير من أعمال سفك الدماء التي لا يمكن منعها بأيّ قانون، ولكنَّ الفوضى وصلتْ إلى حدّ أنَّه إذا لم يكن الجاني غريباً، وليس له ولي يحميه، فلن يواجه عقوبة قانونيَّة طالما أنَّ عائلته تدفع فدية الدم.

ولم يكنْ في مكَّة زعيم أو لجنة حاكمة، لكن كانتْ هناك بعض المناصب الشرفيَّة، مثل حامل مفتاح الكعبة، وإطعام الحجاج وسقايتهم على نفقة الشعب، وقيادة الراية في المعارك، وغيرها، وكثيراً ما أصبحتْ هذه المناصب موضع نزاعات حادَّة بين القبائل المختلفة، ولكنَّها لم تكنْ تتمتع بسلطة حقيقيَّة.

كان الناس يجتمعون لاتخاذ القرارات الجماعيَّة في «دار الندوة» أو في الفضاء المفتوح بالقرب من مكَّة، لكن مثل هذه القرارات لم تكنْ ملزمة لأحد، كانت الأسر الفرديَّة شديدة الحرص على سمعتها، وبحسب تغير

الثروة، وعدد الأعضاء والمنتسبين، ووجود الرجال البارزين أو غيابهم، أصبحتْ بعض القبائل أكثر احتراماً ونفوذاً من غيرها.

في زمن محمَّد، كانت الأسر الأكثر نفوذاً في مكّة هي بنو مخزوم وعبد شمس، وظهرتْ أسرة بني ربيعة لاحقاً، وتفوقت عليهم أسرة بني أميَّة في القوَّة والنفوذ، كان من المشكوك فيها إذا كانتْ أسرة محمَّد بنو هاشم تتمتع بمثل هذه السمعة أم لا؛ فهي من أقلّ الأسر شهرة في ذلك الوقت حتماً.

وُلِدَ في هذه المدينة مؤسّس دين ما يزال له أتباع حتى اليوم بعد البوذيَّة والمسيحيَّة من حيث العدد، ومؤسّس إمبراطوريَّة حققتْ نجاحاً ملحوظاً بسرعة لم تعرفها الإمبراطوريَّة الرومانيَّة من قبل،[1] ومع أنَّ محمَّداً لم يحتل أيّ منصب بارز حتى بلغ الأربعين من عمره، فمن المفهوم أنَّ القليل من الحقائق بقي في ذاكرة مواطنيها، ولكنَّ ندرة المعلومات على وجه التحديد كانتْ سبباً في تغذية الخيال الدينيّ، وطغتْ على الحقائق التاريخيَّة القليلة التي يصعب استخلاصها، ويمكن تلخيص ما يمكن قوله بيقين عن هذه الفترة كلّها من حياة محمَّد باختصار فيما يأتي.

(1) دوزي في «نظرات في تاريخ الإسلام» ص. 227: ظهر شعب جديد من الصحراء، توحّد لأول مرة بعد صراعات وحروب قبليّة. كان هذا الشعب محباً للحرية، مقتصداً في طعامه، متواضعاً في لباسه، ونبيلاً في أخلاقه، يتميز بسرعة البديهة وحس الدعابة، وبروح قوية للشرف والانتقام. هذا الشعب تمكن من إسقاط الإمبراطورية الفارسية، وسحق مملكة جرمانية حديثة التأسيس، وهدد أوروبا، بينما واصل فتوحاته شرقاً حتى جبال الهملايا.

وُلِدَ محمَّد بن عبد الله من أسرة هاشميَّة، وأمه آمنة بنت وهب من قبيلة بني زهرة، نحو عام 570 في مكَّة، وبحسب الأسطورة تزامن مولده مع العام الذي قاد فيه أبرهة؛ الزعيم المسيحيّ من اليمن، حملة عسكريَّة ضدّ مكَّة، لكنَّها فشلت، بسبب تفشي وباء مرعب بين الجيش، وتوفي والده إمَّا قبل ولادته وإمَّا بعدها بفترة وجيزة، وبحسب عادات قبيلة قريش، يقال إنَّ والدته عهدتْ به إلى امرأة بدويَّة لبضع سنوات لإرضاعه في هواء الصحراء النقيّ والصحيّ، ومع ذلك كان هناك تشكّك في هذا الادعاء، الذي يبدو واضحاً وغير ضار، لكن سبرينجر يعتقد، لأسباب قوية جداً، أنَّه يشبه طريقة لاحقة لتربية الأطفال في مساكن المدينة النبيلة، ولما بلغ محمَّد السَّادس من عمره أخذته أمه إلى يثرب مسقط رأس جدته، وبينما كان ما يزال نبياً وحاكماً تذكر مشاهد طفولته وشبابه في المدينة، وفي طريق العودة توفيت أمه في «الأبواء»[1] وبعد سنوات طويلة بكى عند قبرها، فحركت دموعه الشعور، وأبكى الجنود الذين كانوا برفقته، ثم تبنى الصبي اليتيم جده عبد المطلب، وحين توفي بعد عامين تبناه عمّه النبيل أبو طالب.

وعلى الرَّغم من فقره وعدم قدرته على إعالته على نحو كافٍ، أظهر أبو طالب تفانياً صادقاً في رعايته وحبّه، ونتيجة لذلك حصل محمَّد على دخل ضئيل من خلال الرعي،[2] وهي المهنة التي يمارسها عادة العبيد والفقراء،

(1) الأبواء منطقة تقع بين مكة والمدينة المنورة.

(2) انتقل محمد للعيش مع عمه أبي طالب، الذي كان رجلاً كريماً لكنه فقيراً، غير قادر على توفير احتياجات أسرته الأساسية، مما جعل محمد يتحمل مسؤولية نفقاته

ويقال إنَّه شارك في معركة ضدّ قبيلة بدويَّة مجاورة حين كان صغيراً، [1] وإن لم يكن محارباً، حيث لم تكن الشجاعة من سماته البارزة، بدلاً من ذلك، خدم بوصفه رفيقاً لأعمامه، الذين تحملوا وطأة المعركة.

ويقال إنَّه شرع في رحلتين إلى سوريا؛ إحداهما كان ما يزال صبياً تحت إشراف عمه أبي طالب، إنَّ روايات هذه الرحلات مزخرفة بتفاصيل خياليَّة كثيرة، ولكنَّ الميل إلى الخيال واضح في جميع أنحاء الرواية، ومن المشكوك فيه أن يكون قد زار سوريا مطلقاً، والأمر المؤكَّد هو أنَّه دخل في خدمة أرملة ثريَّة تُدْعَى خديجة، وهو في سن الخامسة والعشرين، وكانت تعمل في التجارة على حِدَتِها، وحين ذهب مع قافلة تجاريَّة إلى سوق «الحباشة»[2] الذي يبعد ستة أيام جنوب غرب مكَّة، ويقام فيه سوق سنويّ، لم يكنْ قائد القافلة بل كان تابعاً لها، وربَّما كان يعمل مشرفاً على الإبل، ومن المحتمل أنَّه شرع في رحلات أخرى، بما في ذلك رحلة إلى سوريا.

حتى ذلك الحين كانتْ حالته الماديَّة في غاية الفقر، كما ورد في القرآن: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ} (الزخرف) وفجأة طرأ تغيير على حالته الماديَّة حين تزوَّج محمَّد امرأة ثريَّة تُدْعَى خديجة، ولم تتأكَّد بعد الدوافع التي دفعت كلاً منهما إلى هذا الزواج، على الرَّغم من

الشخصية. (دوزي، المصدر نفسه أعلاه).

(1) ذُكر أنَّ أبا طالب والنبي محمَّداً شاركا في غزوة الفجار، وقال النبي: «لقد شهدت غزوة الفجار مع عمي أبي طالب، وأنا غلام صغير»، راجع: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 15-16.

(2) السوق المعروف بـ«الحباشة» يقع على بُعد حوالي 480 كيلومتراً من مكة.

سهولة اختراع قصص أخرى إلى جانب الروايات الواردة في التراث، فقد ترملت خديجة مرّتين، وكانت أكبر سناً بكثير من محمَّد، لكن الذكرى الطيبة التي ظلَّ محمَّد يعتزّ بها بعد وفاتها كانتْ مبنيَّة على الامتنان لتحريره من الفقر فقط، وكان والد خديجة ضدّ زواج ابنته من رجل فقير للغاية لدرجة أنَّه لم يكنْ قادراً على الزواج، مع أنَّه قد تجاوز السن المعتادة للزواج في تلك البلدان، ومع ذلك تمكَّنتْ خديجة من إسكات والدها المسن والحصول على موافقته، وهو في حال سكر، وحين استيقظ كان الزوجان قد تزوجا، وتمكَّن أقارب محمَّد من تهدئة والدها الذي كان غضبه قد يؤدي إلى إراقة الدماء.

ورغم تقدّمها في السن ظلَّت الزوجة خصبة وقادرة على الإنجاب، وبالإضافة إلى محمَّد، لديها أطفال آخرون من زيجات سابقة، أنجب محمَّد منها القاسم، فأكسبه لقب «أبي القاسم» حسب العرف العربيّ، وأربع بنات؛ زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وكان له ابن آخر اسمه عبد مناف،[1] وكان استخدام اسم «عبد مناف» يشير بوضوح إلى أنَّ محمَّداً كان ما يزال مشركاً في ذلك الوقت، ومع ذلك لم يرضَ أتباعه بهذا الاسم وبدؤوا باستخدام مصطلحات مخففة أخرى مثل «عبد الله» و«الطيب» و«صالح» وغيرها، وقد

(1) ذكر الدكتور جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (ج 11، ص 269) أنَّ «مناف» كان صنماً من أصنام الجاهليَّة، وذكره ابن الكلبي قائلاً: «كان لهم صنم يقال له مناف، وكانت قريش تسمِّي نفسها عبد مناف، ولا أدري أين كان أو من نصبه.» كما أشار ابن إسحاق في سيرته إلى أنَّ النبيَّ سمَّى أحد أبنائه بهذا الاسم، وتذكر مصادر السيرة أنَّ النبيَّ رُزِقَ قبل البعثة بابن اسمه عبد مناف. راجع: «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (ج 4، ص 315).

أسيء فهم هذه الأسماء المختلفة لأبنائه فيما بعد وتوارثوها، ومن المرجَّح أنَّ كلا الولدين قد ماتا في سن مبكرة، فبعد فترة وجيزة من نبوة محمَّد، واجه السخرية لأنَّه لم ينجب ذرية ذكورة (سورة الكوثر 105)، وقد ورد ذكر بناته عدَّة مرات.

أخذ محمَّد معه خلال هذه الفترة ابن عمه علي بن أبي طالب، بسبب الصعوبات الماليَّة التي واجهها أبو طالب في إعالة أسرته الكبيرة، وفي الوقت نفسه اتخذ العباس شقيق أبي طالب قراراً بأخذ ابنه جعفر أيضاً، يعتقد المسلمون أنَّ محمَّداً أدَّى دوراً مهمّاً في إعادة بناء الكعبة في سن الخامسة والثلاثين، التي تضرَّرت، بسبب الفيضانات المتكررة في وادي مكة، وعمل وسيطاً بين سكان مكّة المتنازعين الذين اختلفوا حول شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، وفي هذه العمليَّة قد أنجز شيئاً عظيماً، إلَّا أنَّ هذه القصص في مجملها خياليَّة ومشكوك في صحتها، ويزعم بعضهم أنَّه كان يُشار إليه باسم «الأمين» عموماً.

وقبل أن نصلَ إلى نقطة التحول المحوريَّة في حياة محمَّد، من المناسب أن نخوض في بعض التفاصيل المتعلقة بمظهره الخارجيّ، فمع عدم وجود صورة بصريَّة، بسبب المهارات الفنيَّة للعرب والتحريم الصارم [1] الذي

(1) ذكر في مقدّمة كتاب «حياة محمَّد» للكاتب لويس سبرينجر أنَّ المسلمين لم يحققوا تقدّماً يُذكر في الفنون الجميلة، لذا لا توجد صورة تقليديَّة معروفة للنبي محمَّد. ومع ذلك، اكتسبت سيرته طابعاً دينيّاً في بداية القرن الثاني، قبل أن تُدوَّن ضمن السياق التاريخيّ.

فرضه محمَّد للصور المشابهة لليهود،[1] إلا أنَّ التقاليد الشفويَّة احتفظت بتفاصيل عديدة عن مظهره، التي سنلقي الضوء عليها.

كان محمَّد متوسط الطول، نحيفاً جداً، لكنَّه كان يتمتع بمنكبين عريضين وقويين بوجه عام، وكان رأسه كبيراً، وكانتْ يداه وقدماه كفيين سميكتين، وكان شعره مجعداً قليلاً وأسود، لكن ليس على نحو مفرط، وخلف جفونه المتدلية كانتْ عيناه السوداوان الكبيرتان مرئيتين، وكان أنفه كبيراً ومنحنياً قليلاً، ولكنَّه جميلٌ من الناحية الجماليَّة، وكانتْ لحيته الطويلة تمنحه مظهراً ذكوريًّاً، كان لون بشرته داكناً نسبيًّاً مقارنة بغيره من العرب، وكان بين كتفيه علامة أو تشوّه، أطلق عليه أصحابه فيما بعد اسم «ختم النبوة»، وكان حين يمشي يتحرَّك بخطوات قويَّة، كأنَّه ينزل من جبل، وكان مظهره العام يثير الرهبة.

(1) ورد في العهد القديم نصٌّ صريح بشأن تحريم التصوير والنحت، وتحديداً في الوصية الثانية من الوصايا العشر للنبي موسى، حيث جاء: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما ممَّا في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض» (سفر الخروج 20:4).

القسمُ الثّاني

من ظهور النبيّ محمّد إلى هجرته إلى المدينة المنورة

كان محمّد في الأربعينيات من عمره جزءاً من ثورة تختمر فجأة رفعته من الغموض، وجعلته واحداً من الشخصيّات البارزة في تاريخ العالم، وكما ذكرنا بإيجاز أعلاه، شهدت حركته صحوة دينيّة خلال هذا الوقت، ففي مكّة انفصل كثير من الأفراد من العائلات المحترمة عن المعتقدات القديمة، وكان ورقة بن نوفل؛ أحد أقارب خديجة، قد اعتنق اليهوديّة (أو على الأقلّ هذا هو الأرجح وفقاً لتقارير الذي يصوره بوصفه مسيحيّاً).

وتحدّث زيد بن عمرو بن نفيل، علانية ضدّ الممارسات الوثنيّة [1].

(1) بحسب دوزي في كتابه مقالة في تاريخ الإسلام، رفض محمّد دين قومه علناً وانعزل في جبل حراء باحثاً عن الدين الحقيقيّ، متأثراً بتعاليم الحنفية. بدأ يشكك في عبادة الأصنام ويدحضها، لكنّه تميّز عن غيره بادعائه أنّه رسول من الله مكرّس لهذا الدور.

وكان لليهود في مكَّة علاقات تجاريَّة واجتماعيَّة قويَّة مع أهلها، ومن المؤكَّد أنَّ أهل يثرب «المعروفة الآن بالمدينة المنورة» الذين ارتبطوا بهم كانوا يأتون غالباً إلى مكَّة للتجارة أو ربَّما استوطنوا هناك بالكامل، وعلى أقلّ تقدير، فإنَّ معرفة محمَّد الموثقة جيداً بالقصص والأقوال اليهوديَّة، التي يمكن رؤيتها في تصريحاته السابقة، تشير إلى أنَّه كان على اتصال باليهود لفترة طويلة [1]. وكان في مكَّة عدد قليل من الأحباش واليونانيين المسيحيين أيضاً، ولكنَّهم كانوا في الغالب عبيداً أو معتقين، ولم يكنْ لدى أغلبهم معرفة تفصيليَّة بدينهم، وربَّما عاش بعضهم بين الوثنيين منذ صغرهم، ولذلك فإنَّ معرفة محمَّد بالمسيحيَّة كانتْ محدودة.

لقد كانتْ هناك بعض الأساطير التي كانتْ مشوهة في بعض الأحيان بطريقة ساذجة، وبعض الأجزاء التي كانتْ منحرفة بوضوح في المعتقدات، ومع ذلك كان كلُّ هذا كافياً لخداع العقل البدويّ وإثارة الشكوك فيه، احترامهم للآلهة القديمة وعبادتهم، ودفعهم نحو التوحيد الخالص.

(1) انظر: جولدزيهر في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» (ص 12)، حيث قال: إنَّ إعلان النبيّ العربيّ كان مزيجاً مختاراً من المعرفة الدينيَّة والآراء التي استقاها من تفاعله مع العناصر اليهوديَّة والمسيحيَّة، التي أثَّرت فيه بشدة، وأيقظت الشعور الدينيّ بين شعبه. وأضاف أنَّ هذه التعاليم، التي تأثَّر بها محمَّد عميقاً، أصبحت جزءاً من نظامه العقائديّ وإدراكه للوحي الإلهيّ. ويشير المستشرق النمساويّ ألفرد فن كريمر (1828-1889) في كتابه «الحضارة الإسلاميَّة ومدى تأثيرها على الديانات الأخرى»، إلى أنَّ تأثير المؤثرات الأجنبيَّة شمل محتوى القرآن، الفقه، العقيدة، علم الكلام، والفلسفة. وقد تُرجم الكتاب إلى العربيَّة عام 1947 الدكتور مصطفى طه بدر.

بدأت أفكار التوحيد تكتسب زخماً بين العرب في ذلك الوقت، بسبب الارتباط بآلهة متعددة، لذلك لا نحتاج إلى الرجوع إلى الرهبان[1] في سوريا أو الأدب الخياليّ حتى ذلك الوقت لفهم محمَّد على نحو أفضل، حتى الطوائف غير المعروفة التي ربَّما أثَّرتْ في محمَّد على وجه التحديد، بسبب تلك التأثيرات الموصوفة ليستْ واضحة، ليس من المستبعد أن يكون قد أجرى مناقشات مطولة مع زيد بن عمرو[2] الذي يقال إنَّ أهلَ مكَّة طردوه من مدينته، لكن في ذلك الوقت أصبح التغيير في معتقدات محمَّد الدينيَّة مهمَّاً لدرجة أنَّه شعر بأنَّه مدعو ليكون رسولاً من الله، ويأمر الآخرين بالإيمان أيضاً.

من الصعب تحديد متى يجب أن نبدأ بفهم تلك العمليَّات الداخليَّة في ذهن محمَّد التي جعلته نبياً تدريجيَّاً[3]. إنَّ النبوة، على الأقلّ في نقائها وقوتها، تشكل ظاهرة فريدة بين الشعوب السامية، بما في ذلك العبرانيين على وجه الحصر تقريباً، وإنَّ الإنسان ذا النفس العميقة يشعر بقوة هائلة تمارسها عليه

(1) يشير نولدكه إلى أنَّ محمَّداً التقى بالراهب المسيحيّ بحيرى خلال رحلاته المتكررة إلى الشام، وهو اللقاء الذي يُعتقد أنَّه أثَّر في معرفته الدينيَّة وفهمه للعقائد السماويَّة.

(2) ذكر دوزي في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام»، صفحة 21: «كان محمَّد يحبّ مناقشة القضايا الدينيَّة مع الآخرين، بما في ذلك اليهود والنصارى والحنفيون، وخاصة زيد بن عمرو، الذي لم يجد تأييداً في اليهوديَّة أو المسيحيَّة».

(3) ذكر نولدكه في رسالة إلى سنوك هورجروني، قائلاً: «لكن هذا الشخص الذي كنتُ أعتقد في شبابي أنّني فهمته، أصبح لغزاً أمامي على نحو أكبر»، راجع: مجلة الجمعيَّة الشرقيَّة الألمانيَّة، 1931، المجلد 85.

الحقيقة الدينيَّة، كأنَّها تواجهه كشيء خارجي، مرتفع من السماء، فيشجع على قبولها بعدّها كلمة إلهيَّة مبعوثة إلى البشريَّة باسم الله.

لقد أصبحت هذه الفكرة غريبة تماماً بالنسبة إلى الأوروبيين المعاصرين، فكثيراً ما تظهر رؤى النبيّ واضحة إلى الحد الذي لا يشك معه في أنَّها حقائق موضوعيَّة [1]. ونحن الذين تحرَّرنا من فكرة أنَّ هذه الظواهر والاكتشافات لها جوهر موضوعيّ، نرفض بسهولة هؤلاء الرائين المتحمسين، ونعدّهم إمَّا دجالين، وإمّا أفراداً ضعاف العقول، ولكنَّنا ننسى أنَّ العصور المختلفة والشعوب المختلفة لها شخصيَّات مختلفة، ونتجاهل الحماسة التي تشتعل في داخلهم، وكم من إيمان عميق بالحقّ يتجلَّى في حياة كثير من الأنبياء من العصور القديمة، وأخيراً ننسى التقدّم العظيم الذي أحرزته البشريَّة تحت تأثير هؤلاء الرجال. لقد كان محمَّد يتمتع بهذه الطبيعة النبويَّة أيضاً، إيمانه بأنَّ هناك إلهاً وأحداً، وأنَّ الآلهة المتعددة باطلة، وأنَّ عبادتها عبادة شركيَّة تجلب غضب الله، وهي حقيقة سوف تتكشف على نحو رهيب ضدّ المشركين.

إنَّ هذا الإيمان، الذي اكتسبه من خلال تعليمه وطريقة تفكيره الفريدة، جعله نبياً، ولذلك لم يكنْ بوسعه أن يترك قومه وبني البشر دون أن يهديهم، وينقذهم من عذاب الجحيم، ويقودهم إلى عبادة الله، وكان يشعر بأنَّه رسول

(1) يرجى مراجعة الفصل المهم بعنوان «في نبوءة محمَّد والوحي» من كتاب «تاريخ القرآن»، حيث يناقش رؤية النبيّ للوحي. كما يُنصح بمراجعة الفصل الثاني بعنوان «الوحي الذي تلقاه محمَّد» لبحث أعمق في هذا الموضوع.

من الله، مع ذلك إنَّ المنظور الدينيَّ القديم [1] ورواية التنوير الحديثة [2] تصور محمَّداً ظلماً على أنّه محتال مخادع، وربَّما محتال مخدوع، لكن من المهمّ أن نلاحظ أنَّ محمَّداً لا يمكن مقارنته بالأنبياء العظام في العهد القديم، فمنذ البداية كان هناك شيء مثير للقلق في حماسته الشديدة، فقد أعطته أمراضه الجسديَّة، التي تجلَّت في حالات النوبات أو الحالات المماثلة للصرع [3] السبب الرئيس للاعتقاد بأنّه كان تحت تأثير قوي أعلى، ولستُ طبيباً بما يكفي لتشخيص طبيعة المرض الذي عاناه محمَّد بدقة أكبر وتحديده، ولا أعرف إذا ما كانت

(1) زعم البيزنطيون أنَّ النبيَّ محمَّداً اكتسب تعاليمه من خلال تفاعله مع المسيحيين. وقد أشار المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس (725–818) في سجله التاريخيّ إلى أنَّ محمَّداً ظهر نبيّاً تحت تأثير راهب هرطوقيّ. لمزيد من التفاصيل، يُرجى مراجعة مقال نولدكه «هل كان لمحمَّد معلمون مسيحيون» الذي سيصدر ضمن كتابنا القادم «نولدكه – دراسات ونصوص تاريخيَّة».

(2) كان نولدكه يشير تحديداً إلى سبرينجر في اعتقاده بأنَّ النبيَّ محمَّداً لم يكن مؤسِّس الإسلام بشكل كامل، بل كان أداة غير مهمَّة إلى حد كبير ومخدوعة جزئيَّاً لصالح أطراف أخرى. قدَّم سبرينجر جهداً علمياً فريداً في هذا السياق، مع محاولة لإعادة تشكيل المنظور البيزنطيّ القديم بشكل مختلف. ومع ذلك، وبعد بحث مكثَّف حول النقاط الرئيسة، خلص نولدكه إلى أنّه لا يمكن قبول أيّ تأثير مسيحيّ قويّ على محمَّد. راجع المصدر نفسه المذكور آنفاً.

(3) في كتابه «محمد في مكة»، ص 101، يقول مونتغمري وات: «غالباً ما ادَّعى أعداء الإسلام أنَّ محمداً كان مصاباً بالصرع (epileptique)، وأنَّ تجاربه الدينيَّة تفتقر إلى القيمة بسبب ذلك. لكن الأعراض الموصوفة لا تتطابق مع أعراض الصرع، إذ إنَّ هذا المرض يؤدي إلى ضعف جسديّ وعقليّ، بينما احتفظ محمد بقواه العقليَّة حتى نهاية حياته. حتى لو صحّ هذا الادعاء، فإنَّ الحجة تبقى مخالفة لكلّ منطق سليم إذا لم تستند إلا إلى الجهل والوهم».

الأوصاف التقليديَّة لنوباته كافية للطبيب للقيام بذلك. ويبدو أنَّ معاناته كانتْ تتجلَّى في حوادث متكرّرة ومفاجئة حيث كان ينهار، ويفقد وعيه كليّاً أو جزئيّاً، ويشبه شخصاً سكران، ويحمر وجهه، ويزبد من فمه، ويصدر أصواتاً مثل «جمل صغير»، كان يشعر طنان أو رنين عنيف في أذنه، كأنَّ ملاكاً يتحدَّث إليه، ووفقاً للاعتقاد السائد في الشرق الأدنى القديم، الذي كان ينسب الاضطرابات النفسيَّة الدائمة أو المؤقتة إلى تأثير الأرواح الشريرة، فقد اعتقد محمَّد في البداية أنَّه مسكون بالشياطين، ممَّا دفعه إلى حد اليأس والتفكير في الانتحار.

ومع ذلك، من خلال أفكاره الخاصة وإقناع الآخرين الذين أدركوا فيه علامات النبوة، أقنع نفسه بسرعة أنَّ قوَّة سماويَّة قد حلَّتْ عليه، وأنَّ الروح القدس يهزّ روحه[1]. أصبح جسده المادّيّ ومعاناته ضمانة لنبوته، مع هذه الطبيعة المتوترة أصبحت الأحلام والهلوسة[2] اليقظة حتميَّة، ممَّا عزَّز إيمانه،

(1) قال جولدزهير في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام»، ص14: «عندما بلغ الأربعين من عمره، اعتاد قضاء وقته في الخلوة في الوديان المجاورة لمدينته مكَّة، حيث أصبح نهباً للأحلام القويَّة والرؤى الدينيَّة. شعر بأنَّ الله يدعوه بقوَّة تتزايد تدريجياً ليكون منذراً لقومه، محذراً إيَّاهم من الخسران المبين الذي سيواجههم بسبب ضلالهم. بكلمة واحدة، استحوذت عليه قوَّة لا يمكنه مقاومتها تدفعه ليصبح مربيًا لشعبه؛ أي «منذراً ومبشراً».»

(2) قال دوزي في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام»، ص 23، حول هذا الموضوع: «علينا أن نبحث عن تفسير لهذه الظاهرة في المرض الذي أصاب محمَّد. فقد اعتقد بعض العلماء في السابق أنَّه كان يعاني من الصرع. لكن الدكتور سبرينجر، الذي كتب مجلدات عن سيرة محمَّد، وكان مستشرقاً وطبيباً أيضاً، وصف حالته «بالهستيريا العضليَّة».

كان من المحتم أن تعاني النبوَّة التي ظهرتْ تحت هذه التأثيرات من عيوب خطيرة.

ولم يكنْ محمَّد يميل إلى التأمل في الله والأمور الإلهيَّة على نحو مجرَّد، فقد كان كلّ شيء بالنسبة إليه مضطرباً ورائعاً، والآن إذا كان الله قد دعاه إلى إعلان وحدانيته، فقد كان لزاماً عليه أن يستخدمَ كلّ قواه لتحقيق هذه الغاية النبيلة، ولم يكنْ بوسعه أن يقتربَ من هذه الوسائل وهو خائف، فالشخص الذي يقتنع برسالته اقتناعاً قويًّاً لا بدّ أن يستخدم مختلف الخداع الدينيّ لتحقيق أهدافه، وكثيراً ما يستخدم وسائل تتعارض مع الضمير الأخلاقيّ الصارم، لكن هذا لا يعني أنَّه ينبغي عدّه محتالاً منظماً، ففي لحظات الاندفاع، وفي حرارة الغضب تجاه المشركين، وفي حماسه الشديد لإنقاذ النفوس الضالة في الرغبة الملتهبة في الخلاص، كان يتبع شعوره وعواطفه، معتبراً إيَّاها صحيحة تماماً، لأنَّها مستوحاة من الله خاصة، ولم يكنْ أداة من أدوات شيطانه[1] يرشده دائمًا إلى الطريق الصحيح، وإن كان من الخطأ الفادح أن نعدَّ كلّ الخطايا والمنكرات التي لا تعد ولا تحصى التي ارتكبت «باسم مجد الله الأعظم» أعمالاً شريرة متعمدة، لأنَّها غالباً ما كانت تأتي من أكثر الأفراد تقوى وحماسة، إنَّ الحكمَ على محمَّد وفقاً للمعايير والآراء الفرديَّة، التي تتعارض مع الضمير الأخلاقيّ والدينيّ، سيكون خطأً فادحاً، كانت

(1) ذكر وليم موير: أنَّ محمَّداً كان وسيلة من وسائل الشيطان، لكنه أقرَّ في الوقت نفسه بأنَّ هذا الشيطان تجلَّى أمام محمَّد في هيئة رسول إلهيّ، راجع: «سيرة الرسول في تصورات الغربيين»، المستشرق الألمانيّ جوستاف بفانموللر، ص 173.

شخصيَّة محمَّد نبيلة في جوهرها، وظلَّتْ كذلك.

يصعب على الناس تحديد وقت تبني محمَّد لاعتقاده بأنَّ الله قد دعاه للإسلام وهداية مواطنيه، وعلى نحو طبيعيّ، قد نشأ هذا الاعتقاد نتيجة لصراعات وحروب طويلة، وهذا ما تؤكّده بعض الأحاديث التفصيليَّة، التي قد لا تكون موثوقة للغاية، ولقد كان من المحتم أن يستمرَّ هذا الصراع لفترة أطول لأنَّ محمَّداً كان يفتقر إلى الشجاعة [1]، وكان يعتقد أنَّه لن ينجو من الاضطهاد، أو على الأقلّ من السخرية المريرة من قِبَل مواطنيه، ولا يمكن إلَّا لمن ينظر إلى رؤى محمَّد باعتبارها حقيقيَّة، سواء كانت إلهيَّة أو شيطانيَّة، أن يبدأ دعوته من مثل هذا الحدث الداخليّ، لكن من الممكن أن نفترضَ أنَّ الظهور في الحلم كان العامل الحاسم حتماً، حيث قضى محمَّد وقتاً طويلاً في عزلة في جبل حراء بالقرب من مكَّة لممارسة تمارين العبادة، حيث أُمر بنشر تعاليمه وإعلان الوحي لتجميع كتابه؛ القرآن، وهذا دليل على دعوته، ولذلك لدينا بداية سورة العلق، التي يمكن اعتبارها أقدم جزء من القرآن حقّاً.

وتقول الروايات إنَّ هذا الحدث حدث في السنة الأربعين من حياة محمَّد، لكن لا ينبغي لنا أن نأخذ هذا الرقم بدقة شديدة، لأنَّ محمَّداً ربَّما لم

(1) يبدو أنَّ نولدكه قد تبنَّى رأياً مختلفاً، رغم أنَّ معظم الروايات والمصادر الإسلاميَّة تشيد بقوَّة النبيّ محمَّد وشجاعته، وهو ما يعدُّ جانباً بارزاً في سيرته.

يكنْ يعرف يوم ميلاده أو السنة بالضبط [1]. إنَّ تأريخ الوقت قبل الهجرة إلى المدينة غير صحيح مطلقاً، وحتى في هذا الصدد، يبدو أنَّ أفضل الروايات الموثقة تختلف فيما بينها فيما يتعلَّق بالمدَّة التي قضاها محمَّد بعدّه نبيّاً في مكَّة.

وبحسب الروايات المتوفرة، التي تكاد، وتقول فإنَّ مدَّة الأحداث كانتْ تقريبية، 10 و 13 و 15 سنة، لكن بحسب شهادة شاعر معاصر موثوق، فإنَّه وعظ هناك لمدة عشر سنوات وبضع سنوات أخرى، وبما أنَّ هجرته كانتْ في عام 622، فإنَّ ظهوره الأوَّل كان في نحو عام 610.

ووفقاً لآية من القرآن، فإنَّ هذا الظهور كان في شهر رمضان، وقد نسي محمَّد نفسه فيما بعد التاريخ المحدَّد، والتسلسل الزَّمنيّ للأحداث القليلة التي أُكِّدت قبل هجرته إلى المدينة غامض للغاية، ويبدو أنَّه رُتِّب ونُظِّمَ على نحو مصطنع؛ لذلك من الأفضل الاعتماد على المعلومات التقريبيَّة، حتى التسلسل النسبيّ للأحداث مؤكّد جزئيّاً فقط، وحتى في هذه الفترة التي لم تشهدْ أحداثاً مهمة كثيرة عموماً، فإنَّ الأسطورة والتزوير ما زالا يهيمنان على كثير من الأحداث، بسبب تقلبات الأحاسيس العامَّة المؤيدة والمعارضة لمحمَّد، وميل الأفراد الواضح إلى تعاليمه ثم تراجعهم عنها، ومحاولات

(1) في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام» (ص 18)، أشار دوزي إلى أنَّ محمَّداً وُلِد وفقاً للرواية التقليديَّة في 20 ربيع الثاني 571 في مكَّة، لكن من المحتمل أنَّ محمَّداً نفسه لم يكن على علم بتاريخه الدقيق. وبالمثل، ذكر لامنس في كتابه «مهد الإسلام» (ص 12) أنَّ محاولات تحديد عمر محمَّد بدقَّة تواجه صعوبات، لأنَّ النبيَّ، مثل معاصريه، لم يكن على علم دقيق بعمره.

محمَّد المتعددة للتأثير في مستمعيه وأسرهم، أحياناً بطريقة وأحياناً أخرى بطريقة أخرى، ورغم التنازل المحدود عن بعض الذكريات، فإنَّها مشوهة إلى حد كبير وممزوجة بأشياء ملفقة تماماً إلى الحدّ الذي يجعل من المستحيل في كثير من الأحيان فصل الذكريات الحقيقيَّة.

إنَّنا لا نستطيع أن نحدّدَ على وجه اليقين مدى تطور تعاليم محمَّد حين ظهر نبياً لأوّل مرَّة، فقد ظلَّ متردداً في بعض الأمور لفترة من الزَّمن، ومع ذلك لم يضع إلا بعض الشرائع الفرديَّة بعد فترة طويلة، وكان على اتصال دائم باليهود الذين سمع منهم شفويَّاً، وحصل على بعض التوضيحات التي استخدمها فيما بعد في حياته، ومع ذلك لم يقرأ كتبهم المقدَّسة بنفسه[1].

نعم، في تلك الأزمنة المبكرة لم يكنْ يدرك الفرق بين تعاليمه وتعاليم المسيحيين واليهود، وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنَّ المسيحيين واليهود الحقيقيين مؤمنون، وعلى افتراض أنَّ الوحي لا يمكن أن يتناقض مع بعضه، فقد استند إلى العهدين القديم والجديد، فضلاً عن الكتب المنسوبة إلى إبراهيم وغيره من الأنبياء، التي كان وجودها قائماً على خيال بعض اليهود فقط.

كان إيمانه وثوابت إيمانه واضحة منذ البداية، وهي أنَّ الله هو الواحد

(1) انظر: مقدمة كتاب «النبي محمد: حياته وتعاليمه» جوستاف وايل، حيث ذكر في مقدمته: «يمكن للمرء أن يقبل كحقيقة ذات مصداقية أنَّ محمَّداً كان لديه مراجع كاملة لكلّ من العهدين القديم والجديد».

الأحد، وأنّه أرسل رسله لهداية الناس وإعادتهم إلى الإيمان ليشاركوا في النعيم السماويّ، ويتجنبوا عذاب الجحيم المرعب، ويمكن الحصول على النعمة الإلهيَّة من خلال الصيام والصلاة والصدقة، وهو مفهوم وثيق الصلة بأديان الشرق الأوسط ليكون جزءاً لا يتجزَّأ من تعاليمه، وكانت الصلاة ذات أهميَّة قصوى، حيث تتضمَّن الصلوات الخمس اليومية جزءاً كبيراً من شعائر انحناء الجسم والسجود نحو الأرض من بين أشياء أخرى. كان وضع الجسم في أثناء الصلاة منظماً ومنظماً بعناية، حرص محمَّد على الاستيقاظ مبكراً للصلاة (1)التطوعيَّة إلى أقصى حد في الأيام الأولى من ظهوره، ومن المؤكَّد أنَّ الشخصيَّة الغريبة الأوَّليَّة اعتمدتْ إلى حد بعيد على الزّهد والتقوى الليليَّة، ممَّا زاد من شدَّة إيمانه.

ولأنَّه ولد في مكَّة، فربَّما لم يشك في قدسيَّة الكعبة (2) والمنطقة المقدَّسة كلّها قط، والافتراض هو أنَّ كلَّ هذا جاء من إبراهيم، وأنَّ عبادة الأصنام لم تظهر إلَّا في وقت لاحق، وأزيلت الأوثان والمخلفات الأخرى، وقام بالأنشطة حول الكعبة وعادة الحج بخشوع، فقد أزيلت الأصنام وغيرها

(1) بناءً على أوامر محمَّد اللاحقة، يتعيَّن في كلّ صلاة لله قراءة فاتحة القران: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}. [المؤلف]

(2) انظر: دوزي «نظرات في تاريخ الإسلام»، ترجمة كامل الكيلاني، ص 231: «قدَّس العرب الكعبة وما جاورها من البقاع، واعتبروها حَرَماً آمناً لا يُسمح فيه بالاعتداء أو الصيد احتراماً لقداستها.»

من البقايا، وانخرط في الأنشطة حول الكعبة وتقليد الحج بتفان، ممّا يدلُّ على أنَّ هذا يشمل شعائرَ موسميَّة وشعائريَّة واسعة النطاق.

وغني عن القول إنَّ محمَّداً دعا منذ البداية إلى الحياة الأخلاقيَّة، حتى لو لم تستوفِ الأخلاق التي دعا إليها المتطلبات الصارمة للأخلاق النقيَّة، لقد عارض بشدَّة بعض العادات السلبيَّة للعرب، ولا سيَّما الممارسة البربريَّة السائدة بين البدو لقتل الفتيات الصغيرات، وربَّما كان تحريم بعض الأطعمة جزءاً من الفترة المبكرة أيضاً، ومع ذلك يقتصر هذا التحريم على نحو أساسيّ على تناول الجثث والدم ولحم الخنزير[1] والحيوانات المخصصة للأصنام.

إنَّ تحريم المقامرة والربا، مع كثير من الأمثلة التفصيليَّة في العقيدة، سوف نناقشها لاحقاً[2]، ويبدو أنَّ اسم «الإسلام»، الذي يعني الخضوع (لإرادة الله)، و«المسلم»، الذي يعني من يخضع، قد أُنشِئا بعد فترة من الزَّمن، ومع ذلك، فإنَّهما يشيران إلى الجانب الأساسيّ والأهمّ من العقيدة،

(1) ربَّما عُدَّت هذه الأشياء الثلاثة غير طاهرة لأهل مكَّة [المؤلف].

(2) يقول لامنس في كتابه «مهد الإسلام»، ص 20: «كانت مكَّة أشبه بخلية نحل بشرية تعجّ بالاضطراب وحمى الربح والمضاربات، حيث تحوَّلت إلى جنّة للسماسرة والمصرفيين. ازدهرت فيها التجارة بالعملات الأجنبيَّة والسلع، وانتشر نشاط القوافل، ورافق ذلك تدفق العملات البيزنطيَّة والساسانيَّة واليمنيَّة. العرب، كما وصفهم «المؤرخ سترابو»، كانوا جميعاً تجاراً وسماسرة، وفي مكَّة كان التجار هم الطبقة المرموقة. حتى النساء كنَّ يستثمرن أموالهن في التجارة والقوافل، وبلغت أرباح الأسهم أحياناً أكثر من 50٪. بفضل هذه الحركة التجاريَّة، ظهر في مكَّة تجارٌ من أصحاب الثروات الطائلة، وهو ما تناولته بدراسة متخصصة بعنوان «الثروة العظيمة في مكَّة في القرن الأوَّل الهجريّ.»

الذي يقدّم الله باعتباره القوة الوحيدة التي تحكم في إرادته، التي يجب على البشر الضعفاء الخضوع لها دون شرط أو تحفظ، وكما ذكرنا أعلاه، تلقى محمَّد الهداية في المنام لتعليم مواطنيه من خلال الوحي الإلهيّ، ومن غير المؤكَّد إذا ما كان هو نفسه يفهم القراءة والكتابة، ولهذا السبب استخدم أيادي أجنبيَّة منذ البداية لتوثيق الآيات التي يتكوَّن منها القرآن.

تُلاحظ في البداية أنَّ الآيات القرآنيَّة التي يتحدَّث فيها الله عن نفسه دائماً تُعدُّ نتاجاً للإثارة العاطفيَّة والخيال المتحمس، من حيث الشكل تشبه تلك الآيات إلى حدّ كبير أقوال العرّافين الوثنيّين، حيث تتألف من جمل قصيرة لا ترتبط بالوزن والقافية، وتكون غالباً جمل مفصولة وأجزاء ممزقة من الكلمات، مع مرور الوقت تصبح النغمة أكثر هدوءاً واحترافيَّة، وفي بعض الأحيان تقترب القطع القرآنيَّة من النثر[1] في الفترة المسبقة للهجرة، ورغم استمراريَّة القافية في نهاية الآيات وشكل وضع الكلمات، على فم الله نفسه في التحدّث، في البداية كانت الآيات مختصرة وقصيرة، وبمجرَّد كتابتها، عدَّها المؤمنون شيئاً مقدَّساً، وهذا كان مشتركاً بينهم وبين محمَّد، وتُقرأ في أثناء الصلاة والعبادة، ومع هذا المقام المقدَّس للقرآن، كان بإمكان محمَّد في بعض الأحيان إدخال مقاطع بأكملها

(1) في كتابه «حرافيش القاهرة»، يروي الأستاذ عبد المنعم شميس قصة طريفة عن المستشرق «بول كراوس»، الذي حاول إثبات أنَّ القرآن شعر، مدعياً أنَّ النبيَّ محمداً كان شاعراً، مما يوافق تهمة كفار قريش له. قدَّم كراوس هذه الأفكار في محاضراته بجامعات القدس والقاهرة، مؤكداً أنَّ نصوص الكتاب المقدَّس والقرآن ليست نصوصاً نثريَّة، بل هي نصوص شعريَّة منظومة.

من الآيات أو تغييرها أو إخفائها.

لم يتم التأكيد على كيفيَّة نشر تعاليم محمَّد لأوَّل مرَّة، والمسلمون يتجادلون بكثرة حول من كان الأوَّل في اعتناق الإسلام ومن تبعه لاحقاً، ولكنَّ المعلومات حول هذا الأمر غالباً تكون ملوَّنة بالرغبة في تمجيد أسلاف العائلة أو الحزب إلى أقصى حدّ ممكن.

لقد كان الدخول المبكّر في الإسلام عملاً مشتركاً بين جميع الأتباع والصحابة، ومع ذلك فإنَّ أوَّل أفراد أسرة محمَّد كانوا زوجه خديجة وبناته وابنه الصغير علي [1] وخادمه الحبيب زيد، الذي ربَّما قد أطلقه حرَّاً في ذلك الوقت [2] ويصبح في نهاية المطاف صديقاً حميمًا لأبي بكر الحكيم الأمين، الذي اعتنق الإسلام مبكّراً، وظلَّ ثابتاً على إيمانه، وقد عدّه جميع الصحابة أفضل ضمان لنيّات محمَّد الطيبة، إلَّا أنَّه رفضه أقاربه الآخرون، وأعلن عمه أبو لهب أنَّه مجنون، ولم يبد أيّ خوف أو تردد خلال الفترة القصيرة التي هدّده فيها محمَّد بالنار الأبديَّة، وكان أهل مكَّة يسمحون له بحريّة الاستمرار في معتقداته عموماً، معتبرين بعض ما قاله منطقيَّاً ومعقولاً، ولم يعترضوا عليه كثيراً، فقد اعتادوا على مثل هؤلاء الأفراد من العلماء وبعض الشعراء، واستطاع أبو بكر أن يستجلبَ بعض الناس للانضمام إليه، ولكنَّ معظمهم

(1) يبدو أنَّ نولدكه كان يقصد التأكيد على أنَّ عليَّاً، بعد أن توَلَّى النبيُّ محمَّد رعايته، أصبح بمثابة فرد من أسرته، ويُعدّ بمنزلة أحد أبنائه.

(2) تبنى النبيّ زيداً قبل نبوته، ثم أعتقه فيما بعد.

كانوا من العبيد وغيرهم من الطبقات الدنيا الذين كانوا أسعد حين انضموا إلى محمّد ممّا أثار غضب كبار شخصيّات قبيلة قريش.

ولعلّ بعضَ هؤلاء الأفراد المحرومين الذين أظهروا احتقارهم للدين الوثنيّ القديم بطريقة وحشيّة كانوا السبب الرئيس في المعاملة القاسية والخشنة التي تلقاها هؤلاء الأفراد الضعفاء من قبل الأسر الأكثر احتراماً وتبجيلاً.

ولعلّ أوّل شرط للتحول كان فيما بعد أن طالبوا محمّداً بطرد أتباعه الضعفاء، وهو الطلب الذي رفضه بشدّة حتماً، لكن كلّما عرض تعاليمه بصراحة ووضوح، أدرك أهل مكّة نيّاته وجديتها، وتصاعدت عداوتهم له، فكانوا يلقون بالشتائم على أصنام قريش، ويتهمون آباءهم الذين يفتخرون بهم بأنّهم عبيد لهذه الأصنام، ويتجاهلون تماماً تعاليم البعث والحساب، يضاف إلى هذا الخوف أن تنتشر تعاليم محمّد، وقد لا يأتي العرب بعد ذلك بوصفهم حجاجاً إلى مكّة، وقد لا يكون هناك احترام لقدسيّة مكّة التي تعتمد عليها سمعتهم وأمنهم وتجارتهم المزدهرة، باختصار تصاعدت حدّة المعارضة ضدّ محمّد وأتباعه تدريجيّاً، وكان النبيّ نفسه محمياً من قبل عمه النبيل الشريف أبي طالب، ومع أنّ أبا طالب لم يكنْ يؤمن به، إلّا أنّه كان مستعداً دائماً للدفاع عن شرف عائلته وعشيرته إلى أقصى حدّ إذا انتقل إرثهم إلى محمّد.

ولم يكن المؤمنون من قبيلة قريش عرضة للإهانات اللفظيّة والعنف الجسديّ، لكنّهم كانوا يقدرون حياتهم لأنّهم، بغض النظر عن إيمانهم، سيُنظر إليهم إلى الأبد على أنّهم مهانون من قبل قريش، ومع ذلك كان على المؤمنين

أن يتحملوا أشكالاً مختلفة من التعذيب، حتى من أقاربهم، ومع ذلك، فقد عاملوا العبيد والأفراد المضطهدين الذين لا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم بقسوة، في محاولة لحملهم على التخلي عن إيمانهم.

لم يكنْ هناك سوى استثناءات قليلة، مثل بلال، الذي كان من أصول إفريقيَّة، لكنَّه ظلَّ ثابتاً على الرَّغم من كلّ الألم، وأخيراً سمح محمَّد، الذي كان يتمتع بموقف متساهل عموماً، لأنصاره الأضعف بالتخلي عن إيمانهم علناً، طالما ظلَّتْ قلوبهم ثابتة في إيمانهم، يشير هذا البيان إلى أنَّ بعض أتباعه من قبيلة قريش ارتدوا إلى الكفر عندما رفضه بعض رجاله الأكثر ولاءً علناً، ممَّا أدى إلى مشكلات مختلفة لهم. في النهاية، خُلِّص بلال من قبل أبي بكر، وهو رجل ثريّ، ولذلك أصبح تحت حمايته، ثم اشترى أبو بكر بعد ذلك عدداً من العبيد الذين كانوا يتعرَّضون للتعذيب، بسبب إيمانهم، وقد حدث هذا مراراً.

كان أعداء محمَّد ومعارضوه ممثلين بزعيمين من أسرة مخزوم: الشيخ الثريّ الوليد بن المغيرة وأبو الحكم عمرو، الذي أشار إليه محمَّد «بأبي جهل»، وقد سخرا منه بطرق مختلفة، ولا سيَّما الضغط عليه لإحداث معجزات مثل تلك التي ادَّعاها الأنبياء السابقون، أو من خلال استهزائهم الساخر، قائلين إنَّ الله سيرسل إليهم العقوبة التي طال انتظارها لكفرهم يوم القيامة، الذي أعلن محمَّد أنَّه قريب، سيحدث قريباً، وعلى وجه الخصوص عرف النضر بن الحارث كيف يسيء إلى محمَّد من خلال إخبار الناس بالأساطير البطوليَّة الفارسيَّة القديمة التي سمعها في أثناء رحلاته التجاريَّة على طول

نهر الفرات، التي بدتْ أنّها تأسرهم أكثر من قصص الأنبياء المملة في القرآن.

ومع ذلك قوبل الطلب الموجَّه إلى أبي طالب، وفي الواقع إلى جميع الهاشميين، بتسليم محمَّد إليهم، برفض شديد، وقد حُفِظَت قصائد كثيرة لأبي طالب تتعلَّق بهذا الأمر، وإن كان بعضها قد تعرَّض للتحريف الشديد، إلَّا أنَّها ما تزال تحتفظ بجوهر كلمات ذلك الرجل النبيل[1].

وكانتْ أحاسيس الأعداء كما وصفها القرآن، ممَّا يعكس تصويراً مستمرَّاً لمحمَّد في قصص الأنبياء، حيث يمكن سماع قوم النبيّ شعيب يقولون: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}، وفي الوقت نفسه استمرَّ محمَّد في دعوته، وكان تأثيره الأساسيّ على الآخرين من خلال الأوصاف الحيَّة لعذاب الجحيم ونعيم الجنة، ولا ينبغي الاعتراض على ذلك؛ إذ ينبغي أن تسبق أفعاله وأقواله الإيمان بدقتها، ومثل هذه الأوصاف النارية تأسر العقل، وتجعل هذه الأفكار تترسخ في ذهن المستمع دون دليل، فتتحول إلى كلمات خياليَّة مثيرة تطبع في ذهن المستمع بوصفها حقائق لا تقبل الجدل والمناقشة.

ولكنَّ عدد المؤمنين الصامدين كان ما يزال قليلاً، ومع ازدياد صعوبة حالتهم تدهورت حالتهم أكثر فلجأ محمَّد إلى البحث عن ملجأ لهم، وكانت مملكة الحبشة، التي كانت لها علاقات تجاريَّة كبيرة مع مكَّة، توفر لهم ملاذاً آمناً، وكان أولئك الذين اضطهدهم المشركون يعتمدون على الحماية هناك،

(1) نولدكه هو أول من قام بطبع ديوان أبي طالب ونشره.

لذلك أوصى محمَّد أتباعه بالبحث عن ملاذ مؤقت في هذا البلد، أمَّا أولئك الذين لم يتمكنوا من حماية أنفسهم على نحو كافٍ ضدّ أقاربهم، ولم يُجبروا على البقاء، فقد هاجروا إلى الحبشة لعدة سنوات بعد ظهور محمَّد لأوَّل مرَّة، ومن بينهم جعفر بن أبي طالب وعثمان بن عفان الضعيف والمستضعف من بني أمية، الذي ربَّما اعتنق الإيمان، بسبب حبّه لابنة النبيّ الجميلة رقيَّة، حين رافقت زوجها في الفرار، ولكنَّ المهاجرين لم يمكثوا طويلاً في إفريقيا حين سمعوا فجأة أنَّ مكَّةَ كلّها قد قبلت الإسلام، لذلك عاد بعضهم على الأقلّ.

ومن المثير للاهتمام أنَّ حدثاً غير عادي حدث، وبعد أن شعر محمَّد بالعزلة بعد رحيل كثير من أتباعه، واجه صعوبات متزايدة في قيادة قومه، ففكر في التوصل إلى حلّ وسط معهم، ففي الماضي، عرض عليه أهل قريش أن يؤمنوا به بشرط أن يعترفَ بآلهتهم إلى جانب الإله الأعلى، وهو الاقتراح الذي رفضه محمَّد على نحو قاطع حتماً. (سورة 109) (1).

كان يعتقد أنَّه إذا آمن بالله رب العالمين، فإنَّه يستطيع أن يعترفَ بآلهتهم الوثنيَّة بعدّها الآلهة نفسها التي يقدسها الآباء المسيحيون، ويعدّونها آلهة أدنى مثلما رآه في الملائكة، وفقًا للتقاليد اليهوديَّة والمسيحيَّة. قادته هذه الفكرة في النهاية إلى اتخاذ خطوة خاطئة، فقد أدرج بضع كلمات في خطبة عامة (سورة 53)(2) معلناً أنَّ

(1) سورة الكافرون: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}.

(2) سورة النجم: { لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى }.

الآلهة الثلاثة الرئيسة لشعب مكّة كانوا كائنات نبيلة يمكن أن يقبل الله شفاعتها [1].

في أعقاب هذا الإعلان، انضمَّ إليه كثير من الناس من قبيلة قريش، وبدأتْ شائعات تحرير مكّة تنتشر، ومع ذلك سرعان ما أصبح ضميره مضطرباً، وبصرف النظر عن صعوبة التخلي عن المكاسب التي حققها ذات يوم، فقد أعلن علناً أنَّ هذه الكلمات كانت مستوحاة من الشيطان، عند هذه النقطة أصبحت المقاومة أسوأ وأكثر خطورة، لقد مرَّ محمَّد بتجارب وتحديات مماثلة في بعض الأحيان، في عدة أماكن من القرآن، يوبّخ نفسه (أو تقنيّاً، يلومه الله على القيام بشيء لا يليق بنبيّ)[2].

وبعد عودة بعضهم من الحبشة عاد بناءً على تلك الشائعات، بينما عاد آخرون إلى مكّة بعد أن حصل كلّ منهم على تأكيد موثّق من قريش بعدم المساس بهم، ومنهم عثمان بن عفان، وسرعان ما اكتسب بعض هؤلاء

(1) يقول فان كريمر في كتابه «تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام» (ص. 6): «في بداية بعثته، قدَّم محمَّد فهماً محدوداً لله، حيث اعترف في عام 616 بالآلهة الثلاثة، اللات والعزى ومناة، ككائنات عليا لها قوة الشفاعة أمام الله. لكنه أدرك لاحقاً خطأ هذا الاعتقاد، ولم يتراجع عن هذا الاعتراف فحسب، بل شدَّد بشكل أكبر على عقيدة التوحيد الخالص بقوله المتكرر: لا إله إلا الله». تناول مونتغمري وات هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه «محمد في مكة»، حيث خصص موضوع شاملة تمتد من الصفحة 166 إلى الصفحة 178.

(2) وبخه الله في السورة الثمانين (عبس) لأنَّه حاول عبثاً أن يعلم رجلاً غنياً ونبيلاً، وتجاهل رجلاً أعمى فقيراً يبحث عن الإيمان. {عَبَسَ وَتَوَلَّى. أن جَاءَهُ الأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}. [المؤلف]

الأفراد الشجاعة أو العقليَّة الاستشهاديَّة الكافية للتخلي عن كلّ مطالبهم وتعريض أنفسهم لكلّ أنواع الإذلال في سبيل كلمة الله.

وربَّما عاد بعضهم فيما بعد إلى الحبشة، ولم تنجح محاولات قريش لإقناع ملك الحبشة بتسليم أقاربهم بعدّهم أعداء للمسيحيَّة، سواء عن طريق السفراء أو بالأحرى التجار الذين كانوا يزورون إفريقيا باستمرار، وتمكّن المؤمنون بسهولة من إثبات أنَّهم أقرب إلى المسيحيَّة من مشركي قريش.

ولا شكَّ أنَّهم لو لم يعودوا إلى مكة بعد بضع سنوات لكانوا قد تحوَّلوا تدريجيّاً إلى المسيحيَّة، حيث أصبح واحد منهم على الأقلّ مسيحيّاً حقيقيّاً (1).

وفي هذا الوقت تعزَّز حزب محمَّد برجلين نشطين: حمزة أخو أبي طالب وأبو لهب، وإذا كانت القصة موثوقة على الأقلّ، فإنَّ حمزة وقف في البداية إلى جانب محمَّد في تضامنه ضد أبي جهل، ولكنَّه في وقت لاحق ختم إيمانه بدمه، بل وأكثر من خلال ذلك الشاب النشط والمخلص عمر، الذي أصبح فيما بعد إلى جانب محمَّد وأبي بكر الزعيم الثَّالث للمسلمين.

إنَّ عمر الذي كان خصماً شرساً لمحمَّد حتى ذلك الوقت، يمكن عدّه قد اعتنق الإسلام بعد الهجرة إلى الحبشة في عام 617 أو 616، ويبدو أنَّ اعتناق حمزة للإسلام لم يحدث قبل ذلك أو بعده كثيراً، وليس من الضروريّ

(1) عبيد الله بن جحش: أحد الذين هاجروا إلى الحبشة، وهناك تنصَّر واعتنق المسيحيَّة. زوجته كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان.

أن نولي أهميَّة كبيرة لتفاصيل التحولات المذكورة في التراث الحديث؛ إذ إنَّ الجهد هنا ينصبّ على تصوير اعتناق حمزة للإسلام بعدّه عملاً فورياً من أعمال الوحي الإلهيّ، وقد أسهم اعتناق عمر للإسلام في نجاحه من خلال ظهوره بجرأة أكبر في مكّة من ذي قبل، وكانتْ صلاة الجماعة للمؤمنين تقام لفترة من الزَّمن في بيت أحد أتباعه، ومع ذلك أقنع عمر النبيّ ونحو أربعين من أنصاره (الذين بقوا بعد الهجرة) بأداء صلاتهم علانية أمام الكعبة، وزاد الغضب عندما فشلت كلّ المحاولات في إقناع أبي طالب وعائلته بالتوقف عن حماية محمَّد حتماً.

وقد انضمَّت إلى المقاطعة كلّ قبائل قريش الأخرى، وكانتْ هناك مجموعات صغيرة لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وهم الذين بقوا في مكّة، وظلّوا موالين لمحمَّد؛ أي رفضوا صراحة قطع أيّ علاقة مع محمَّد، ولا سيّما بنو هاشم والمطلب، الذين كانوا على صلة وثيقة به، ويقال إنَّ أبا لهب كان معفىً من هذه المقاطعة، فطردوا قريش، المؤمنين كانوا أو كفاراً، واستقروا في حي يقع على أطراف الوادي الرئيس. وقد طُرِدوا دون إراقة دماء، أو الحاجة إلى تطبيق أيّ قانون مرعب للثأر، ومع ذلك واجهوا حالة حرب مؤلمة للغاية، وكان من الصعب عليهم تأمين ضروريّات حياتهم الأساسيَّة لأنَّ قريشاً كانتْ تسيطر على التجارة وطرق التجارة، ولم يكن الاتّصال الحرّ ممكناً إلّا في موسم الحج، ومع ذلك فقد كان من بين أهل قريش من أدرك أنَّ الطرد الكامل أو الإبادة الكاملة لهذه الأسر الكريمة سوف يضرّ الجميع، أو أولئك الذين لم يعودوا يرغبون في مشاهدة معاناة المنفيين، بسبب الصداقة أو الروابط العائليَّة، فلم

يعد من الضروريّ الاستمرار في معاقبتهم.

ولقد بدأ بعض الناس يسلمونهم الطعام سرّاً، مع تزايد تعاطف الحزب مع المنبوذين مع تفاقم معاناتهم، ممّا أدّى أخيراً بعد عامين أو ثلاثة إلى إلغاء القرار، ولكنّ محمّداً لم ينجُ من هذه الكارثة إلّا بعد بضعة أشهر فقط حين فقد حبيبته خديجة وعمه الشيخ أبي طالب، الذي كان يؤيده دائماً، ولكنّه في النهاية رفض قبول دينه، وهو على فراش الموت، ومع أنّ أبا لهب، الذي أصبح الآن عدوّه الطبيعيّ، عرض عليه الحماية، إلّا أنّ محمّداً لم يستطع أن يستمرّ طويلاً تحت حماية هذا الخصم الشرس لدينه، فسارع أبو لهب إلى التخلي عنه علناً، وربّما تدهورت ثروة خديجة، بسبب الاضطرابات الأخيرة: على الأقلّ يبدو أنّ محمّداً كان فقيراً نسبيّاً قبل فراره إلى المدينة، وقد أثّرت هذه الضربات فيه بشدّة، ومن المؤكّد أنّ عدد أتباعه لم يتزايد لفترة طويلة، بل تناقص، بسبب الظروف غير المواتية.

إنّ هناك أفراداً مترددين لم يروا بعد ثواب المؤمنين وعقاب أعداء الله حتماً، حيث تركوا الإيمان مرّة أخرى، لذلك بدأ محمّد يفكر على نحو متزايد في ترك وطنه الكافر وتسليمه لمصيره، باحثاً عن أرض أكثر تقبلاً لقبول دعوته، وأكبر مكان إلى مكّة وأقربه هو الطائف؛ شرق مكّة على حدود الهضبة الداخليّة (نجد)، والمعروفة بالخصوبة الوفيرة في محيطها، كان سكّان الطائف، المعروفون باسم ثقيف، على صلة وثيقة بأهل مكّة، لكنّهم كانوا يغارون منهم.

ذهب محمّد، بمفرده أو برفقة ابنه بالتبني زيد، إلى الطائف، لكنّ إقامته

هناك لعدة أيام أقنعته بأنّه لا توجد إرادة أو أمل بين أهلها في تبني رسالته مقارنة بمكّة، وفي الواقع كان عليه أن يكونَ حذراً من مثيري الشغب، الذين لم يكنْ لديهم حاجة إلى إظهار أيّ احترام للغريب، لدرجة أنّهم كادوا أن يقتلوه، فقرَّر العودة إلى مكّة، وعند عودته من الطائف قيل إنَّ محمَّداً رأى رؤيا حيث اعترف عدد من الجن بأنّه نبيّ[1]، لكنَّ الناس رفضوا ذلك، وقرروا إخراجه (سورة 72)، لم يتمكَّنْ محمَّد من العودة إلى مكّة حتى حماه شخص محترم من قريش، واستعمله، وقد آوى محمَّداً مطعم بن عدي بعد أن رفض اثنان آخران حمايته.

ويبدو أنَّ هذا الوقت هو وقت الحلم الذي عرج فيه بالنبيّ إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات، الذي ذكرته بعض الإشارات في القرآن، ولم يكنْ محمَّد يفتقر إلى الأحلام والرؤى المشابهة، ولكنَّ رغبته الشخصيَّة في تصوير كلّ الأخيلة حول الحياة الآخرة في قصة واحدة توسَّعت في هذا الحلم فيما بعد إلى حد بعيد، إلَّا أنَّ الوصف هذه المرَّة كان مبالغاً فيه دون أن يكونَ مؤثّراً في الوقت نفسه، وكان سخيفاً للغاية، ولم يتوقَّف الضحك عند سماع قصة ما قبل النوم عن هذه التجربة، حتى إنَّ المؤمنين الذين كانوا من أتباعه لم يتمكّنوا من السيطرة على ضحكهم، لكنَّ إيمان أبي بكر لم يتزعزع مطلقاً، فبعد فترة قصيرة من عودته من الطائف، تزوَّج محمَّد سودة؛ أرملة أحد المؤمنين الذي توفي في الحبشة، لتكون بديلاً عن خديجة.

(1) سورة الجن: { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا }.

لقد فقد محمَّد كلَّ أمل في الحفاظ على قبضته على مكَّة، ورفضته قريش أيضاً، وتوجَّه محمَّد إلى قبائل عربيَّة مختلفة في أثناء موسم الحج دون جدوى، وقد استمعوا إليه بفضول، لكن دون أن يترك أثراً أعمق، وإن كان بعضهم قد زعم فيما بعد أنَّهم اعتنقوا الإسلام في ذلك الوقت، ولكنَّ محمَّداً وجد في النهاية ما كان يبحث عنه، فقد سمعه عدد قليل من الحجاج من يثرب؛ المدينة المنورة. كانتْ مدينة يثرب، المعروفة بوفرة التمور فيها، مأهولة بقبيلتي الأوس والخزرج، اللتين هاجرتا من الجنوب منذ قرون، واستولتا على الأرض من اليهود، ومع ذلك ظلَّتْ القبائل اليهوديَّة مستقلة ونافذة، وكانتْ قبيلتا الأوس والخزرج قويتين ومنخرطتين بنشاط في صراعات دمويَّة، توقفت الآن بفضل هدنة مقبولة، ومن خلال التفاعل المستمرّ مع اليهود بدأ أهل يثرب يتعرفون إلى مفاهيم الوحي والنبوَّة وكلمة الله، التي بدتْ سخيفة لأهل مكَّة، وحين وجد اليهود أنفسهم في موقف صعب، كانوا يهددون أعداءهم بقدوم المسيح الوشيك، ولم يكنْ من المستبعد أن يعتقدوا أنَّ محمَّداً هو هذا المسيح[1] المنتظر.

فاز محمَّد بقلوب الناس، وعند عودتهم من الحج التالي نشروا خبر النبيّ وتعاليمه، وفي الحج التالي التزم اثنا عشر رجلاً من يثرب بالمبادئ الأساسيَّة

(1) ذكر جوستاف وايل في كتابه «النبيّ محمَّد: حياته وعقيدته»، ص 7: «أنَّ سكان المدينة كانوا يتوقعون ظهور نبيّ جديد منذ وقت طويل، نتيجة تفاعلهم مع القبائل اليهوديَّة التي كانت تعيش بينهم وتتوقع ظهور مسيحها. بالإضافة إلى ذلك، كانت المدينة، التي تشعر بالغيرة من مكانة مكَّة، تأمل في تحقيق الهيمنة من خلال محمَّد ودينه».

للإسلام، وأرسل محمَّد أحد أتباعه الشجعان؛ مصعب بن عمير، الذي كان قد عاد مؤخراً من الحبشة، إلى يثرب بوصفه معلماً دينيّاً وقارئاً للقرآن، وانتشر الإسلام بينهم بسرعة على الرَّغم من وجود قبائل معادية حتماً.

ولكنَّ محمَّداً كان محظوظاً، ولا سيَّما أنَّ بعضاً من أكثر الرجال احتراماً كانوا قد انضموا إليه مؤخراً، مثل الشيخ الشجاع سعد بن معاذ، وقد اجتذبوا إليه أسرهم كلّها بفضل شرفهم، وكان التأثير المعنويّ والروحيّ لزعيم القبيلة كبيراً جداً بين العرب، وكان مصعب يؤم الناس في الصلاة العامّة، وكان عليه أن يفعل ذلك لأنَّ أيّاً من القبائل المتنافسة لم تكنْ لتتسامح مع الصلاة واتّباع إمام ينتمي إلى القبيلة المعارضة. وفي موسم الحج التالي عقد محمَّد اتفاقاً مع ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، تعهدوا بحمايته بعدّه واحداً منهم إذا جاء إلى يثرب، وعيَّن محمَّد اثني عشر زعيماً؛ تسعة من قبيلة الخزرج الأكبر وثلاثة من قبيلة الأوس، ومع أنَّ هذا الاتفاق وُقِّع سرَّاً في الليل خارج المدينة، على تلال العقبة، فقد لاحظ بعض أهل قريش أنَّ محمَّداً كان يخطط لخطط سرّيَّة، فبدؤوا بالتحقيق، وألقوا القبض على أحد القادة الاثني عشر الذين وقعوا الاتفاق، وتعرَّض لاعتداء جسديّ، وكان وضعه ليصبح أسوأ لو لم يلجأ إلى طلب المساعدة من صديق قديم وفي النهاية إطلاق سراحه.

القسمُ الثّالث

من الهجرة إلى غزوة أحد

لقد طلب محمَّد من أصحابه الآن أن يفروا إلى يثرب المدينة، وقد شقَّ معظم المؤمنين الذين لم تمنعهم أسرهم أو سادتهم طريقهم إلى هناك خلال الأشهر التالية، بمن فيهم عمر، وقد قُدِّر عدد الرجال الذين هاجروا في ذلك الوقت بنحو مئة رجل، وكان هناك عدد كبير من النساء والأطفال أيضاً، وإن كان بعضهم قد بقي مع عائلاتهم، وبالإضافة إلى أولئك الذين اعتقلوا قسراً، بقي بعض الناس في مكّة، وكانوا نصف مؤمنين تقريباً، لكنَّهم لم يكونوا على استعداد لترك ممتلكاتهم، وقد استقبل المهاجرون، الذين لم يحملوا معهم سوى القليل من الثروة المهمة، بحرارة من قبل سكان يثرب، الذين أظهروا لهم الضيافة والحماية، ورحَّب بهم أهل يثرب بفرح كبير. كانتْ معيشتهم في البداية تعتمد إلى حدّ بعيد على كرم أهل يثرب، على الرَّغم من حقيقة أنَّه في شبه الجزيرة العربيَّة لا يتطلَّب

الأمر الكثير لإطعام شخص واحد[1]. أُخضِعَ أحد الهاربين يُدْعَى عياش بوساطة الأعمام أبي جهل والحارث، وأُعِيدا إلى مكَّة باستخدام وعود كاذبة، واُحْتُجِز عياش هناك حتى تمكَّن أحد المسلمين من تحريره عياش [2] مرَّة أخرى، بقي الآخرون في سلام في وطنهم الجديد، وفي النهاية بقي محمَّد وأبو بكر مع أسرهما فقط، وكان هناك عضو صغير في عائلة محمَّد يُدْعَى علي، الذي كبر الآن، بعد أن غادر جميع أتباعه الملتزمين، لم يكنْ لدى محمَّد سبب للقلق، لكن كان لديه سبب قويّ للانتظار حتى يكون جميع اللاجئين في أمان [3].

(1) مارجوليوث، في كتابه محمَّد وظهور الإسلام (الصفحات 238–236)، وصف الظروف القاسية التي عاشها النبيّ وأصحابه بعد الهجرة إلى المدينة. استُنفدت الموارد سريعاً، وكان المهاجرون يفتقرون إلى الطعام والملابس، يتقاسمون تمرة واحدة يومياً ولباساً واحداً لكلّ اثنين. ورغم هذه المعاناة، شارك النبيُّ أصحابه، ورفض استخدام الصدقات لتلبية احتياجاته الشخصية، حتى أنَّ وجهه بدا شاحباً من الجوع أحياناً. عمل المهاجرون في الأعمال الشاقة، كريّ النخيل وجلب الماء، وانخرطوا في التجارة البسيطة. باع أبو بكر الملابس، واشترى عثمان التمر وباعه بسعر أعلى، بينما عمل عبد الرحمن بن عوف بائعاً للحليب. عُرف بعضهم بـ«التجار المتجولين»، وهو الاسم الذي غيَّره النبيُّ إلى «التجار». أثَّرت أوامر النبيّ، مثل حظر الإخصاب الاصطناعيّ للنخيل ومنع القروض على المنتجات، على زراعة التمور، مما أدَّى إلى نقص الإمدادات. عانت ابنته فاطمة أيضاً من ظروف صعبة بعد زواجها. ورغم ذلك، ظلَّ النبيُّ مثالاً للصبر، يقاسم أصحابه المعاناة ويشاركهم ما لديه.

(2) ذكرت كتب السيرة قصة عياش بن أبي ربيعة.

(3) يذكر كايتاني في كتابه «حوليات الإسلام» المجلد الأوَّل، ص 261: «أنَّ محمَّداً بقي في مكَّة لتوجيه هجرة أتباعه، وربَّما لتشجيعهم بضرب المثل، ومع ذلك، وعلى الرَّغم من الخطر الكبير، فإنَّ الرواية الإسلاميَّة تنسب إقامة محمَّد إلى الإرادة الإلهيَّة، التي ستخبره بتوقيت رحيله قبل تلقي الأمر بمغادرة مكَّة».

أعطى محمَّد في النهاية إشارة لصديقه المخلص أبي بكر للبدء في الرحلة التي كان يخطِّط لها منذ وقت طويل بتكاليف كبيرة، ولتجنب لفت الانتباه من قبل قريش، الذين قد يحاولون منعهما[1] في اللحظات الأخيرة، قاما بالتوجه جنوباً أوّلاً، وقضيا ثلاثة أيام يتلقون الطعام سرَّاً في الغار، السورة 9، 40 [2].

وأخيراً انطلقوا واتَّجهوا نحو يثرب مع مرشد بدوي استأجره أبو بكر، ومعهم ما تبقى من الثروة التي كانتْ تتراوح بين 5000 و 6000 درهم معْ أنَّها لم تعد ذات أهميَّة [3].

أمَّا عليّ، الذي تركه محمَّد لتنظيم شؤونه الأخيرة، فقد سارع إلى اصطحاب عوائل أبي بكر ومحمَّد دون أيّ عناء، وبعد ثلاثة أشهر من معاهدة العقبة في صيف عام 622، وصل المسلمون إلى قباء، التي لا تبعد كثيراً عن يثرب، بعد أن

(1) المصدر نفسه أعلاه قال كايتاني: «إنَّ الموقفَ الحقيقيَّ الذي اتخذته قريش تجاه المهاجرين المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة واضح من الروايات، وإن حاول الرواة اللاحقون إعادة صياغته على نحو مصطنع، لم تفعل قريش شيئاً لوقف هجرة المسلمين، كان عدد المهاجرين قليلاً جداً، بصعوبة يُلاحَظ في عدد سكان مكَّة، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ رحيل العناصر المعادية للعبادة الشركيَّة وآلهة قريش كان موضع ترحيب».

(2) سورة التوبة: { إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }.

(3) انظر كايتاني: «اختار محمَّد أبا بكر، الذي كان أغنى أصحابه المسلمين، ليكون رفيقه في رحلة الهجرة. يُقال إنَّ أبا بكر امتلك رأس مال يُقدَّر بأربعين ألف درهم منذ إسلامه.

انتظرهم المسلمون بصبر نافد، وبمرور الوقت أصبحت تعرف باسم المدينة، ثم أصبحت تعرف في النهاية باسم المدينة المنورة فقط، وقد كان هذا إيذاناً بالهجرة، التي يعدّها المسلمون بدايةَ التقويم الإسلاميّ وأوّل سنة من السنة الهجريَّة، ولا تبدأ السنة من تاريخ الوصول إلى المدينة المنورة، بل من بداية شهر عربيّ؛ محرم، ومن المؤسف أنَّ هذا العصرَ قد تأسَّس بعد عدّة سنوات من وفاة محمَّد، ولو كان هذا العصر أو أيّ عصر ثابت آخر قد استُخدم لكان تسلسل الأحداث في هذه الفترة الأخيرة خلال حياته أكثر غموضاً ممَّا هو عليه الآن، ولكن مع هذه الهجرة ندخل منطقة تاريخيَّة أكثر أمناً، في المدينة المنورة.

فكلّ ما فعله محمَّد وقاله كان موضع ملاحظة وتذكر من قبل كثير من الصحابة المتحمسين، والأهمّ من ذلك أنّه بدأ أو بادر بكثير من المهام، التي أظهرتْ فوراً أهميتها الكبيرة، ممَّا جعلها لا تُنسى، على عكس الأحداث الفرديَّة في رحلته النبويَّة المكيَّة.

باختصار، منذ لحظة الهجرة، نعرف تفاصيل أكثر بكثير عن حياته من ذي قبل، نحن نعرف أدق تفاصيل بعض الأحداث، كان الفارق بين موقف محمَّد الآن وموقفه السابق هائلاً، لم يكنْ لديه سوى عدد قليل من الأتباع المخلصين، وكان يُعَدُّ مجنوناً أو دجالاً في مكَّة عموماً.

فجأة، أصبح الزعيم الدينيّ والسياسيّ لقبيلتين متحاربتين، وكان أهل المدينة المنورة مسرورين حقَّاً لأنَّه تمكَّن من إخماد الصراع الذي كان ما يزال مشتعلاً سراً بينهما، بطبيعة الحال، كانتْ سلطته بوصفه زعيماً عربيّاً «سيّداً»

مجرَّد سلطة أخلاقيَّة، خالية من أيّ سلطة قانونيَّة محدَّدة، ومع مرور الوقت اكتسب النفوذ الدينيّ قوَّة هائلة، وتمكَّن من فرض الطاعة المطلقة تقريباً ليس على جميع المهاجرين فحسب، بل على جزء كبير من سكان المدينة المعروفين بالأنصار أيضاً، كان يتمتع بأعلى سلطة بعدّه حاكماً وقاضياً ومشرّعاً.

اعتمد القانون المدنيّ والجنائيّ للمسلمين إلى حد بعيد على الأحكام القضائيَّة والقوانين المذكورة في القرآن أو الأحاديث النبويَّة خلال فترة وجوده في المدينة، ومع أنَّ بعض سكان المدينة ظلّوا مخلصين لعبادة الأصنام لفترة طويلة بعد وصوله، متأثرين بالشاعر أبو قيس بن الأسلت[1]، إلاَّ أنهَّم استمرّوا في الابتعاد عن الإسلام لسنوات عديدة، ومع ذلك لم يشكّلْ عبدة

(1) ورد في مصادر السيرة أنَّه لم يكن هناك أحد من الأوس والخزرج أعلم بالدين الحنيف من أبي قيس بن الأسلت. وكان يردد أنَّه لا أحد على دين إبراهيم إلا هو وزيد بن عمرو. ومن أشعاره التي تنسب إليه، قال:

يا راكباً إما بلغت فبلغن ... مغلغلة عني لؤي بن غالب
أقيموا لنا ديناً حنيفاً فأنتم ... لنا قادة، قد يقتدى بالذوائب

وقال:

فيا رب العباد غله موسى ... تلاف الصعب منا بالذلول
ويا رب العباد إذا ضللنا ... فيسرنا لمعروف السبيل
فلولا ربنا كنا يهوداً ... وما دين اليهود بذي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنا خلقنا إذ خلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل جيل

الأصنام، أو بالأحرى معارضو الإسلام، مجموعة موحدة للوقوف ضده، إضافة إلى ذلك، لم تكن الحماسة الدينيَّة قويَّة بما يكفي لدفعهم لمواجهة رفاق قبيلتهم، الذين نجحوا تحت قيادة محمَّد، وكانت شهرتهم مرادفة لشهرته، وفي أوقات وظروف معينة، سمحت لهم الروابط السياسيَّة الضعيفة بالانضمام إلى مبادرات محمَّد ومشاريعه، مع أنَّهم لم يعترفوا به زعيماً لهم، وحين كانت الأمور أقلّ حظاً لمحمَّد، كان من الضروريّ ألا يؤيده جميع سكان المدينة، حيث كانت مجموعة كبيرة من «المنافقين» ستتخلَّى عنه ببساطة، هؤلاء كانوا أفراداً يتظاهرون بإيمان فاتر، لكنَّ إيمانهم لم يمتد إلى تحمل الاضطهاد والتضحية في سبيل الله أو مواجهة التحديات الكبرى.

في مقدّمة هؤلاء المشككين المنافقين كان عبد الله بن أبي سلول[1]، وهو رجل معروف حتى قبل وصول محمَّد، وكان من أنبل الرجال في قبيلة الخزرج، رجل ذو شخصيَّة نبيلة، فقد تدريجيَّاً النفوذ الذي كان يتمتع به بين جميع أفراد قبيلته في مواجهة الغريب الذي لم يستطع أن يؤمن به، على الرَّغم من إظهاره اللطف والكرم في البداية، ومع ذلك، فقد كان يتمتع بمستوى من الاحترام الذي منع كثيراً من أفراد قبيلته من انتقاد أفعاله، كان أيّ تعليق سلبيّ أو غير

(1) قال ابن هشام في كتابه السيرة النبويَّة، الجزء الثاني، صفحة 423: «إنَّه نقل عن ابن إسحاق نبذة من ذكر المنافقين: «قدم رسول الله (ﷺ) المدينة - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة - وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول العوفي. فأمَّا عبد الله بن أبي، فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ملكاً، ثم يملكوه عليهم. فجاءهم الله تعالى برسوله (ﷺ) وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أنَّ رسول الله (ﷺ) قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً، مصراً على نفاق وضغن».

سار على النبيّ يشعره بعدم الارتياح بسبب الانتقادات، واضطرَّ محمَّد إلى التعامل مع هؤلاء المنافقين، ولا سيَّما عبد الله، بحذر ويقظة شديدة، ويتحدَّث القرآن عنهم بوجهٍ عام وبتعبيرات الغضب تجاههم أحياناً.

ولما دخل المدينة سارع محمَّد إلى وضع حجر الأساس لمسجد، فاستقبلته المدينة بحفاوة، وسارعت كثير من الأسر إلى دعوته للإقامة معها، ولكيلا يسيء إلى أحد، ترك القرار للصدفة، أو كما قال: حيث يحمله الجمل «للقدر الإلهيّ» وانتهى به الأمر إلى الاستقرار أمام بيت أبي أيوب الأنصاريّ، الذي فتح له فوراً جزءاً من بيته، وظلَّ يعيش هناك حتى بُنِي بيت منفصل، أو بالأحرى بيت متواضع لزوجه سودة، يشبه بيوتاً أفقر سكان المدينة، وكان همه الآتي هو بناء مسجد كبير، وقد اشْتُرِي موقع قريب، وشُيِّد مبنى كبير وفخم نسبيَّاً، بالنظر إلى أحوال العرب البسيطة في ذلك الوقت، وقد خصص المسجد للصلاة اليوميَّة، وكذلك صلاة الجماعة التي تقام يوم الجمعة، وخلال الأشهر الأولى ظلَّ محمَّد مسالماً في المدينة، وكان أمامه الكثير من العمل في إرساء الأسس الأوليَّة، وبناء المجتمع، وحلّ النزاعات الداخليَّة بين القبائل، ورغم معتقدات العرب، فقد قرَّر أنَّه لا يجوز قتل مؤمن بقتل كافر.

ومن أجل مساعدة المحتاجين والمرضى وتخفيف معاناتهم من حرارة الجو في المدينة وحنينهم إلى وطنهم، نظم نظاماً للمساعدات المتبادلة والرعاية الاجتماعيَّة، وأقام علاقات دبلوماسيَّة مع القبائل الأخرى في المنطقة والدول المجاورة، وأبرم اتفاقيات ومعاهدات لضمان السلام والتعايش، ولتوفير الأمن

للمهاجرين المضطهدين أقام تحالفاً أخوياً وثيقاً بين مهاجر وأحد سكان المدينة، إلى الحدّ الذي عدّهما فيه إخوة، وفوق كلّ ذلك سعى محمَّد إلى إقامة علاقة وثيقة مع اليهود[1]. وكان يعقد عليهم آمالًا كبيرة، لأنّه كان يعتقد أنَّ دينهم يشبه الإسلام في الأساس، ولذلك يجب عليهم أن يعترفوا به رسولاً ونبيّاً، ولكسب ثقتهم أكثر، تبنى محمَّد بعض شعائرهم الدينيَّة، مثل صيام يوم الغفران كتكفير للذنوب، وتوجيه الصلاة إلى القدس بدلاً من الكعبة كما كان يفعل من قبل، وزار الكنيسة اليهوديَّة «بيت همدراش» واجتمع مع الحاخامات هناك، بالإضافة إلى ذلك أبرم اتفاقات سلام وصداقة مع مختلف القبائل اليهوديَّة، ومع ذلك، كان يأمل أن يتمكَّن من تحويل اليهود، ومع أنَّهم امتلكوا معرفة محدودة بالأدب اليهوديّ، إلَّا أنَّهم بسهولة رأوا الفرق العميق بين إيمانهم وإيمان محمَّد.

السؤال الوحيد الذي أخذ بالحسبان هنا هو إذا ما كان محمَّد هو المسيح الذي تبشر به اليهوديَّة[2]، ويتعذر الإجابة عنه إلا بالنفي حتى من قبل اليهود

(1) ذكر جوستاف وايل في كتابه «النبيّ محمَّد: حياته ومذهبه»، ص 8، أنَّ محمَّداً سعى إلى كسب ودّ اليهود المحليين من خلال تقديم تنازلات دينيَّة، حيث عيَّن القدس قبلة للصلاة، وجعل اليوم العاشر من الشهر الأوَّل يوماً للصيام، وسمح للمتحولين إلى الإسلام بممارسة شعائرهم اليهوديَّة. ومع ذلك، عندما فشلت جهوده في إقناع اليهود برسالته، تصاعدت العلاقة إلى عداوة، فقام بتحويل القبلة من القدس إلى مكَّة، وحدَّد شهر رمضان للصيام، وجعل يوم الجمعة يوماً مقدساً للمسلمين.

(2) ذكر دوزي في «مقالة في تاريخ الإسلام»، ص 62، أنَّ محمَّداً أبدى تسامحاً كبيراً مع اليهود في بداية دعوته، فأشار إلى كتبهم المقدَّسة، وأعيادهم، وشعائرهم، وجعل بيت المقدس قبلتهم، وصام يوم الكفارة مثلهم، وأكَّد لهم حرية العبادة وحماية ممتلكاتهم. في البداية، كانت العلاقة ودية، حيث زار المسلمون معابدهم، وزار

الأكثر جهلاً، ولذلك كانوا في البداية مترددين وسرعان ما أظهروا عداءً مفتوحاً تجاه النبيّ الذي نشأ من بين الوثنيين، قليل جداً من اليهود استبدلوا الإسلام بإيمان آبائهم، ومن بينهم بعض المتحمسين الكاذبين، الذين ينتجون الكثير من الأساطير والأكاذيب[1] حول العهد القديم، وكلّ ما يتعلق بالثقافة اليهوديّة المتداولة بين المسلمين، وبعد ذلك تعرَّض محمَّد للعديد من الأسئلة والتعليقات الحادة والخبيثة من اليهود، الذين لم يروا فيه رجلاً غير مدرّب على الصراعات والمناظرات أو حتى شخصاً يعرف شيئاً سوى بعض التهديدات العنيفة بالعقاب الإلهيّ، وتعرَّض أسلافهم العنيدون مرَّات عديدة.

ومن بين الترتيبات التي تمّت في هذا الوقت فيما يتعلّق بالعبادة ترتيب الأذان، الذي تقرَّر بعد نقاش طويل بدلاً من الأجراس التي أدخلها المسيحيون، والأبواق اليهوديّة[2]. ومنذ ذلك الحين كان بلال يدعو المؤمنين إلى الصلاة خمس

اليهود المسجد. لكن رفض اليهود الاعتراف بمحمَّد نبيّاً مذكوراً في كتبهم المقدَّسة أدى إلى تصاعد التوتر بين الطرفين. ووصف محمَّد عنادهم بأنّه امتداد لسلوك أجدادهم الذين اشتكوا من موسى ورفضوا الأنبياء والمسيح.

(1) ذكر ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (ج 1، ص 528) أنَّ من أبرز الشخصيات التي نقلت الروايات الإسرائيليّة عبد الله بن سلام، الذي أسلم عند وصول النبيّ إلى المدينة، والتابعيّ كعب الأحبار، ووهب بن منبه. كما أشار إلى أنَّ بعض أحبار يهود بني قينقاع دخلوا الإسلام ظاهرياً وهم منافقون، مثل سعد بن حنيف، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، وزيد بن الليث. وقد عُرف زيد بمقولته عندما ضلت ناقة النبيّ: «يزعم محمَّد أنّه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته».

(2) ذكر كوسيان دي برسيفال في «مقالة عن التاريخ العربيّ قبل الإسلام» أنَّ النبيّ محمَّداً أدخل الأذان كوسيلة لإعلان أوقات الصلاة، بعد أن فكَّر في استخدام البوق اليهوديّ

مرات في اليوم من أعلى سطح المسجد.

وبعد ستة أشهر من الإقامة تزوَّج عائشة؛ ابنة أبي بكر ذات تسع السنوات، التي كانت قد استحوذت على اهتمام النبيّ المسن على نحو ملحوظ، وكان هذا الزواج بمكانة بداية فترة جديدة، غير ممتعة تماماً في حياة محمَّد المنزليَّة، فبعدّه رجلاً في الخمسينيات من عمره، وله أكثر من زوجة، أصبح مولعاً بالنساء على نحو متزايد، وزاد عدد زوجاته، ولكلّ منهن منزلها الخاص، جزئيّاً لأسباب سياسيَّة حتماً. وأدَّت مشاجرات النساء والحوادث المؤسفة دوراً مهمّاً في تاريخه، نعم، حتى القرآن يذكر هذا هنا وهناك، وبعد أن نظَّم محمَّد شؤونه الداخليَّة إلى حد ما تحوَّل تركيزه إلى الشؤون الخارجيَّة حتماً، وكان هدفه الأساسيّ هو غزو أهل مكَّة وإخضاعهم وفتح الكعبة للمؤمنين، ولأنَّه لم يكنْ يقود جيشاً منظماً جيداً، فقد اضطرَّ إلى اللجوء إلى تكتيكات غير تقليديَّة لإلحاق أكبر قدر ممكن من الضرر بهم من أجل إجبارهم على الاستسلام، وقد وفرت له تجارة قريش الواسعة الفرصة المرغوبة للقيام بذلك، فقد أُوقِفت كلّ قافلة متجهة إلى سوريا أو قادمة منها،

ثم الجرس المسيحيّ. اقترح عبد الله بن زيد صيغة الأذان، التي رآها في المنام، ووافق النبيّ على استخدامها، وعهد إلى بلال، الذي كان يتمتع بصوت قوي، بمهمة الأذان. يقول بلال: «الله أكبر! أشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً رسول الله»، بعد اعتماد الأذان، تغيَّرت القبلة من القدس إلى الكعبة في شهر شعبان سنة 623م، وهو ما أكسب مسجد المدينة اسم «مسجد القبلتين». تبع ذلك فرض صيام شهر رمضان والزكاة، التي كانت تهدف إلى تحقيق التوازن بين الفقراء والأغنياء، حيث يُقدِّم جزء من ثروة المسلمين للنبيّ أو ممثليه لتلبية احتياجات المجتمع والدولة.

واضطرَّت قريش إلى إرسال قوافلها تحت حماية مشدَّدة.

في البداية، لم يتمكَّن محمَّد، الذي كان يقود جيوشه الصغيرة بنفسه في بعض الأحيان، من تحقيق نتائج إيجابيَّة، ولم يواجه الأعداء سوى مرَّتين، وفي كلتا الحالتين كانت تغطية قريش على تجارتهم أقوى من المسلمين، الذين لم يكونوا مدينين بعد، وكانت التزاماتهم تقتصر على الدفاع لا الهجوم، وفي إحدى المرات فُصِلَ بين الأطراف المتحاربة من قبل زعيم بدويّ كان صديقاً لكلا الجانبين، ومع ذلك فقد حَقَّق محمَّد تقدَّماً كبيراً من خلال هذه الإجراءات، حيث تضرَّرت سمعة المكّيين، ورُهِّبوا، ممَّا زاد من قوَّة المسلمين وولائهم لمحمَّد، وتمكَّن من جذب كثير من المؤمنين من مكَّة والمدينة ومناطق أخرى، والآن لديه قاعدة عسكريَّة أقوى يمكنها مواجهة التحديات المستقبليَّة.

ولقد أصبحت الطرق غير آمنة بالنسبة إلى قريش، وتعطلت تجارتهم، فضلاً عن ذلك بذل محمَّد كلّ جهد ممكن لإقامة معاهدات الحياد والصداقة مع مختلف القبائل البدويَّة، وبذلك تأمين طرقهم في المستقبل، وفي كلّ هذه الالتزامات أظهر محمَّد ومستشاروه حكمة عظيمة، ففي إحدى المناسبات قاد محمَّد بنفسه حملة مطاردة فاشلة ضدّ بدويّ[1]، نهب قطعان المدينة ومواشيها، ممَّا يشير إلى عدم الاستقرار وانعدام الأمن في الوضع العربيّ، وسرعان ما

(1) هذا الشخص الذي ينتمي إلى قبيلة مرتبطة بقريش، وربَّما يكون قد حرض من قريش، وبعد ذلك أصبح مؤمناً ومحارباً لمدَّة سبع سنوات، وكان من القلائل الذين سقطوا في أثناء فتح مكَّة (المؤلف).

اكتسبت سياسة محمَّد زخماً، فهو لم يكنْ يريد جعل طريق القوافل إلى الشام غير آمن فحسب، بل كان يريد قطع إمدادات المكّيّين من الشرق أيضاً، حيث كانت معظم الحبوب تأتي من «جامة»[1].

أخذتْ مجموعة مكوَّنة من 8 رجال بقيادة عبد الله بن جحش تهاجم قافلة تسافر من دون غطاء حماية في مكان يدعى «نخلة» بين مكَّة والطائف، خلال ذلك قُتِل أحد أهالي مكَّة يدعى عمرو بن الحضرمي، واعتقل اثنان آخران، لكن ما كان أشد فظاعة من الدماء التي سالت أنَّها كانت بمكانة محفز ضروريّ لصراع آخر، وقد وقعت هذه المعركة في شهر رجب الحرام، وهو الشهر الذي كان العرب القدماء يعدّونه أخطر الجرائم التي يمكن أن ترتكب أثناءه.

ولم يلغِ محمَّد حرمة الشهر، وخدع الذين اعتدوا عليه بسمعة المسلمين المسالمين، حتى إنَّ أحدهم كان يرتدي زيّ الحجاج، وفي البداية أنكر محمَّد تورطه في هذا الانتهاك المقدَّس، احتراماً لآراء العرب القدماء، لكن فيما بعد ظهرتْ آية قرآنيَّة تسوّغ هذا الفعل رغم استنكاره له، بعدّه ردَّاً على عناد المشركين وكفرهم، ثم وزَّع محمَّد الغنائم على المشاركين في الهجوم، وأطلق سراح أحد الأسرى مقابل فدية، بينما اعتنق الآخر الإسلام، وظلَّ وفياً ومقاتلاً في سبيل الدين حتى وفاته بعد عدة سنوات.

في التاسع من الشهر الثاني من التقويم الهجريّ (بداية عام 624)،

(1) الحمامة كانت قرية فلسطينية تقع إلى الغرب من مدينة بئر السبع.

وبعد 18 شهراً من وصولهم إلى المدينة، حدثتْ أوَّل مواجهة عنيفة بين محمَّد وقريش، عادت القافلة التجاريَّة السنويَّة الكبيرة المتجهة إلى الشام بنجاح على الرَّغم من محاولات محمَّد اعتراضها، وكان من المتوقع أن تمرَّ بالقرب من المدينة. كانت القافلة التي قادها أبو سفيان، الذي أصبح فيما بعد زعيم الأسرة الأمويَّة وزعيم مكَّة، ثريَّة للغاية، يقال إنَّها كانتْ تتألف من 30-40 رجلاً و 1000 جمل محمَّلة بالذهب وغيره من السلع الثمينة، أرسل محمَّد اثنين من الكشافة إلى الساحل (غرب المدينة) لإبلاغه بموعد وصول القافلة، إلَّا أنَّ أبا سفيان سمع أنَّ محمَّداً يستعدُّ لنصب كمين لهم، فغيَّر مسار القافلة، واستخدم طرقاً آمنة للعودة إلى مكَّة.

لكن على الحدود السوريَّة استأجر أبو سفيان رجلاً يدعى دمدم بمقابل ماليّ كبير، ليسارع إلى مكَّة قدر المستطاع، ويدعو أهل قريش للخروج مسلحين للدفاع عن ممتلكاتهم، تخيّلوا الرعب الذي أصاب أهل مكَّة حين ظهر هذا الرجل فجأة، وجلس جمله على الساحة أمام الكعبة وأوقفه، ليشير بأنَّه يحمل رسالة رعب، وقلب السرج، وقطع أذن الحيوان وأنفه، ومزَّق ثوبه من الأمام والخلف، وصاح: «يا قريش! محمَّد ورفاقه يترصدون القافلة النجدة! النجدة!» فوراً استعدَّتْ مكَّة كاملة للرحلة، وذلك لأنَّه مع كون الجزء الرئيس من القافلة مملوكاً لعائلات ثريَّة قليلة، إلَّا أنَّ كلَّ فرد من أفراد قريش كان لديه على الأقلّ بعض الثروة وحصة في المشاريع التجاريَّة، ولم يكنْ أحد يريد أن يتركَ الأرباح في أيدي محمَّد وأهل المدينة، أمَّا أولئك الذين لم يتمكَّنوا من الانضمام فقد أرسلوا شخصاً بديلاً نيابة عنهم، وهناك عدم

يقين بشأن إذا ما كان أبو لهب عم محمَّد من مكَّة قد أرسل بديلاً، كان من المعتقد أنَّ أبا لهب قد أعدَّ الجيش لقتال محمَّد، إلَّا أنَّه كشف عن أنَّه لا يريد مواجهته بالقوَّة، ورفض إعداد مقاتل ضدّه، على الرَّغم من كراهيته لمحمَّد وعدائه له، لكونه الأكبر سناً في عائلته والحامي الطبيعيّ لمحمَّد.

في هذه الأثناء، رفض رجل بارز آخر يُدْعَى أميَّة بن خلف المشاركة في الحرب، لكنَّ أبا جهل، أشدّ معارضي النبيّ، هدّده باعتبار أنَّه امرأة إذا لم ينضم، ولم يستطع مقاومة هذه السخرية، وبعد يومين أو ثلاثة اكتملت الاستعدادات، وتخلصوا من الخوف من أنَّ قبيلة بني بكر البدويَّة المجاورة، التي كانت في صراع معهم، قد تستغل غياب الجيش المقاتل لمهاجمة مكَّة بالقتل والنهب، من خلال ضمان تحالف زعيم قويّ عدَّه المسلمون بمنزلة للشيطان.

لم يكن الخطر كبيراً عموماً؛ إذ كان من الصعب على أيّ قبيلة عربيَّة في تلك الفترة أن تجرؤ على غزو حرم مكَّة بالقوَّة، ويذكر أنَّ جيش قريش كان يتألف من 950 رجلاً، منهم 100 على ظهور الخيل و 700 على الإبل، وكانت الإبل، مع جميع الفرسان وبعض المشاة، مدرّعة، ومن بين الخيول لم يكنْ هناك سوى 30 حصاناً تنتمي إلى عائلة مخزوم النافذة في مكَّة، بقيادة أبي جهل في ذلك الوقت، لكن ليس من الواضح إذا ما كان الرقم المذكور يشير إلى حجم الجيش الذي انطلق أو إلى عدد المشاركين في المعركة بعد عودة بعضهم، مع أنَّ الأخير هو الأرجح.

وفي غضون ذلك، رصد الكشافة القافلة المقتربة، وسارعوا لإبلاغ

النبيّ في المدينة، فاستدعى محمَّد أصحابه فوراً، وأدَّت آمال الحصول على الغنائم إلى انضمام مقاتلين إضافيين إلى جانبه إلى حدّ ما، مع أنّه لم يكنْ مستعداً لمعركة فعليَّة، كان عددهم يزيد قليلاً على 300 شخص، إلى جانب حصانين أو ثلاثة وسبعين بعيراً فقط، وكان ربع المجموعة تقريباً من الفارين من مكَّة والبقيَّة من المدينة، على الرَّغم من اعتذار بعض الأفراد لاحقاً، وشعور بعضهم بلا شك بالذنب لعدم المشاركة في هذه الحملة، بسبب عدم توقعهم أنَّها ستكون معركة، مع أنَّه من الممكن أن يكونَ جيش محمَّد أصغر حجماً إذا كان أتباعه قادرين على توقع معركة دامية بدلاً من الغارة.

تحرَّك محمَّد في البداية على طول الطريق الرئيس المؤدي إلى مكَّة باتجاه «الصفراء»، ثم اتَّجه غرباً حيث كان من المتوقَّع أن يكونَ أبو سفيان في تلك المنطقة، بعد ذلك أرسل محمَّد اثنين من الرؤساء الآخرين إلى بدر، التي كانتْ ما تزال مكاناً شهيراً للقوافل، بسبب إمداداتها الوفيرة من المياه والسوق السنويّ الذي يُعقد هناك، عاد الكشافة بأخبار تفيد بأنَّ أبا سفيان كان قريباً[1]. ومع ذلك قاد هذا الرجل الحذر القافلة إلى بدر، وحين لاحظ ببصيرته الخبيرة بقايا الإبل التي يقول السكان المحليون إنَّها كانتْ هناك

(1) دوزي، مقالة في تاريخ الإسلام، ص 65. «فكر محمَّد أنَّه لن يتمكن أبو سفيان من الهروب هذه المرة، فاستعد للهجوم، لكنه أخطأ وأبلغ أبا سفيان عن خططه دون قصد وهو ما يزال على حدود الشام. أرسل محمَّد رسالة فوراً بنيَّة مفاجأة القافلة في محطة بدر المعتادة، لكن أبا سفيان، الذي كان متأهباً عند اقترابه من المدينة المنورة، اكتشف وجود جواسيس، فحوَّل القافلة عن مسارها وواصل السير دون توقف، ليهرب من الخطر بسرعة.

وحده كشافة، أدرك الموقف، وتجنب بدر، وانتقل بسرعة على طول الساحل إلى بر الأمان، ثم أرسل رسولاً إلى الجيش بالخبر يدعوهم إلى العودة، فوصل إليهم هذا النداء في منتصف الطريق بين مكّة والمدينة.

ولقد أراد قسم كبير من أهل مكّة أن يتبعوا نصيحة أبي سفيان بالعودة، فقد خرجوا لحماية أموالهم التي أصبحت الآن في مأمن، فلماذا إذن يستمرّوا في التقدّم للقتال مع أهل المدينة الذين كانوا خبراء في الحرب؟ لم تكن المهمّة سهلة إطلاقاً، فضلاً عن ذلك فإنّ أقاربهم كانوا في صف محمّد، ومع أنّ المسلمين قطعوا كلّ روابط الدم دون ندم، وقاتلوا آباءهم وإخوانهم دون ورع، فإنّ هذه الروابط كانتْ قويّة بين الكفار، وكان من الصعب عليهم أن يقبلوا فكرة عدم الانتقام بالدم من قاتل أحد أقاربهم الذي كان يقاتل في سبيل محمّد، وقد عرضت هذه الأسباب على عتبة على وجه الخصوص، الذي كان يميل دوماً إلى السلام. ولكنّ أبا جهل، الذي كان مدفوعاً بالغيرة العائليّة من عتبة وأخيه شيبة، بقدر ما كان مدفوعاً بكراهية محمّد، دفعهم إلى التقدّم والتحرّك إلى بدر، وكانوا يخيمون هناك لمدة ثلاثة أيام فقط، ويستمتعون، ثم يعودون، وكان يعتقد أنّ هذا من شأنه أن يجلبَ إليهم شهرة كبيرة بين العرب كافّة، وقد حظي هذا الاقتراح، الذي استند بوضوح إلى افتراض مفاده أنّ محمّداً لن يجرؤ على إزعاجهم، في حين أنّه سيكون من العار عليه أن يترك أعداءه يتصرفون بحريّة دون إزعاج في هذه المنطقة، بموافقة الجيش.

ولم يوجه الاتهام إليهم بالجبن باستثناء أولئك الذين فضلوا العودة، ولم

يغادر سرّاً قبل أن يصل إلى المحطة التالية إلّا أسرة زهرة، التي كانتْ تتألّف من مئة فرد أو أقلّ قليلاً، ويقال إنَّ أسرة عدي التي ربَّما كانتْ قليلة العدد انسحبتْ حسب إحدى الروايات، بينما لم تشاركْ حسب روايات أخرى إطلاقاً، ويقال إنَّ طالباً شقيق عليّ وابن عم محمَّد عاد، ولم يكنْ لدى قادة الجيش أيّ وسيلة قهريَّة لإجبار أيّ شخص على المشاركة ضدّ إرادته، وفي غياب السلطة المحترمة، أو الروابط العائليَّة، أو الخوف من العار، كما ذكرنا آنفاً، لم يكنْ هناك أيّ سبيل للتعامل مع إرادة الفرد أو الجنس.

وفي غضون ذلك، عقد محمَّد، الذي سمع باقتراب جيش، اجتماعاً عسكريّاً في الطريق، وألزم أهل المدينة بحماية أراضيهم، ممَّا أثار الشك في استعداد الأعضاء المدنيين لاتباعه في الهجوم، والواقع أنَّ جزءاً كبيراً من الجيش، بعد أن استبدل آمال المواجهة والقتال بآمال الغنائم والمكافآت، فضَّل العودة، كما أشارت إليه الإشارات القرآنيَّة، ولم يكن الصديقان القديمان لمحمَّد أبو بكر وعمر وحدهما ممن يساند هذه الأعمال الشجاعة ويتبعها، بل كان سعد بن معاذ، الذي شهد صراعات داخليَّة بين قبيلتي المدينة، وفي المساء، وصلا إلى بدر، وعرفا تفاصيل عدد العدوّ وموقعه خلف التل من شخصين وقعا في الأسر من قريش في أثناء سحب المياه من آبار بدر، فاحتلَّ محمَّد النبع الرئيس، وأمر بتدمير الآبار الأخرى، فضمن بذلك إمدادات ثابتة من المياه لأتباعه، وحرم قريش منها[1].

(1) دوزي، «مقالة في تاريخ الإسلام، ص 65: «عندما وصل محمَّد إلى بدر، قرَّر إقامة معسكره بالقرب من البئر الأولى. فسأله أحد أصحابه: «يا رسول الله، هل هذا وحي

كان أهل قريش يعانون نقص المياه، فقد هطلت الأمطار بغزارة تلك الليلة، الأمر الذي أفاد محمَّداً؛ إذ جعل الرمال الناعمة صلبة على جانبه، بينما تأثَّر التل، ممَّا جعل من الصعب على قريش التغلب على ثقله، وفي الصباح بنى له بسرعة كوخاً من أغصان الأشجار، رأى العدوّ ينزل على التل الرمليّ الذي يحدّ وادي بدر الواسع (الذي زار بوركهارت المكان مؤخرًا[1] ووصفه إلى الغرب).

نشر محمَّد قوَّاته في تشكيل جيّد التنظيم، ولكنَّه أمرهم بعدم سحب سيوفهم مؤقتاً، لكن للدفاع عن أنفسهم فقط وصدّ الفرسان بالسهام، انتشر فرسان مكَّة في الوادي صعوداً وهبوطاً، معتقدين أنَّ هناك كميناً. أبلغهم زعيمهم عمرو أنَّه لا يوجد أعداء آخرون سوى الجيش المضاد الصغير، وأضاف: «لكن هذا الجيش شجاع وجريء في الموت لدرجة أنَّه من المؤكَّد أنَّه لا يسقط أحد دون أن يقتل رجلاً قبل ذلك، لكن إذا مات ثلاثمئة منَّا، فما قيمة الحياة بعد ذلك؟.

من الله أم اجتهاد منك؟» فأجاب محمَّد: «إنَّه اجتهاد مني». فقال الصحابي: «إذن، الموقع ليس مناسباً. ينبغي أن نتقدَّم ونتحصَّن عند البئر الأخيرة، حتى نحرم العدوّ من الماء». اقتنع محمَّد بهذا الرأي، ونفَّذ الاقتراح فوراً».

(1) جاكوب بوركهارت (1818–1887): مؤرخ سويسري بارز، يُعدّ أحد «آباء تاريخ الفن» وأحد مؤسسي التاريخ الثقافي. أكّد على دور الفن في فهم التاريخ وأهمية الثقافة في دراسة الحضارات. من أبرز أعماله: حضارة عصر النهضة في إيطاليا (1860)، الإغريق والحضارة اليونانية، أحكام حول التاريخ والمؤرخين (1929)، وتأملات في التاريخ (1943).

حاول عتبة مرَّة أخرى لكنَّه استسلم، واجه ابنه أبا حذيفة وجيش محمَّد لمنع القتال مع أقرب أقربائه، ومع ذلك اتَّبع أبو جهل طريقة لا يستطيع أيّ عربيّ شريف مقاومتها، لقد قتل عمرو بن الحضرمي في بستان نخيل، وكان من نسل عتبة، وفقاً للعرف العربيّ، كان بإمكان شقيقه عامر أن يطلبَ من عتبة المساعدة في طلب الثأر أو الدية، ولكنَّ عتبة عرض عليه أن يتحمَّلَ ديَّة القاتل من ماله الخاص تجنباً لسفك الدماء، ولكنَّ أبا جهل شجَّع الرجل على الشكوى بصوت عالٍ، واتَّهم عتبة بعدم مساعدته (بسبب الجبن) في طلب الانتقام، ولم يستطع عتبة أن يتحمَّل هذه الإهانة، وبدأت المعركة.

ولم يكنْ هناك تنظيم عسكريّ واضح، فقد خاض الجيشان معارك عشوائيَّة وفوضويَّة، دون أيّ تكتيكات، مع التركيز على المعارك الفرديَّة على طريقة أسلوب هوميروس، ولم يكنْ للجيشين الفرديين قائد أعلى لكلّ من الجيوش المختلفة، ومع أنَّ كلمة محمَّد كانتْ تعدّ ذات سلطان على المسلمين، إلَّا أنَّه انسحب في بداية المعركة، وعاد إلى خيمته، ومن المؤكَّد أنَّه لا يمكن الحديث عن قيادته وتعليماته مطلقاً. طلبَ عتبة في بداية المعركة مع ابنه الوليد وأخيه شيبة ثلاثة مقاتلين مسلمين للقتال الفرديّ، تطوَّع ثلاثة أشخاص من أهل المدينة أوَّلاً، لكنَّ محمَّداً، الذي ظلَّ عربيَّاً أصيلاً من حيث فخر عائلته، لم يرغب في حرمان عائلته من مثل هذا المجد في هذه المعركة؛ لذلك دخل المعركة عمّه حمزة وابن عمه عليّ، إلى جانب عبيدة بن الحارث من أسرة بني المطلب، الذين كانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بأسرة محمَّد، وانتهت المعركة بموت الكفار الثلاثة وإصابة عبيدة بجروح بالغة، وكان من المفترض أن يؤدّي موت هؤلاء الرجال

البارزين إلى إثارة الذعر والخوف بين قريش، ممَّا يغذي رغبتهم في الانتقام، وبسبب الإهانات العديدة التي تحمّلها أهل مكَّة، بدأ المكّيّون باستهداف أهلهم ومهاجمتهم على نحو خاص، بما في ذلك أولئك الذين لم يقاتلوا بجدية، وكان من بينهم بعض الذين آمنوا برسالة محمَّد لكنَّهم لم يفروا إلى المدينة خوفاً أو حبّاً لممتلكاتهم.

ولكنَّ أغلب قريش الذين اعتادوا على حملات التجارة أكثر من الحياة العسكريَّة خسروا في المعركة، لكن الشرفاء والشجعان منهم أظهروا شجاعتهم من خلال موتهم، ومن بين المسلمين برز حمزة وعليّ على نحو خاص، إذ قيل إنَّ عليّاً قتل اثنين وعشرين عدوّاً بمفرده، وهو أمر مبالغ فيه حتماً،[1] كما هو الحال مع كثير من الزخارف والمبالغات التي استخدمها أنصاره لاحقاً لزيادة شهرة عليّ، وخلال هذا الوقت، كان محمَّد يصلي

(1) نودّ أن نشير هنا، ولو مرّة واحدة، إلى أنَّ اهتمامنا لا ينصبّ على الشعر الذي يتسم بالمبالغة حول عليّ، لكننا سنورد مثالاً واحداً يعكس روح شعره. من بين اللعنات الشائعة في التراث العربي «تراب يديه»، وهو ما جعل معارضو عليّ من الأسرة الأمويَّة يطلقون عليه لقب «أبو التراب» لفترة طويلة بعد وفاته. ومع مرور الوقت، أصبح هذا اللقب لقباً ثابتاً لا يمكن محوه. وفي مواجهة ذلك، ابتكر أنصار عليّ تبريراً مفاده أنَّ «أبو التراب» كان لقباً فخرياً منحه له النبيّ محمَّد، ونسجوا قصصاً متناقضة لدعم هذه الرواية [المؤلف].

ملاحظة: ذكر ابن منظور في «لسان العرب» (ج 1، ص 229) قول أبي عبيد: «قوله تربت يديك، يقال للرجل إذا قلّ ماله: قد ترب، أي افتقر حتى لصق بالتراب.» وفي القرآن الكريم جاء في قوله تعالى: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}. وانظر أيضاً ما أورده الزبيدي في كتابه «تاج العروس» (ج 1، ص 322) حول المعنى نفسه [المترجم].

بحرارة في كوخه، ويأخذ الأمر على محمل الجد حين توسَّل إلى الله حتى أصيب أخيراً بنوبة صرع، التي كما رأينا أعلاه، عدَّت علامة على رسالته الإلهيَّة، وحين أفاق من غيبوبته أحسَّ بيقين إلهيّ بأنَّ النصرَ سيكون للأمَّة الإسلاميَّة، وكبادرة رمزيَّة أخذ حفنة من الرمل ورماها على الأعداء، ويعتقد المسلمون أنَّ هذا الفعلَ كان السببَ الحقيقيَّ في هزيمة الكفار الذين تأثّروا بجيوش الملائكة أكثر من تأثّرهم بسيوف المؤمنين، ولذلك كانت المعركة ذات أهميَّة كبيرة، ولم يكنْ من الممكن حسمها بوسائل دنيويَّة، فنزل على الأعداء آلاف من الملائكة بقيادة جبريل، بينما انسحب الشيطان الذي وعد الكفار بالمساعدة في عاره.

إنَّ الاعتقادَ الطبيعيَّ للنبيّ وأتباعه بأنَّهم حقّقوا النصر بفضل الدعم الإلهيّ يضمن لنا أنَّ قوَّة قريش الفعليَّة لم تكنْ مبالغاً فيها لرفع مكانة المسلمين، وباختصار يبدو أنَّ قريشاً بعد الظهر بقليل قد استسلمت، وانسحبت في فرار مذعور، وكان من أوائل الفارين الحارث شقيق أبي جهل، الذي فرَّ بسرعة على جواده، وتخلَّص الجنود الهاربون من دروعهم لزيادة سرعتهم، وأصبحتْ هذه الدروع غنيمة ثمينة للمسلمين، ثم اشتدَّتْ أعمالُ العنف والاعتقال والنهب، وبينما نهى محمَّد عن قتل بعض قريش الذين أظهروا له اللطف والاحترام، فإنَّ غضب المسلمين وتحدي الخصوم الذين لم يرغبوا في ترك أعدائهم على قيد الحياة بينما يُقتل رفاقهم حال دون تنفيذ هذا الأمر في بعض الحالات، وأميَّة بن خلف الذي استسلم لصديقه القديم عبد الرحمن بن عوف، قُتل على يد بلال الذي كان ما يزال أسيراً عند المسلمين، وعانى بلال كثيراً بعدّه عبداً مسلماً

سابقاً، ولقد طارد بعض المسلمين الهاربين، بينما نهب آخرون ساحة المعركة والمعسكر، وكانتْ هناكَ مجموعة ثالثة تحرس محمّداً للدفاع عنه في حالة الهجوم المفاجئ من أيّ اتجاه. وبعد الانتصار على الأعداء، فتش محمَّد أوّلاً ساحة المعركة للتأكّد من مقتل أبي جهل عدوّ الله، وشكر الله ابن مسعود عندما أبلغه بمقتل العدوّ أبي جهل، وبلغت الخسائر في الجانب المنتصر أربعة عشر قتيلاً، بينما بلغت الخسائر في الجانب المنهزم نحو سبعين قتيلاً[1] فضلاً عن عدد مماثل من الأسرى، وتم الاستيلاء على مئة وخمسين بعيراً وعشرة خيول، إلى جانب غنائم ثمينة أخرى، ومع تشرذم قوّات قريش إلى حدّ ما، إلّا أنّه لم يُفكّر في استغلال النصر استراتيجيّاً، وبعد دفن المسلمين الذين سقطوا في المعركة، ألقيت جثث الكفار في حفرة، ثم غادر محمَّد المكان في النهاية[2].

وفي طريق العودة إلى المدينة عند الظهر، قرَّر النبي، بناءً على آية من

(1) إنَّ العدد القليل من الضحايا بين المسلمين يمكن تفسيره على أنَّ أغلبيَّة كفار مكّة قُتلوا في أثناء فرارهم، ولذلك فإنَّ العارَ العربيَّ كان ما يزال سائداً في المعركة نفسها، على الأقلّ بالنسبة إلى الكفار، حيث أعطيتهم أسباباً كافية للانتقام، ومع ذلك، فإنَّ خوفهم من تكبد خسائر كبرى منعهم من المطالبة بثمن باهظ من خلال المزيد من القتل الشخصيّ [المؤلف].

(2) أشار دوزي في الصفحة 72 من كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام» إلى أنَّ محمَّداً كان يخاطب الموتى، داعياً كلّ واحد منهم باسمه، ومعبّراً عن امتعاضه بقوله إنَّهم «مواطنون لا يستحقون نبيّاً!». كما عبّر عن شعوره بأنّه عومل بسخرية، حيث وصفه البعض بالساحر والمجنون، بينما آمن به آخرون بوصفه نبيّاً. وذكر كيف طُرِد من مدينته وواجه الأسلحة الموجّهة ضده، بينما وجد منحه آخرون اللجوء ودافعوا عنه. وفي ختام كلامه، تساءل إذا ما كان الله قد أنزل عقوبته على هؤلاء أم لا.

القرآن، أنّه لا يجوز لأحد الاحتفاظ بالغنائم التي يحملها في يده، وبدلاً من ذلك، يجب توزيعها بالتساوي بين جميع المقاتلين وبعض الرجال الذين لم يشاركوا في المعركة لأسباب عاجلة وضروريَّة، ومن بينهم صهره عثمان، الذي بقي في المدينة مع زوجه الجميلة رقيَّة، ويبدو أنّه لم يكنْ من السَّهل على النبيّ الحصول على الغنائم كاملة التي تم الاستيلاء عليها حقّاً، ولتشجيع الفرسان على الخدمة في سلاح الفرسان، وأوصى بذلك في أجزاء أخرى من القرآن، قرَّر أن يحصل الفارس على سهم واحد لنفسه وسهمين لفرسه.

وبالإضافة إلى ذلك، قرَّر تخصيص خمس الغنائم الإجماليَّة للأغراض العامَّة من الآن فصاعداً، قُسِّمت الآراء بشأن معاملة السجناء، ومنهم العباس عم محمَّد، وأعرب عمر عن رغبته في أن يقتلوهم جميعاً، ونصح أبو بكر بأن يكونوا رحماء ومتسامحي تجاههم، ولقد أمر محمَّد الذي كان يميل دوماً إلى الرحمة واللين، الذي منح أتباعه فدية كبيرة، بقتل اثنين فقط من أشدّ خصومه؛ النضر بن الحارث، القاص الفارسيّ (انظر أعلاه)، وعقبة، بينما أبقى على الباقين، وقد أعرب عن ندمه وأسفه فيما بعد على قتل النضر بن الحارث، بعد أن سمع من ابنته رثاء مؤثراً حزيناً[1] ما يزال محفوظاً لنا،

(1) ذكرت بعض المصادر أنّها أخت النضر بن الحارث، بينما يشير آخرون إلى أنّها ابنته. قُتِل النضر في غزوة بدر بعد أسره، حيث كان في صفوف المشركين. ونظَّمت قصيدة طويلة تعبّر فيها عن حزنها على فراقه، تقول:

يا راكباً إنَّ الأثيلَ مظنَّة ... من صبح خامسة وأنت موفقُ

أبلغ بها ميتاً بأنَّ تحيَّةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفقُ

حيث وبخته برفق وانتقدته، وسرعان ما وصلت أخبار النصر إلى المدينة، حيث كان الناس في حالة انعدام التصديق تماماً لأنَّهم لم يفكروا في معركة، وانتشرتْ شائعة الرعب بسرعة في مكَّة.

وفي ذلك الوقت تمكَّن أبو سفيان، الذي تولَّى قيادة مكَّة بعد وفاة كثير من الرجال البارزين، من النجاح وتأخير الحداد على القتلى والجرحى حتى يتمكّنوا من طلب الانتقام، وأقسم لهم بجدية على الانتقام، وأوفى بهذا القسم في العام التالي في غزوة أحد، وكان ضدّ فدية الأسرى وتحريرهم، حيث كان أهالي الأسرى يعارضون ذلك، وكانت مبالغ كبيرة من المال تدفع كفدية للمدينة، ولكنَّ محمَّداً أطلق سراح بعض الأسرى الفقراء دون أن يطلبَ أيّ فدية، وتمكَّن أبو سفيان من تحرير ابنه الأسير بأسر رجل من أهل المدينة كان في طريقه إلى أداء فريضة الحج في مكَّة، وبادله بابنه، وكانتْ هذه غزوة بدر، التي مع أنَّها لم تكنْ كبيرة في نطاقها، إلَّا أنَّها كانتْ ذات أهميَّة كبيرة في الانتصار السريع للإسلام في شبه الجزيرة العربيَّة، وقد أدرك المسلمون أهميَّة هذه المعركة منذ البداية، فوثقوا بدقة تفاصيل هذا الصدام غير المنظَّم وأوصافه بين الجيشين الصغيرين، على عكس أيّ معركة أخرى خلال تلك الفترة، حتى المعارك الضخمة التي ستدمر فيها بعد قوَّة البيزنطيين والفرس في السنوات التالية، ولم يُحتفَظ بأسماء الضحايا من الجانبين فحسب، بل سُجِّلت أسماء جميع المقاتلين المسلمين بدقة في قوائم منظَّمة جيداً، مع أنَّها قد لا تكون كاملة تماماً.

لم تكنْ هذه المعركة عادية إطلاقاً؛ فقد اعتقد مقاتلو بدر أنّهم أشرف وأشرف المسلمين، وكان النصر والشهادة في سبيل الله يعدان الضمانة النهائيّة للجنة والنعيم السماويّ، وتكمن أهميّة هذه المعركة في تأثيرها المعنويّ على أصدقاء محمَّد وأعدائه على حدّ سواء، حيث أظهرت أنَّ الله كان معه، وأرسل العون الإلهيّ لهذه المجموعة الصغيرة للتغلب على جيش يفوق عدده بثلاثة أضعاف.

كان من المفترض أن يدفعَ هذا الحدث كثيراً من الأنصار البسطاء غير المبالين إلى الإيمان بالله، وأن يمنحَ البدو المسالم على الأقلّ فكرة مفادها أنَّ هذه المسألة أعظم من الصراعات القبليّة العادية، وكان من المفترض أن يثيرَ الشكوك في أذهان أعداء محمَّد حول إذا ما كان من الصواب والممكن مقاومة نبيّ قام بأعمال خارقة ومعجزة في هذه المعركة، ومع أنَّ جزءاً من هذا التأثير قد تضاءل في العام التالي من خلال معركة أحد، التي لم يكنْ محمَّد محظوظاً بها، فإنَّ النصرَ الأوّل الحاسم والسريع كان السبب الرئيس في تقدّم محمَّد السريع ليس في المدينة فحسب، بل في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربيّة، واكتساب السلطة الكاملة أيضاً، ومع هذا النجاح أصبحت العقولُ العربيّةُ مستعدّةً للاعتراف به حاكماً.

ولكنَّ خسائر قريش ليستْ بالهيّنة أيضاً، فقد تكبَّدتْ قريش سبعين قتيلاً، وهو ما قد لا يكون بالأمر الهيّن إذا ما علمنا أنَّ عددَ سكان المدينة آنذاك كان نحو عشرة آلاف، فضلاً عن ذلك فإنَّ الموقفَ يصبح أكثر خطورة حين يكون من بين الضحايا رجال بارزون، ولهذا السبب فإنَّ الرسلَ الذين

ينقلون أخبار المعركة إلى أهل مكّة والمدينة لا يبدؤون خطاباتهم بتلميحات عامّة إلى أنَّ قريشاً قد هُزِمت، بل يبدؤون دائماً بقولهم: «قتل عتبة وشيبة!»[1] ورغم مقتل آخرين، فإنَّ مقتلَ هؤلاء الرجال ذوي الخبرة والنفوذ لا بدّ أنّه كان كارثة على مدينة قريش، وهنا يأتي البديل والحلّ طبعاً، فقد قدَّم أبو سفيان ومن معه، الذين اعتمدت عليهم قريش بعد مقتل هذين الرجلين، والأسرة الأمويَّة النافذة، مساعدات ممتازة لأسر الضحايا.

وقد كانت الفدية الباهظة التي دفعتْ للأسرى، بالإضافة إلى الأسلحة والممتلكات الأخرى التي فقدت من قبل القبائل في المعركة، خسائر كبيرة بالنسبة إلى أثرياء مكّة، ولكنَّ النتيجة الأكثر كارثيَّة بالنسبة إلى قريش من الآن فصاعداً كانتْ أنّها اضطرَّتْ إلى وقف قوافلها التجاريَّة إلى بلاد الشام تماماً، التي كانت مصدراً رئيساً لثروتها، وبالإضافة إلى الأضرار المتزايدة، كان عليهم أن يتحملوا سخرية الشعراء المسلمين وتهكمهم، ولم يكنْ بوسعهم إلّا أن يواجهوا ذلك بفخر بعد معركة أحد، ولعلَّ أحداً من قريش لم يكنْ ليتوقع أنَّ هذه الهزيمة في الحرب سوف تضع الأساس للهيمنة العالميَّة المستقبليَّة، وأنَّ مكَّة سوف تتبنى في نهاية المطاف التوحيد الخالص، وحين عاد محمَّد إلى المدينة، اكتشف أنَّ ابنته رقية؛ زوج عثمان، قد توفيت ودُفنت، وتعزيته، عرض عليه ابنته الأخرى أم كلثوم زوجاً، ولكنَّها توفيت قبل وفاة والدها بفترة.

(1) هما يأتيان في المقام الأوَّل دائماً، ويتغيَّر الترتيب للأسماء الأخرى حتى في القصائد العديدة الباقية من كلا الطرفين حول هذه المعركة، فإنَّ موت هذين الشخصين وأبي جهل أيضاً هو أكثر ما يتم الحزن عليه دائماً [المؤلف].

لقد ازدادت العداوة لليهود مع مرور الوقت، وألغيت التدابير المتخذة ضدّهم، فقبل غزوة بدر، اسْتُبْدِل صيام شهر رمضان بصيام اليهود (حيث لا يُسمح للمؤمنين بالأكل أو الشرب من شروق الشمس إلى غروبها)، وغُيِّرَتْ قبلة الصلاة من القدس إلى الكعبة، لم يكنْ هناك أيُّ انتهاك كافٍ لتسويغ العداء العلنيّ المفتوح، وبعد فترة وجيزة من المعركة وجّه محمَّد اهتمامه نحو قبيلة قينقاع الشجاعة، التي تمكّنت من نشر 400 مقاتل مدرَّع و 300 مقاتل مسلَّح، بينما لجأ اليهود إلى قلعتهم المحصنة، على أمل ألّا يسمح حلفاؤهم السابقون؛ الخزرج، الذين أظهروا لهم قبل فترة قصيرة دعماً شجاعاً بعدم تدميرهم بسهولة، ومع ذلك «ألغى محمَّد كلّ العهود»؛ لقد أصبحوا خالين من أيّ التزام تجاه أعدائهم حقّاً، ولم يجرؤ الكفار القلائل المتبقون من قبيلة الخزرج على دعم الأعداء علناً.

وبعد حصار دام أربعة عشر يوماً، أُجبِروا على الاستسلام، إمَّا برحمة، وإمّا بلا رحمة، ويبدو أنَّ محمَّداً كان ينوي القضاء على كلّ أعدائه المكروهين، لكنَّ عبد الله بن أبي الذي كان يدافع عن حلفائه القدامى على الأقلّ نجح في المطالبة بانسحابهم بحريّة من خلال مطالبه القويَّة، وانتقلتْ قبيلة اليهود، التي لم يُظهِرْ إخوانها الدينيون استعدادهم للمساعدة، إلى سوريا، وكانت الغنائم كبيرة، وليستْ تافهة، حيث اكتسبتْ قبيلة قينقاع ثروة كبيرة، بسبب مهارتهم في الصياغة، وكان نصيب محمَّد من الأسلحة وحدها 3 أقواس و 2 درع و 3 سيوف و 3 رماح.

وفي نهاية العام الثَّاني (ربيع الأوَّل 624) قاد أبو سفيان غارة على المدينة مع مجموعة من أصحابه، بلغ عددهم 40 شخصاً (وفقاً لبعض الروايات 200 شخص)، حيث يبدو أنَّ الهدف الرئيس هو جمع المعلومات وإقامة التحالفات للانتقام الرئيس المخطَّط له، وقد تسلَّلوا عبر نجد الغربيَّة في موسم الحج حين كان من المستحيل التنبؤ بوصول القوافل إلى المدينة، وهناك تعامل مع أحد رجال قبيلة النضير اليهوديَّة البارزين بعد أن رفض شخص آخر خوفاً من محمَّد، فانسحب أبو سفيان فوراً حين وصلته أنباء وصول محمَّد، وفي أثناء الانسحاب أتلف بعض ممتلكات أهل المدينة، وحاول محمَّد مطاردته لعدَّة أيام دون جدوى.

وقد شهدتْ هذه الفترة عدَّة اغتيالات نُفِّذَتْ بأمر محمَّد أو بموافقته ضدّ خصومه، ولا سيَّما الشعراء الذين ألحقوا به الأذى من خلال قصائدهم الحزينة عن الكفار الذين سقطوا في غزوة بدر، أو من خلال قصائد الانتقام والاستهزاء به وبأتباعه، ويمكن ملاحظة تأثير هذه القصائد وقوّتها في العرب بوضوح، وقد نجح أحد اليهود في تحقيق ذلك من خلال إنشاد قصائد تتعلَّق بمعركة «بوعز الدامية»[1] لإثارة الصراع بين قبيلتي المدينة، ممَّا أدَّى إلى إراقة الدماء تقريباً، ولم يتمكَّنْ محمَّد من إعادة السلام إلا بجهد

(1) بوعز، رمز العزّ والقوَّة، يُشار إليه في الكتاب المقدَّس بوصفه «جبار بأس»، وهو تعبير عبريّ يدلّ على الغنى، الهيبة، والسلطة. كما يُبرز شخصيته بوصفه قوَّة في الحروب. ورد ذكره في العهد القديم، سفر راعوث، الفصل الثاني، حيث يتم تصويره بوصفه شخصية محورية، يجمع بين الهيبة الأخلاقيَّة والماديَّة.

كبير وصعوبة، وقد اغتيلت امرأة وشيخ عجوز لأنَّهما انتقدا أهل المدينة في قصائدهما لاستسلامهم للغرباء القادمين.

وأثار مقتل كعب بن الأشرف، وهو رجل من قبيلة طي البارزة انضمَّ إلى قبيلة بني النضير اليهوديَّة التي تنتمي إليها والدته، الكثيرَ من الجدل، وقد أجّج مقتله، وغضب قريش على محمَّد، حيث استخدم الشعر للتحريض، سافر كعب إلى مكَّة ليزيد من حماسة قريش لمحاربة محمَّد، وعمل على تقوية تحالف قبيلته معهم، وقد قتل كعب أشخاصاً كانوا من أصدقائه في السابق، إنَّ التعصب الذي أدَّى إلى مثل هذه الأفعال كان يخيف، ويدفع المعارضين في المدينة إلى التراجع على نحو متزايد، وقد أثَّر إلى حد بعيد في تصورات كثير من الأفراد حتى قبل أن يقبلوا الإسلام، ولذلك تبنت عائلة الشاعرة المذكورة التعصب نفسه، واعتنقت الدين الجديد وبذلك حين ماتت الشاعرة المذكورة، قال محمَّد عند وفاتها:

«لن تتقاتل عليها عنزتان»؛ أي لا يهمّ[1]. شنَّ محمَّد خلال الفترة بين غزوة بدر والمعركة الكبرى التالية حملات على قبيلتين بدويتين رئيستين في نجد، هما بني «سليم وغطفان»[2] أو بالأحرى ضدّ فروع فرديَّة من هاتين القبيلتين، والسبب الدقيق لهذا العداء غير معروف، ربَّما بسبب النهب الذي

(1) الشاعرة عصماء بنت مروان رُويت عنها قصص تتضمَّن سخريتها من أهل المدينة لاتباعهم لقائد غريب عنهم، في إشارة إلى النبيّ محمَّد الذي لم يكن من أهل المدينة.

(2) جوستاف وايل، «محمد النبيّ: حياته وتعاليمه»، ص 120: «كانت هناك نيات عدائية واضحة لدى بني سليم وغطفان تجاه النبيّ محمد».

قام به البدو، ومن غير المرجَّح أن يتورَّط محمَّد في صراع دون سبب مقنع، الذي يمكن أن يتصاعدَ بسهولة إلى عداء مع جزء كبير من قبائل نجد، ولم يحدث سفك دماء في هذه الغارات؛ إذ كانت معسكرات البدو الفرديَّة تنسحب دائماً. ومع ذلك، خلال إحدى الحملات (في بداية العام 3)، استولى محمَّد على 500 (وفقاً لبعض الروايات، 1400) من الإبل، وبعد خصم حصة الخمس، حصل كلّ من المشاركين البالغ عددهم 200 على جمالين، وكانت الغنائم التي جمعها زيد؛ ابن محمَّد بالتبني، في خريف عام 624 ذات أهميَّة كبرى. قادَ رجل شجاع في هذا الوقت قافلة عبر نجد، مروراً بالفرات إلى بابل، حيث كان طريق التجارة إلى سوريا مغلقاً أمام قريش، ومع ذلك كلَّف محمَّد زيداً بمراقبة القافلة وانتظارها، وسقطت القافلة الغنيَّة كلّها في أيدي المسلمين، فرَّ أصحاب القافلة، ولم يُؤسر سوى واحد أو اثنين، وفي هذا الوقت تزوَّج محمَّد ابنة عمر، واسمها حفصة، وكبرت أسرته بولادة حفيد من ابنته فاطمة، التي تزوجت مؤخراً من علي[1]. هذا الابن المولود حديثاً يسمَّى الحسن، وولد أخ بعد فترة وجيزة اسمه الحسين، ليواصل نسب النبيّ .

---

(1) انظر: «مقالة في تاريخ العرب» لبريستيفل، ص 85: «خطب عليّ فاطمة قبل غزوة بدر، وتمّ الزفاف بعد ثلاثة أشهر. كان عمره 21 أو 22 عاماً، وعمرها 15 عاماً. بلغت قيمة هدية الزفاف 480 درهماً، موزعة بين الفضة، العطور، والأقمشة».

القسمُ الرَّابع

من غزوة أحد إلى حصار المدينة المنورة

في تلك الأثناء كان أهل مكَّة يستعدّون لحملة كبيرة للانتقام من أهل المدينة، وكان أبو سفيان؛ الزعيم المعترف به مع أنَّه لم يكنْ يشغل منصباً محدَّداً، ينظّم كلَّ شيء بدقة، وكان أصحاب القوافل يتبرعون طوعاً بجزء كبير من بضائعهم، التي تسبَّبت في المواجهة في بدر، للاستعداد للحرب، ولم يقتصر النداء إلى حمل السلاح على أبناء القتلى وإخوتهم، بل إنَّ الأخوات والبنات حثّوا أقاربهم من خلال الخطب والأناشيد على الانضمام إلى المعركة الدفاعيَّة ضدّ محمَّد وأتباعه، وفوق كلّ ذلك كانتْ زوج أبي سفيان؛ هند بنت عتبة، التي كان والدها من بين ضحايا بدر، وما يزال لها ابن وأخ وعم، هي التي حرَّضت على الحداد والحزن، ونجحت قريش في إقناع عدد كبير من بدو قبيلة كنانة، فضلاً عن جيرانهم المقربين، بالمشاركة في الحملة من خلال الثروة

والكلمات المقنعة، وانضمَّ عرب آخرون أيضاً، مثل مئة رجل من الطائف، علم محمَّد في الوقت المناسب، في ربيع عام 625، من خزاعة أنَّ جيشاً يتكوَّن من 300 رجل، و 200 حصان، و 3000 جمل يتقدَّم نحو المدينة.

كانتْ قبيلةُ خزيمة، وهي قبيلة بدويَّة تعيش بالقرب من مكَّة، تعمل كجواسيس للنبيّ، ليس من باب حبّ تعاليمه. إذ كانوا مشركين في ذلك الوقت. لكن بسبب اتفاقيَّة صداقة قديمة مع أسرته ونزاع نشب بينهم وبين أسرة مخزوم المحترمة في مكَّة، وتقدَّم المخزوميّون، برفقة زوجاتهم اللاتي كنَّ يردّدن أناشيد حزينة على قتلى معركة بدر، غرباً ثم اتّجهوا شرقاً، مدفوعين برغبة متزايدة في الانتقام من الجيش.

ولم يكنْ محمَّد، الذي كان على علم تام بأعدادهم وتحركاتهم، حريصاً على مواجهتهم، بل انتظر حتى هاجموا المدينة، وفي هذا الموقف كان يتمتع بكلّ مزايا المدافعين: موقف حازم ودعم من كلّ سكان المدينة، بما في ذلك غير المسلمين، ومن المؤكَّد أنَّهم لن يتسامحوا، وسيدافعون بشراسة عن شرفهم ومصالحهم بتسليم مدينتهم للأجانب، وفي الدفاع، كان بوسع النساء والأطفال أن ينشطوا، وربَّما كان بوسع سكان المدينة أن يعتمدوا على مساعدة اليهود استناداً إلى اتفاقات سابقة، وحثَّ عبد الله بن أبي على الانتظار في المدينة نفسها لمواجهة العدوّ، لكن لم يكنْ من الممكن قمع الشباب المتحمس والاضطراب الذي أصاب كثيراً من سكان المدينة الذين لم يعد بوسعهم أن يتحملوا رؤية حقولهم تُنهب، وتُدمر على يد العدوّ، وعلى

الرَّغم من رغبته المترددة والمضطربة، ارتدى محمَّد درعه على مضض. وفي يوم الخميس، في الشهر العاشر من السنة الثَّالثة (التاريخ غير مؤكَّد)، وصل المكيون إلى مشارف المدينة، وفي يوم الجمعة قاد محمَّد نحو ألف رجل، ورفض العرض الذي قدَّمه سكان المدينة لطلب المساعدة من حلفائهم اليهود، ربَّما لأنَّه لم يكنْ يثق باليهود أو لأنَّه كان يعلم أنَّهم لن يأتوا على أيَّة حال، وينبغي لنا أن نستبعدَ القصة التي تقول إنَّه رفض اليهود حين جاؤوا بالقوَّة العسكريَّة لدعمه [1].

وفي ليلة الجمعة إلى السبت كانت الجيوش متمركزة بالقرب من بعضها، ولا تفصل بينها إلَّا تلَّة صغيرة، وفي صباح السبت وقف محمَّد أمام أهل مكَّة، لكنَّه فوجئ حين أعلن له عبد الله بن أبي أنَّه لا يرغب في مواجهة قوَّة كبيرة في هذا الوضع الخطير، الذي لم يضرّوه بشيء [2]. ومع عبد الله بن أبي انسحب قسم كبير من سكان المدينة، ولم يبقَ مع محمَّد سوى نحو 700 مقاتل، وكان جيش المسلمين صغيراً، خالياً تماماً من الفرسان، وواقفاً عند سفح جبل أحد، الذي كانتْ صخوره الجرانيتيَّة العارية معزولة عن الأشجار، على بعد ساعة تقريباً

(1) وليم موير، «حياة محمَّد»، الطبعة الجديدة المختصرة، ص 265: «عندما وصل النبيّ إلى مكان مرتفع، التفت فرأى أصحابه وسط بساتين النخيل إلى يمينه، ومعهم جماعة من الرجال غير المنضبطين. فقيل له إنَّهم حلفاء اليهود من أتباع عبد الله بن أبي. عندها أمرهم بالعودة قائلاً إنَّه لا يجوز الاستعانة بالمشركين في قتال المشركين».

(2) وليم موير يعرض وجهة نظر مختلفة في كتابه «محمَّد والإسلام»، ص 107: «مع بزوغ الفجر، ومع أنَّ العدوَّ كان قريباً، غادر أتباع عبد الله بن أبي المدينة برفقة ثلاثمئة من رجاله. كان ذلك نتيجة معاملة محمَّد غير الودية لحلفائه من اليهود».

إلى الشمال من المدينة، واحتلَّتْ قريش الأراضي المنخفضة الخصبة إلى الجنوب الغربيّ من جبل أحد، وتطلَّع المسلمون نحو المدينة، لكنَّ قريشاً، على الرَّغم من كونها أقرب إلى المدينة من خصومها، كانتْ محاصرة بالعقبات الطبيعيَّة، ونظَّمتْ قريش، التي كانت مجهزة بسبعمئة جنديّ مدرّع ومئة رامٍ، جيشها في جناحين، ويبدو أنَّ جيشَ محمَّد كان مقسماً إلى ثلاثة أقسام، وكان على رأس كلّ منها ثلاثة من حاملي الرايات على الأقلّ، فبالإضافة إلى ذلك، كان هناك حامل راية لكلّ من قبائل المدينة، وعلى الجانب الأيسر، حيث كانت الأرض مفتوحة، وضع محمَّد خمسين من الرماة لصدّ فرسان العدوّ.

ويبدو أنَّ معركةَ أحد كانتْ أكبر قليلاً من معركة بدر، وإن لم تكنْ معركة كاملة النطاق، فقد شارك في هذه المعركة أربعة رجال، هم: سعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، الذين أثبتوا فيما بعد أنَّهم من القادة العسكريين البارزين للمسلمين، وكان اثنان منهم يقاتلون إلى جانب الكفّار في ذلك الوقت، ولم تكنْ هناك سوى تحركات تكتيكيَّة بسيطة، مع التركيز الرئيس على القتال الفرديّ. وفي حين أنَّ هناك كثيراً من التفاصيل حول أحداث محدّدة في هذه المعركة، فإنَّنا نفتقر إلى نظرة عامَّة على التطور الإجماليّ للأحداث، وفيما يتعلَّق بالمشاهد الفرديَّة، فإنَّ العلاقة الزمنيَّة والسببيَّة بينها غالباً ما تكون غامضة للغاية.

خرج أبو عامر قبل المعركة من صفوف أهل مكَّة في محاولة لإقناع أهل المدينة بالابتعاد عن محمَّد، وكان هو من هؤلاء الرجال الذين شعروا بالحاجة

إلى دين أعمق قبل ظهور محمَّد، لكنَّه لم يعترفْ بمحمَّد، وهرب من مسقط رأسه المدينة المنورة إلى أهل مكَّة [1] ولعلَّ مهارات رمي الحجارة التي تعلمها في وطنه كان لها أثرها في قومه، إذ لم يعدْ ما كان يحلم به موجوداً، فاضطرَّ إلى الانسحاب سريعاً خلف خطوط الجيش، وبدأت المعركة بالقتال الفرديّ، وكانتْ عائلة «عبد الدار» تحمل مسؤوليَّة حمل الراية الموروثة لقريش.

ولم تكنْ هناك حاجة إلى تحريض أبي سفيان لإقناعهم بالحفاظ على شرف عائلتهم في المعركة، فقد كان أشجعهم يتسلّم الراية، ويتساقطون واحداً تلو الآخر، وكان يأخذها دائماً فرد آخر من العائلة نفسها، حتى حصل عليها أخيراً عبد، وسقط عشرة من عبد الدار في سبيل الراية، بالإضافة إلى العبد، ويبدو أنَّ هذه المعركة، التي جرت على الأرجح في منتصف صفوف الجيش المكّيّ، كانتْ تشغل التركيز الرئيس للمسلمين حتى ذلك الحين، على الأقلّ، فإنَّ العدد القليل من الضحايا في الجانب المكّيّ يجعل من الصعب

(1) ذكر ابن هشام في السيرة النبويَّة، المجلد الثاني، ص 423، نقلاً عن ابن إسحاق، نبذًا من ذكر المنافقين: قدم رسول الله (ص) المدينة... وأبى أبو عامر إلَّا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكَّة برفقة بضع عشرة رجلاً، مفارقًا للإسلام ولرسول الله (ص). وقال رسول الله – كما روى محمَّد بن أبي أمامة عن بعض آل حنظلة بن أبي عامر –: «لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا: الفاسق». وروى جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم أنَّ أبا عامر أتى رسول الله (ص) في المدينة، قبل خروجه إلى مكَّة، وقال: «ما هذا الدين الذي جئت به؟» فأجابه رسول الله (ص): «جئت بالحنفيَّة، دين إبراهيم». فقال أبو عامر: «فأنا عليها». فقال رسول الله (ص): «إنَّك لست عليها». فرد أبو عامر: «بلى، لكنَّك أدخلت يا محمَّد في الحنفيَّة ما ليس منها». فقال رسول الله (ص): «ما فعلت، وإنَّما جئت بها بيضاء نقيَّة».

تصديق الأعمال البطوليّة المبالغ فيها المنسوبة إلى المؤمنين، ومع ذلك تكبَّد المسلمون خسائر خلال هذه الفترة أيضاً، فقد انتشر خبر وفاة حمزة، وأثار سقوطه الخوف في نفوسهم، وسقط عم محمَّد الشجاع في المعركة بسبب رمح رماه العبد الحبشيّ الذي اشترى حريته[1] ولكنَّه لم يشاركْ في أيّ معركة بعد ذلك، ولكنَّ المسلمين استمرّوا في القتال بشجاعة، وانتصروا في النهاية، جزئيّاً بالتسلّل إلى صفوف العدوّ ودخول معسكرهم، ممَّا تسبَّب في فرار نساء مكَّة اللواتي كنَّ يقفن خلف الجيش في حالة من الذعر، لكن سرعان ما انقلبت الأمور لصالح المسلمين، فقد لاحظ الرماة، الذين يصدون هجمات جيش مكَّة بوابل من السهام عدَّة مرات، أنَّ رفاقهم قد وصلوا إلى معسكر العدوّ، فاندفعوا إليهم بشغف، ولاحظ خالد ذلك، وفي لحظة واحدة انقضَّ الفرسان على المسلمين الضعفاء العُزَّل من الخلف، ونشروا الموت والدمار، انتابت المؤمنين حالة من الهلع والرعب، حيث هرب الجميع، وجد محمَّد نفسه في خطر بعد أن قرَّر الاحتماء خلف الجيش، حيث تعرَّض محمَّد للهجمات بالسهام من العدوَّ، وتعرَّض للطعن برمح من الخلف في هذا الوضع، كانتْ درجة الخطر تتزايد.

تدورُ معركة عنيفة حوله حيث يسقط مصعب حامل الراية بجواره، ويصاب في وجهه بحجر يخرج منه سناً واحدة، ويتعرَّض للرمي ببعض

(1) ذكر وليم موير في كتابه «محمَّد والإسلام، ص 105، أنَّ هند زوجة أبي سفيان، التي كانت متعطشة للانتقام لمقتل أبيها، استعانت بمحارب إثيوبيّ ليضمن لها قتل حمزة بن عبد المطلب، الذي كان ضحيتها المنشودة.

الحجارة الأخرى ممَّا يؤدي إلى فقدان قوَّته وسقوطه، يتسبَّب صراخ أحدهم «محمَّد قد مات» في فقدان الوعي لدى المسلمين، يهرب الجميع صعوداً إلى الجبل للهروب إلى المدينة، في حين يبقى القليل منهم واقفين بيأس ينتظرون الموت، ومع ذلك يحافظ بعضهم على الهدوء الضروريّ، في تلك اللحظة يلاحظ كعب بن مالك، الذي كان يدعم قضيَّة محمَّد من خلال قصائده، ومن خلال فتحات الخوذة، عيوناً برَّاقة لمحمَّد، ويصيح للمسلمين أنَّه ما يزال على قيد الحياة، ومع ذلك يشعر محمَّد بالقلق وعدم الأمان لدرجة أنَّه يحثّه على الصمت، لكن سرعان ما يتجمَّع بعض المؤمنين حول محمَّد، ويحملونه إلى مكان آمن في وادٍ مرتفع، ويتخذون التدابير المؤقتة اللازمة لعلاج جروحه التي على الرَّغم من ذلك ليستْ خطيرة، يستمرّ أهل مكَّة واثقين وراضين بقتل محمَّد، ولكنَّهم غير قادرين على متابعتهم ومطاردتهم، وتستمرّ بعض القوَّات في صعود الجبل الشاهق، بينما تنسحب الأخرى، لا يستمرّ القتال لفترة طويلة، حيث تبدأ صلاة الظهر بإمامة النبيّ، الذي يكون ضعيفاً لدرجة أنَّه لا يستطيع الوقوف، ولذلك يصلي جالساً.

وبعد المعركة فحصت قريش جثث القتلى، فوجدت أكثر من سبعين مسلماً، بينهم أربعة من الفارين من مكَّة، ملقين في ساحة المعركة، ذكر أبو عامر أسماء أبناء وطنه الذين سقطوا، ولكنَّهم باؤوا بالفشل في العثور على جثة محمَّد، وبين المدنيين الذين سقطوا كان هناك بعض الذين هم يحتضرون من الجراح، وقد صرحوا صراحة أنَّهم لم يفعلوا ذلك من باب الغيرة على المدينة، وليس على الإسلام، وإنَّما من أجل تكريم قبيلتهم، فقد فقدت قريش نحو 20 رجلاً، شوهت النساء جثث

الأعداء وفقاً للعادات الوحشيَّة، خاصة هند التي انفجر غضبها على جثمان حمزة الذي ألحق بها الكثير من الأذى في بدر، حتى أبو سفيان طعنه بالرمح على مضض عدوًّا لقومه، لكنَّه شعر بالخجل حين وبَّخه بعضهم على هذا السلوك، وحين لم يكنْ من الممكن العثور على جثة محمَّد، اقترب أبو سفيان من سفح الجبل، ونادى بصوت عالٍ على عمر الذي كان مع محمَّد، متسائلاً إذا ما كان محمَّد ما يزال على قيد الحياة، فأذن له محمَّد، الذي لم يكنْ مرئيًّا بنفسه، بالردّ، وبدأ حديث مفهوم بسرعة حول الاجتماع مرَّة أخرى في الوقت نفسه من العام التالي في بدر، ثم بدأ أهل مكَّة بالتراجع، وتمكَّن المسلمون من العودة إلى ساحة المعركة، وبحزن عميق تعرَّف المقاتلون والنساء القادمات من المدينة على جثث أحبائهم وأقاربهم.

بعد أن غضب النبيّ بشدَّة من تشويه جثة حبيبه حمزة، عاهد على الانتقام من خلال تشويه جثث الأعداء، ومع ذلك، بعد وقت قصير من استعادة ثباته، تراجع عن هذا العزم، لم يكن هناك أحد يشعر بالحزن بقدر ما كان يشعر به النبيّ على فقدان حمزة، حيث بكى عليه مراراً، وحين عاد إلى المدينة سمع صراخ النساء يعبرن عن حزنهن على ضحاياهن الذين سقطوا، وشاهد الآخرون ينعون، وفي هذه اللحظة قال النبي، وهو يبكي: «آه، حمزة لا بواكي عليه!»، كان من أثر هذه الكلمات أن رثت كثير من نساء المدينة حمزة رثاءً موحداً، ومنذ ذلك الحين يتذكَّر أهل المدينة حمزة أوَّلاً في كلّ رثاء جنائزيّ، ثم دفن النبيّ القتلى في الموقع، ما عدا القليل الذي دُفِن بسرعة في المدينة، اثنان أو ثلاثة في قبر واحد، على الرَّغم من انسحاب المكّيين، لا توجد ثقة كاملة في عدم عودتهم فجأة إلى المدينة، وجزء من قوم قريش الفائزين أرادوا ذلك،

ولكنَّ الحكمة حالتْ دون تنفيذ أيّ عمليَّة لا تحمل فرصة للنجاح، وفي يوم السبت بعد الظهر دعا النبيّ أتباعه إلى حملة جديدة، ليظهروا قوَّتهم المستمرَّة، وليمحوا الانطباع السلبيّ[1] لهزيمة بعضهم، وليبينوا جاهزيتهم للدفاع، ودعا النبيّ أتباعه لإجراء حملة وتحركات جديدة في يوم الأحد.

وسار الجيش، الذي كان معظمه من الجرحى والمصابين، على الطريق المؤدي إلى مكَّة، وكان بعضهم يتعثَّر، ويجرّ نفسه بصعوبة، غير قادر على المشاركة في أيّ قتال، واستمرّوا حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، على بعد ميلين تقريباً من المدينة، حيث مكثوا هناك حتى عادوا يوم الخميس.

أرسل محمَّد تقريراً مبالغاً فيه عن استعداداته إلى أهل مكَّة عن طريق قبيلة خزاعة، وتلقى رسالة مؤكَّدة بأنَّهم سيعودون الآن.

هنا أمر محمَّد بإعدام أحد الذي أُسِر في بدر، ولكنَّه أطلق سراحه، بسبب فقره بعد الوعد بعدم القتال ضدّ محمَّد مرَّة أخرى دون فدية، ومع ذلك شارك في معركة أحد مع المكّيّين، ولكنَّه ضلَّ طريقه عند العودة، وأُسِر في أثناء نومه، وعبثاً توسَّل إلى محمَّد للمرَّة الثَّانية من أجل الرحمة، وأمر بإعدام معاوية بن المغيرة، الذي ضلَّ طريقه، وحاول الاستعانة بعثمان،

(1) لم يكن الهدف «المحو الانطباع السلبي»، كما أشار نولدكه، بل إنَّ الأنباء التي وصلت إلى النبيّ عن احتمال هجوم مباغت من قريش على المدينة أثارت شعوراً بعدم الأمان. ولهذا السبب تمركز الرجال عند باب بيت النبيّ، وأوقدوا المشاعل على التلال المحيطة بالمدينة وفي ساحاتها، تحسباً لأيّ هجوم مفاجئ.

وتلقى حمايته، وبعد أن أمهلته المدينة ثلاثة أيام لمغادرة المدينة، ألقي القبض عليه بعد انقضاء المهلة، وأمر محمَّد حينها بقطع رأس الحارث بن سويد، وهو من أهل المدينة، باعتقاله بعد أن علم أنَّه استغلَّ الفوضى في غزوة أحد لقتل المجذر بن زياد البلوي، لوجود ثأر بينهما منذ الجاهليَّة.

لقد حطمت الهزيمة المفاجئة التي تعرَّض لها محمَّد آماله وانطباعه الأخلاقيّ، وألغت تماماً تأثير انتصاره السابق في معركة بدر، والآن يستطيع الأعداء والمشككون والساخرون أن يفرحوا علناً أو سراً، مدّعين أنَّ نصر الله للنبيّ ليس مضموناً تماماً، ويزعمون أنَّه تُرِك وحيداً في خضم المعركة، يكافح ويواجه مواقف مماثلة لما حدث في الحالات السابقة.

وخيبة أمل محمَّد بسبب الخسارة، ألقى باللوم على الكفر والعصيان وعدم إطاعة الأوامر في هذه المحنة، ممَّا تسبَّب في فقدان الثقة.

استغرقَ الأمرُ شهراً حتى تلتئم جراحه، ووصفه الشهود الذين عاينوا الحادث بأنَّه ضعيف وعرضة للظروف البشريَّة، ومع ذلك، بعد هذه الهزيمة مباشرة، عبَّر عن وعي عميق في القرآن الكريم، بينما حثَّ المؤمنين على القتال بعزيمة كبرى لتجنب مثل هذه المحن في المستقبل، وفي هذه المرحلة، من المتوقع أن تركّز كلّ جهود محمَّد على استعادة السمعة التي عانتها بين العرب، وتدهورت بسبب الهزيمة.

وفي هذا الصدد، كانت مطاردة الأعداء المنتصرين وسيلة مفيدة للغاية

لحماية البدو من خلال الشجاعة التي لا تستسلم للمصاعب أبداً، والتي تلهم الاحترام، ومع ذلك كانتْ هناك مؤشرات متزايدة على أنَّ القبائل البدويَّة المتنوعة كانتْ تتجمَّع ضدّ أهل المدينة، الذين عدّوهم فريسة جيدة، وبدؤوا يخشون الخطر الذي يهدّد حريتهم، والعمل الحاسم والاستغلال الذكي للصراعات الداخليَّة المستمرّة يمكن أن يساعد هنا، وحين سمع أنَّ قبيلة أسد العظيمة تتجمَّع ضدّه، أرسل محمَّد أبا سلمة في الشهر الأوَّل من السنة الرابعة (ربيع الأول 625) مع مجموعة من 120 أو 150 رجلاً لمواجهتهم، وأحضر رجل من قبيلة طي، التي كانت تتعارض كثيراً مع قبيلة أسد، الأخبار إلى المدينة وقدم التوجيه.

وكما هي الحال في أغلب هذه الغزوات على القبائل البدويَّة، لم يكنْ هناك قتال فعليّ، لكن تم الحصول على بعض الغنائم، بما في ذلك ثلاثة عبيد، وامتلأت القبيلة بالرعب، توفي أبو سلمة بعد عودته بقليل، بسبب الجرح الخطير الذي أصيب به في غزوة أحد، التي فتحت مرَّة أخرى، بسبب إجهاد الرحلة، وزادت أرملته أم سلمة من عدد زوجات النبيّ بعد فترة وجيزة، حيث كان قد تزوَّج قبل زينب بنت خزيمة، أرملة من قتلوا في بدر، توفيت زينب قبله، وفي الوقت نفسه حدثت حادثتان أخريان محزنتان.

بعد الهزيمة، وفقاً لبعض المصادر، أرسل محمَّد سبعة (أو عشرة، حسب المصدر) جواسيس إلى المنطقة القريبة من مكَّة، وفجأة هاجمتهم مجموعة كبيرة من البدو من قبيلة هذيل الذين سعوا للانتقام من المسلمين

لمقتل زعيمهم، الذي خشي محمَّد أن يؤذيه.

من وجهة النظر العربيَّة كانتْ قبيلة هذيل مسوغة تماماً، وكانت الاتهامات التي وجهها المسلمون ضدّهم لا أساس لها من الصحة، قاتل معظم الكشافة بشجاعة في المعركة، وسقطوا في القتال، استسلم ثلاثة فقط، وباعتهم قبيلة هذيل للمكّيّين، الذين سعوا للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا، قُتل أحدهم في أثناء محاولتهِ الفرار، أمَّا الباقيان، زيد بن الدثينة وخبيب، وكلاهما من المدينة المنورة، فقد اشترتهما عائلات مكّيّة من أجل إعدامهما انتقاماً للمكّيّين الذين قُتلوا في المعركة على يد قبائلهم، قُتلا خارج المسجد الحرام في نهاية الشهر المقدَّس.

بعد أن سبق لهما أن خاضا اختبارات عديدة في ثباتهما على الإيمان وتعلقهما بشخص محمَّد ورسالته، قتل زيد على يد عبد، ثم رُبِط خبيب بن عدي إلى عمود أمام الحشد المجتمع ثم قُتل بالرماح على يد الأطفال الذين سقط آباؤهم في المعارك ضدّ المسلمين، وألقي العنة على جميع الحاضرين، وحاولوا تجنبها والانحناء على الأرض ليتخلصوا من العنة.

كانت الخسارة الأكثر تدميراً التي تعرَّض لها محمَّد في الشهر نفسه هي الأكثر حزناً، فقد قدَّم أبو براء، وهو زعيم محترم من أمير نجد، الحماية لمجموعة من أربعين مسلماً، مع أنَّه لم يكنْ مسلماً بنفسه، وبناءً على طلب محمَّد، أُرسلوا لتوصيل رسالة الإسلام إلى قبائل البدو في نجد، وكانتْ هذه واحدة من المبادرات المباشرة الأولى للنبيّ لجذب البدو، الذين لم يكونوا

مهتمين بالأمور الدينيَّة.

وكان من الواضح أنَّه لم تكنْ هناك نية لحملة عسكريَّة فعليَّة، ومع ذلك جلب عامر بن طفيل، ابن شقيق أبي براء، الكارثة عليهم، والدوافع الدقيقة غير معروفة، بطبيعة الحال لم يتمكَّنْ من إقناع أبناء قبيلته، تحت حماية أبي براء، من إيذائهم، لكنَّه نجح في تحريض مجموعة كبيرة من قبيلة سليم ضدَّهم، لأنَّ أحدهم فقد ابن أخيه في غزوة بدر.

ثم هاجموا بنوا سليم فجأة عند بئر المعونة فقتلوا أكثرهم إلَّا اثنين، نجا أحدهما لأنَّه عدَّ نفسه ميتاً متخلفاً، أمَّا الآخر، وهو عمرو بن أميَّة، فقد التحق بالقتال بعد أن اندلعت المعركة فأسر، فأطلق سراحه بناء على شهادة أبي البراء، فلمَّا عاد لقي عمرو اثنين من المشاركين نائمين ظنَّ أنَّهما من بني عامر فقتلهما غضباً من الهزيمة، إلَّا أنَّ هذا الفعلَ أزعج النبيّ، فقد كان أبو البراء يعاملهما بلطف، وكانا في حمايته، لذلك رفض تماماً عدم دفع فدية الدم الكاملة لأقرباء المقتولين، كان أبو البراء حزيناً بشدَّة، بسبب وفاة من كانوا تحت حمايته، ولكنَّه لم يكنْ قادراً على الانتقام، وقد أثَّرتْ ضربة بئر المعونة في محمَّد بشدَّة، ففقد كثيراً من أتباعه المخلصين، وساءت سمعته بين بدو نجد، وكان يلعن القبائل التي تسبَّبت في هذا الأذى كلّ صباح بعد الصلاة لعدَّة أيام، ونظراً لكثرة فدية الدم (200 جمل) ذهب محمَّد بنفسه مع بعض أصدقائه المقربين إلى حلفائه قبيلة بني النضير اليهوديَّة ليطلب منهم تحمل جزء من المبلغ، وخلال المفاوضات قيل إنَّهم حاولوا اغتيال محمَّد، ممَّا دفعه

إلى المغادرة والانسحاب في أقرب وقتٍ ممكنٍ[1].

لكن لم تكن هناك حاجة إلى مثل هذا الحدث، حيث تصاعد الغضب الذي كان يختمر من الجانبين لفترة طويلة بعد اغتيال كعب (انظر أعلاه).

وطالب محمَّد اليهود بمغادرة أرضهم، وحين رفضوا أعلن الحرب عليهم، وانتظر أهل النضير عبثاً الدعم من الحزب الكافر في المدينة [2]، على الأقلّ من قبيلة الأوس، الذين كانوا حلفاء لهم، ومع ذلك لم تتمكَّن القبيلة اليهوديَّة الأخرى في المنطقة؛ بنو قريظة، من دعم القبيلة المحاصرة، بسبب الخوف أو الغيرة القديمة، مع أنَّ القضيَّة كانتْ تخصهم أيضاً، وحاصر محمَّد اليهود لبعض الوقت (تتراوح التقديرات بين 6 و 25 يوماً)، وانسحبوا إلى قلاعهم المحصنة، ولم يبدوا أيّ استعداد للاستسلام، ولإجبارهم على الاستسلام قطع أشجار

(1) الكثير من المصادر العربيَّة والأجنبيَّة أفادتْ بأنَّهم اتفقوا على اغتيال النبيّ.

(2) ذكرت المصادر «بعث الرسول محمَّد بن مسلمة إلى يهود بني النضير لكي يقول لهم: «اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك منكم ضربت عنقه»، فلم يجد اليهود مناصاً من الخروج، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل والخروج من المدينة، غير أنَّهم كانوا حلفاء لعبد الله بن أبيّ بن سلول بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا ولا تخرجوا من دياركم؛ فإنَّ معي ألفي رجل يدخلون معكم حصونكم، يدافعون عنكم ويموتون دونكم، فأنزل الله سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ 11﴾ فلما رأى عبد الله بن أبي جدية الأمر، تخلفوا عن حلفائهم اليهود، فأنزل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ 12﴾.

النخيل الخاصة بهم، على عكس كلّ عادات الحرب العربيَّة، ممَّا تسبَّب في استياء كبير، وأخيراً وافق أهل بني النضير الذين حرموا ثرواتهم الرئيسة على الشروط، فغادروا المنطقة بحرّيّة بكلّ ما يملكون من منقولات، بشرط أن يتركوا أرضهم والمنطقة، وخرجوا وسط الموسيقا، وذهبوا إلى الشام، إلا أنَّ بعضهم، ومنهم شخصيَّات مرموقة، ظلّوا مع إخوانهم في خيبر على مسيرة أيام قليلة شمال المدينة، ولم يسترد منهم أملاكهم إلّا اثنان بعد اعتناق الإسلام.

وأعلن محمَّد لأصحابه أنَّ الأراضي المتبقية، التي تم الحصول عليها بالاتفاق، وليس عن طريق القتال العلنيّ، ليستْ غنائم للمسلمين، بل هي ملك حصريّ للنبيّ، وقد وزَّعها على المهاجرين من مكَّة الذين أصبحوا أصحاب أملاك وأغنياء فجأة.

حُقِّق هذا الانتصار المهمّ من دون أيّ سفك دماء تقدم يُعتبر في أعقاب هزيمة كبيرة في غزوة أحد، اختفت قبيلة العدوّ بأكملها، وأصبحت أكثر خطورة، بسبب تكوينها علاقات مع سكان مكَّة والمشركين المتبقين في المدينة، وكانت الخطة التدريجيَّة للقضاء على جميع اليهود المعتدين في هذه المنطقة قد اقتربت من الانتهاء، تبقى هذه الحملة العسكريَّة، التي جرتْ في الشهر الثَّالث من السنة الرَّابعة، ذات أهميَّة، بسبب إعلان محظور شرب الخمر على نحو نهائيّ للمؤمنين خلال هذا الوقت.

وفي نهاية هذا العام انتهى الموعد المحدَّد للقاء جديد مع قريش في بدر، فخرج محمَّد بجيش ضخم غير عاديّ، خرج من المدينة تحت حماية عبد الله

الابن المخلص لعدوّه عبد الله بن أبي، وانتظر ثمانية أيام في بدر، لكن جيش قريش لم يصل، ورغم انطلاقهم أعادهم أبو سفيان، بسبب الجفاف الشديد في ذلك العام، ممّاً جعل إمداد الجيش صعباً للغاية، ولم تكنْ استعداداته للحملة العسكريَّة الحاسمة على المدينة قد اكتملت بعد، وهذا يدل حقاً على حرص أبي سفيان على مصلحة مدينته الأم.

وفي الحادثة التالية التي وقعتْ في هذه الأثناء قتل أحد أبناء الوليد بن المغيرة، وهو هشام بن الوليد؛ زعيم قبيلة الأزد، أبا أزيهر الدوسي الأزدي، ولكنَّ هذا الأخير كان صهر أبي سفيان بمحض الصدفة. وفوراً بدأتْ عشيرة أبي سفيان بأكملها، إلى جانب حلفائها، في الصراخ للانتقام من بني مخزوم، وكادت أن تشعلَ حرباً أهليَّة بين أقوى قبيلتين في مكَّة؛ قبيلة مخزوم وعائلة الوليد بن المغيرة، بما في ذلك أبناؤه هشام والوليد وخالد، وهذا يعني أنَّ هناك فرصةً كبيرةً لمحمَّد لتحقيق النصر في مكَّة، وفي تلك اللحظة حضر أبو سفيان الذي كان غائباً طيلة تلك الفترة، وحثَّ ابنه يزيد الذي كان بين أقاربه المسلحين على العودة إلى ديارهم وتهدئة الموقف، وعد أنَّه من غير اللائق أن ينشأ خلاف بين قريش، بسبب صراع بين قبيلتين، وبكلّ سرور اعتمدوا على القصائد الساخرة لحسن الشاعر المسلم التي اتّهمهم فيها بعدم الانتقام لأقاربهم.

كانوا واثقين من أنَّ أبا سفيان حمى بلدته من إحدى أعظم الكوارث، لكن لا أحد يستطيع أن يفوق أهميَّة أبي سفيان الذي جعل عشيرته تنبذ

أيّ ثأر دمويّ، وفي ذلك العام أو العام التالي قاد محمَّد حملة ضد فصيل من غطفان نحو نجد، حيث التقى الأعداء، لكنَّهم لم يصلوا إلى سفك الدماء.

لا يُعرَف مدى تطور خطط محمَّد في ذلك الوقت، ويشير إلى أنَّه في السنة 5 (صيف أو خريف 626) قام برحلة إلى دومة الجندل، والمعروفة الآن باسم الجوف الشريط الخصب على الحدود السوريَّة (30-31 درجة شمالاً)، ومع الأسف لا تُعرَف الكثير من التفاصيل المحدَّدة على نحو أكبر حول معظم الرحلات إلى الشمال.

القسمُ الخامس

من حصار المدينة المنورة إلى فتح مكَّة

لكن هناك خطر جديّ يقترب، فقد اتفقتْ قبيلة قريش مع القبائل المعارضة في نجد على القيام بعمليَّة عسكريَّة مشتركة ضدّ المدينة، ولعلَّ جهود حيي بن أخطب؛ الزعيم اليهوديّ من قبيلة بني النضير، الذي يعدّه المسلمون المحرّض الرئيس لهذه الحرب، لم تكنْ ضروريَّة لإقناع أعداء محمَّد بالعمل والتعاون معاً، لا شكَّ أنَّ أبا سفيان كان يعمل في هذا الاتجاه لفترة طويلة، وهكذا تجمَّع الأعداء من كلّ جانب حول المدينة نحو أواخر العام الخامس (بداية عام 627)، وظهرتْ قبائل قريش بقيادة أبي سفيان وحلفائه من قبيلة كنانة البدويَّة، وتقدَّمت ثلاثة فروع من قبيلة غطفان من الشرق، مصحوبة بكثير من القبائل البدويَّة الأخرى، وأُسِّست علاقات مع آخر قبيلة يهوديَّة في هذه المنطقة؛ بني قريظة، وبدا أنَّ المدينة تتجه نحو الدمار،

واضطرَّ محمَّد، الذي كان مطلعاً على كلّ شيء، إلى اتخاذ موقف دفاعيّ هذه المرَّة.

كان هناك جزء كبير من المدينة محمياً من الهجوم بفضل التصميم والموقع الجغرافيّ الذي كان يتميز به، ووُضِعت حفرة أو خندق واسع حول الجزء المتبقي ليحميه، قد تكون هذه الفكرة جديدة تماماً بالنسبة إلى العرب، وربَّما لم يفكّر محمَّد فيها إلا بتوصية من سلمان؛ العبد الحرّ القادم من فارس.

استغرقَ تشييدُ هذا النظام الدفاعيّ جهداً كبيراً لمدة ستة أيام، وشارك النبيّ بنفسه في العمل بيديه، حين ظهر الأعداء من الجهة الشماليَّة وجدوا المدينة محميَّة بطريقة دفاع جديدة وغير عربيَّة، ووصفوها بأنَّها جبانة [1].

قرَّر محمَّد ومعه أتباعه مغادرة المدينة وإقامة معسكر لمواجهة الأعداء، توحَّد الجميع للدفاع عن المدينة، وتجمَّعت قوَّات محمَّد ووصلت إلى نحو 3000 رجل بالإضافة إلى القوات الحامية للمدينة، ومع ذلك اقترب العدد المقدَّر للأعداء من 10000 رجل بالإضافة إلى مئات الخيول، ومن الممكن وجود مشاركة من اليهود في أيّ لحظة، كان هناك شعور عام بالاكتئاب والقلق في

(1) وليم موير، «حياة محمَّد»، ص 321: «قالت قريش بغضب: (حقّاً، هذا الخندق هو حيلة أجنبيَّة، لم يقم بها أحد من العرب من قبل).» ويُذكر أنَّ أبا سفيان أرسل إلى النبيّ بكتاب يعاتبه فيه على الخندق، واصفاً إيَّاه بخدعة خسيسة ودنيئة. الواقدي، ص 208-209، وسيرة ابن هشام، ص 683-682، نقلاً عن كايتاني، «حوليات الإسلام»، ج 1، ص 625.

المدينة، حيث كان محمَّد نفسه قلقاً وخائفاً،[1] وكان السكان يشعرون بالاستياء ويخوضون التذمر، باستثناء القلة القليلة التي كان لديها إيمان قويّ، كان البقيَّة يلومون، ويعدون محمَّداً هو السبب وراء تعرضهم لهذه المحنة على نحو علنيّ أو ضمنيّ، ومع عدم وقوع قتال فعليّ حتى الآن، بل رميت بعض السهام من بعيد فقط، إلّا أنّه كان من الممكن في أيّ لحظة وقوع هجوم شامل، لذلك قرَّر محمَّد بنفسه البدء في عمليَّات المفاوضات، وأرسل إحدى رسائله إلى شخص ما من قادة قبائل غطفان على الحصول على ثلث محصول المدينة الرئيس الذي يتكوَّن من التمور[2] كان من المعتقد أنَّ انسحاب هذا القائد سيؤدي إلى انسحاب قبائل

---

(1) وليم موير، «حياة محمَّد، المجلد الرابع، ص 323: يذكر أنَّ قريش تمتعوا بميزة عددية كبيرة، بينما عانى أهل المدينة من الإرهاق المستمر، فانقسموا إلى مجموعتين: إحداهما تستريح والأخرى تقوم بدوريات دون راحة ليلاً أو نهاراً. أصيبوا بالإحباط بسبب الحصار المستمر دون أمل في رفعه، وكان النبيّ في حالة تأهب دائم لمنع خرق الخندق أو تهديد المدينة من الداخل. في ظل هذه الظروف، بدت صورة النبيّ ضعيفة في نظر بعض قومه، وازداد التشكيك بوعوده. وصف القرآن هذا الوضع الحرج بقوله: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ...} (الأحزاب: 10). ومع استمرار الحصار بين عشرة إلى اثني عشر يوماً، خطط النبيّ لخطة سريَّة للتفاوض مع جزء أقل عدوانيَّة من العدوّ.

(2) بحسب المصدر نفسه، أرسل النبيّ سرّاً رسالة إلى عيينة بن حصن، زعيم قبيلة فزارة، يعرض عليه انسحاب قبائل غطفان لتفكيك جيش الأحزاب، مقابل حصوله على ثلث إنتاج النخيل في المدينة. أبدى عيينة استعداده مقابل نصف الإنتاج، لكنَّ النبيّ بالغ في تقدير سلطته، إذ أرسل ممثلين من قبيلتي الأوس والخزرج للصلح، فرفضوا العرض، رغم بقائهم على ولائهم للنبيّ. وأضافوا: «إن كان الله قد أمركم بهذا فاعمل به»، فردَّ النبيّ: «لو كان أمراً من الله ما استشارتكم، إنَّما أطلب رأيكم فيما هو أنسب».

بدويَّة أخرى وجذبها من نجد حتماً، وسيُترك وحده مع الأعداء الرئيسين، ومع ذلك رفض شخصيَّات فخورة مثل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وهما من أبرز زعماء الأوس والخزرج على التوالي، مثل هذه الصفقة بفخر.

وافق محمَّد على رأيهم وأنهى المفاوضات، استمرَّ الحصار لمدَّة شهر وعشرة أيام وفقاً لقصيدة معاصرة ذكرها ابن هشام، بينما تذكر الروايات فترة أقصر، كانت هناك معركتان خطيرتان فقط، حيث تمكَّن بعض الفرسان من عبور جزء ضيق وضعيف من الخندق[1]. ومع ذلك، فإنَّ افتقار العرب إلى المعرفة حتى بأبسط تقنيات الحصار منع من تحقيق اختراق حقيقيّ في الخندق، لا بدَّ أنَّ الأعداء قد سئموا الحصار، وبسبب الطقس الشتويّ البارد إلى حد ما في هذه المنطقة، أتلف مواشيهم وإمداداتهم، ممَّا أثار المخاوف من نقص عام في الغذاء.

---

(1) وفقًا لما ورد في السيرة النبويَّة لابن هشام (ج 2، ص 224)، ذكر ابن إسحاق أنَّ فرسانًا من قريش، منهم عمرو بن عبد ود العامري، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب، تهيؤوا للقتال وخرجوا على خيولهم، وحثوا بني كنانة على الاستعداد للحرب. وبعد أيَّام من المناوشات دون تحقيق أيّ خرق للحصن، وقعت حادثة واحدة بارزة عندما اخترق عمرو بن عبد ود الحصن غير المحروس من جهة المدينة. تحدَّى عمرو المسلمين للقتال بصوت عالٍ قائلاً: «من يريد قتالي؟!»، فخرج له عليّ بن أبي طالب. وفي عرض شجاعته، قطع عمرو ساق جواده الأماميَّة وأعلن استعداده للموت رغم عمره الذي قارب التسعين. اشتبك مع عليّ في قتال انتهى بمقتله على يد عليّ. هذا الحدث أدَّى إلى تراجع فرسان مكَّة بسبب تقدّم المسلمين.

عملت القبائل المختلفة على حِدَتِها في أثناء الحصار لأنَّها لم تكنْ لها قيادة مشتركة وكثيراً ما كانت تعمل على نحو فرديّ، بالإضافة إلى ذلك نجح محمَّد في إثارة الشك والشقاق بين الأعداء الأجانب واليهود من خلال المفاوضات الماهرة، ممَّا منعهم من المشاركة بنشاط في الحصار، ومن المحتمل أن يكون أبو سفيان قد سمع عن مفاوضات محمَّد مع زعماء قبيلة غطفان.

تسبَّبتْ عاصفة شتويَّة عنيفة، وهي ظاهرة شائعة في المنطقة، في سقوط الخيام وأواني الطبخ للمحاصرين وإطفاء الحرائق، قرَّر أبو سفيان بسرعة سحب القوات في أثناء الليل، وتبعه آخرون، وحُرِّرت المدينة في النهاية بخسارة ستة أشخاص فقط، بما في ذلك سعد بن معاذ، الذي توفي متأثراً بجراحه بعد فترة وجيزة، عاد الجيش إلى المدينة في صباح اليوم التالي، لكن عند الظهر، دعا محمَّد المسلمين إلى مهاجمة قبيلة بني قريظة اليهوديَّة فوراً، التي شكَّلتْ تحالفاً مع العدوّ [1].

(1) حول بني قريظة: تناول المستشرقين قضية بني قريظة من زوايا مختلفة. ذكر وليم موير في كتابه «حياة محمَّد»، المجلد الثالث، الصفحات 282-268، تفاصيل موسَّعة عن أحداث بني قريظة وما أعقبها من تداعيات. أما سبرينجر، في كتابه «حياة محمَّد»، المجلد الثالث، الصفحات 228-217، فقد استعرض القصة من منظور نقديّ. من ناحية يعبّر كايتاني في «تاريخ الإسلام»، المجلد الأول، الصفحات 638-627، عن شكوكه في الرواية الإسلامية التقليديَّة. يقول كايتاني: «يبدو لي أنَّ قبيلة قريظة كانت قبيلة غير محاربة، وأنَّ اتهامها بالخيانة والمشاركة في حصار الخندق ملفقة بالكامل لتبرير ما حدث لهم. يشير التاريخ إلى مثل هذه المظالم، والرواية الإسلامية تُظهر محاولة لتبرئة محمَّد من مسؤوليَّة مباشرة عن المذبحة التي أودت بحياة نحو 900 شخص. الخداع واضح في الرواية، حيث يبدو أنَّ انتهاك المعاهدة المزعوم اختُرِع

انسحبَ اليهودُ الذين لم يكونوا جاهزين للهجوم إلى قلاعهم والاحتماء هناك، ومع ذلك أجبرهم الشعور بالجوع على البدء في المفاوضات، طلب من أبي لبابة، وهو أحد الأوس، الذي كان في السابق صديقاً لهم، تسليمهم، لكن تأثَّر ببكاء النساء والأطفال، ولم يتمكَّن من إخبارهم أنَّه لا ينبغي لهم أن يتوقعوا أيّ رحمة، وشعر بندم شديد على هذا التصرف الذي لم يكنْ يجب أن يفعله وفقاً لتعليماته، وأبقى محمَّد بجانبه بضعة أيام في المسجد حتى أكَّد له العفو من الله، في النهاية استسلم بعد حصار استمرَّ لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، طالب الأوسيون محمَّداً بالرحمة لأنَّهم حلفاء لهم في كثير من المعارك القديمة، ومنح الحياة لبعضهم من أجل الخزرجيين سابقاً، سأل محمَّد إذا كانوا راضين عن قرار رئيسهم القديم سعد بن معاذ الذي ما زال مصاباً، ووافقوا، استدعى سعد وقرَّر وفقاً لرغبة محمَّد، دون أن يفكر في تأثيرها المستقبليّ، وهو أن يُقتل جميع الرجال، وتُوزَّعَ النساء والأطفال بعدّهم عبيداً، وقد أُعْدِم جميع الرجال، حيث تتراوح التقديرات بين 600 و 900 رجل، وقُتِلت امرأة لأنَّها قتلتْ رجلاً مسلماً بحجر رحى في أثناء الحصار، ومن بين الذين أُعْدِموا كان أحدهم، الذي ألقى بنفسه في قلعة قريظة.

حتى إنَّ المسلمين لا يمكنهم إنكار أنَّ اليهود ماتوا ببهجة وشجاعة من أجل إيمانهم وعقيدتهم، وقليلون فقط نجوا من خلال الدخول في الإسلام،

لتبرير مذبحة بني قريظة أمام الأجيال القادمة. كان حكم سعد بن معاذ، الذي أقرّ المذبحة، متأثراً وموجهاً من قبل النبيّ، الذي أوضح له القرار المطلوب، مما يجعل المسؤوليَّة الكاملة للمذبحة تقع على النبيّ». (حوليات الإسلام، المجلد الأول، ص 632).

بِيعت النساء والأطفال جزئيّاً إلى النجد، ليتم تبادلهم هناك بالأسلحة والخيول، التي كانت تنقص محمَّد بشدَّة، وُزِّعت غنائم اليهود، واحتفظ محمَّد بالجميلة ريحانة، التي قبلت الإسلام بعد فترة طويلة، ظلَّتْ أَمَةَ له دائماً، توفي سعد بن معاذ بعد أن حكم على قبيلة بني قريظة بقسوة، وانتهت الحملة التي بدأها في ظلّ ظروف غير مواتية لمحمَّد بنجاح كبير، لم تتمكَّنْ قوَّات العدوّ من إلحاق الأذى بالمدينة، وقُضِي على اليهود تماماً من محيطها.

انتشرتْ شهرة محمَّد على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربيَّة، واستمرَّ نفوذه في المدينة نفسها في النمو، بدأ يتبنى موقفاً قياديّاً أكثر سلطة، وقد كان مسكنه وطعامه وملبسه وأثاث منزله بسيطاً مثل أيّ مواطن آخر في المدينة، لكنَّه ابتعد قليلاً عن الجماهير، وطالب باحترام أكبر في تعامله مع الآخرين.

أصبحتْ زوجاته الآن معزولات تماماً عن العالم الخارجيّ، وكان أيّ تفاعل أو اتصال معهن محظوراً، وفي هذا الوقت توسَّع حريمه بحضور ريحانة وزينب بنت جحش، كانت الأخيرة زوج الابن المتبنى زيد، وفقاً للعرف العربيّ، كانت زوج الابن المتبنّى محرَّمة إلى الأبد على الأب البيولوجيّ، تماماً مثل زوج ابنته، ومع ذلك فسَّر محمَّد، الذي كان يحبّ زوج زيد بشدَّة [1] هذا من خلال الوحي، وذكر أنَّ علاقة التبني أكثر مرونة، أدَّى هذا إلى طلاق زيد

(1) يقول وليم موير في كتابه «حياة محمَّد»، المجلد الرابع، الفصل الأخير: «إنَّ المصادفة كشفتْ عن كامل سحر زينب الثانية أمام نظرات الإعجاب من النبيّ. كانت زينب زوجة زيد؛ ابنه بالتبني وصديقه المقرب، ولكنَّ النبيَّ لم يستطع كبح المشاعر التي اشتعلتْ في قلبه، وبأمر إلهيّ، انتهى الأمر بزينب أن تُنقل إلى فراشه».

لزوجه، وتزوجها محمَّد، ففي هذه العلاقات القائمة على القدوة والزعامة هو عليه أن يذكرها باستمرار بلغة دينيَّة في القرآن، لكن يجب أن نأخذ بالحسبان أنَّ مفاهيم العرب للعلاقات الزوجيَّة كانتْ مرنة إلى حدّ ما.

ففي السنة السَّادسة التالية شنَّتْ عدَّة حملات صغيرة ضدّ القبائل العربيَّة المجاورة والبعيدة، وكان بعض هذه الحملات يهدف إلى تأديب قبائل غطفان التي كانتْ تثير القلق بين المسلمين بغاراتها على قطعانهم، وشنَّت حملة لإخضاع سكان دومة الجندل، وكان بعضهم من المسيحيين جزئيًّاً، وقاد محمَّد بنفسه حملة ضدّ قبيلة هذيل التي قتلت أصحابه في الراجحي، ورغم اتخاذه التدابير الاحترازيَّة، فقد انكشفت نيَّاته، فانسحبت القبيلة إلى منطقتها الجبليَّة النائية، واضطرَّت إلى التراجع دون مواجهة العدوّ، بعد أن قضت بعض الوقت بالقرب من مكَّة تحاول بث الرعب في قلوب قريش، وقد اشتدَّتْ حدَّة العداء والتحريض ضد محمَّد، ولا سيَّما بين القبائل البدويَّة، من جانب اليهود الذين كانوا ما يزالون يعيشون على بعد بضعة أيام شمال المدينة، وخاصة من جانب بعض قبائل النضير التي استقرَّت في خيبر، وقد قضى محمَّد على بعض أعدائه الرئيسين من خلال أعمال القتل، وقيل إنَّ محاولة اغتيال فاشلة جرتْ ضدَّ أبي سفيان في العام نفسه.

ولعلَّ الهجومَ على قبيلة بني المصطلق، وهي فرع من قبيلة خزاعة، قد وقع في هذا العام أيضاً، والسبب وراء هذا العداء غير معروف، وربَّما انضمَّتْ هذه القبيلة إلى قريش في أثناء حصار المدينة، فهاجم محمَّد القبيلة

فجأة في «ماء المريسيع»، وبعد معركة قصيرة قُتل بعض الأعداء، وقتل أحد المسلمين عن غير قصد على يد أحد رفاقه، ووقع جزء كبير من القبيلة، مع عائلاتهم وممتلكاتهم، في الأسر، وأدخلت جويرية؛ الابنة الجميلة لأحد القادة، سعادة كبيرة على النبيّ إلى الحدّ الذي جعله يطلق سراحها ويتزوجها، وبسبب القرابة التي نشأتْ بينه وبين النبيّ، ترك المسلمون جميع الأسرى، وأعادوا إليهم الغنائم، وسرعان ما عُقِدت معاهدة صداقة مع القبيلة، وفي طريق العودة، أصبحت عائشة؛ زوج محمَّد الحبيبة، التي تخلفت عن الجيش بالصدفة، وأعادها مسلم يُدْعَى صفوان، موضع شك وشائعات خبيثة بشأن علاقة جنسيَّة معه. لقد استقبل العرب المحبُّون للفضائح موضوع خيانة عائشة بشغف، ولا سيّما الطرف المعارض للنبيّ، وبعد تردّد طويل سمح محمَّد لعائشة بالعودة إلى بيت أبيها أبي بكر، وأخيراً أعلن محمَّد براءتها من خلال آية في القرآن، وصف فيها من اتهموها بالكذب، واستحقوا العقوبة بالجلد[1].

وقد نفذ هذا العقاب على الشاعر حسان بن ثابت، الذي اغتنم الفرصة لكتابة بعض الأبيات الساخرة الخبيثة، ونفذ على حمنة، التي اغتنمت الفرصة بكل سرور لمهاجمة منافستها المكروهة عائشة، التي أهانت أختها زينب[2]

(1) قد طُبِّقت عقوبة التشهير بالجلد على كلّ من نشر مثل هذه الاتهامات الكاذبة.

(2) وفقًا للمصدر ذاته، يُقال إنَّ حمنة بنت جحش الأسديَّة، أخت زينب بنت جحش زوج النبيّ، أبدت سرورها عند إهانة عائشة، معتبرة أنَّ ذلك يصبّ في مصلحة أختها زينب التي كانت تراها منافسة لعائشة.

(زوج زيد السابقة وزوج محمَّد الحاليَّة)، ونفذ على مسطح أيضاً؛[1] ابن عم عائشة، إلَّا أنَّ محمَّداً لم يجرؤ على معاقبة عبد الله بن أبي سلول، الذي اتَّهم عائشة زوراً بالخيانة، على الرَّغم من التعبير علناً عن إحباطه من تنامي قوَّة عبد الله ونفوذه في الوقت نفسه .

وقد تحمل حسان بن ثابت الجبان ليس الضربات الجسديَّة والجلد فحسب، بل الخوف من الموت الذي أصابه بضربة سيف صفوان أيضاً، وقد ألطف لعائشة بالاعتذار الرسميّ، ولا نستطيع الآن أن نحدّد إذا ما كانت عائشة مذنبة أم لا، لكن يبدو لي أنَّ قرار محمَّد يشير إلى أنَّه عدها في نهاية المطاف بريئة، فهو لن يأتمن امرأة مشبوهة على سلطة القرآن ورسالته، وإن كان يحبُّها، وإيماننا بهذا، ولدينا ثقة كبيرة في هذا الأمر، ومع ذلك لأنَّ الشك كان يحيط ببراءته، فإنَّ عائشة لم تغفر، ولم تسامح عليّاً قط لأنَّه كان شاكّاً في براءتها[2].

وفي العام نفسه حدث مشهد محليّ أكثر إمتاعاً، فقد تزوَّجت زينب ابنة محمَّد بأبي العاص، وهو رجل مكّيّ، وبقيت معه حتى بعد هجرة أبيها إلى المدينة، وقد وقع أبو العاص في الأسر بالقرب من بدر، فأرسلت زينب فدية

(1) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، المطلبي المهاجريّ البدريّ، كان رجلاً فقيراً، وكان أبو بكر الصديق يعيله لكونه من أقاربه.

(2) انظر بيرسيفال، ص 168، «مقال عن التاريخ العربيّ قبل الإسلام: «حثَّ عليّ بن أبي طالب النبيّ على استدعاء بريرة بنت صفوان، خادمة عائشة، وسؤالها عنها قائلاً: «اسأل هذه الجارية، لعلَّها تكون صادقة». فدعا النبيّ بريرة، وعند حضورها، قام عليّ بضربها بشدة، قائلاً: «اصدقي النبيّ». فأجابت: «لا أعلم عن عائشة إلا كل خير».

كبيرة لتأمين إطلاق سراحه، فأعادها محمَّد إليها، وقد أعطى أبا العاص حريته بشرط أن يرسل زوجه إلى المدينة، والآن وقع أبو العاص في الأسر مرَّة أخرى هذا العام، وهو يرافق قافلة قرَّر أهل مكَّة إرسالها إلى الشام مرَّة أخرى، ولكنَّها سقطت في أيدي المسلمين، فتوسَّلت زينب إلى طليقها بالعفو، وطلبت من أبيها أن يتوسَّل إلى المسلمين لإطلاق سراح الأسير وإرجاع ما كان له، وقد تأثَّر أبو العاص بعطف زينب ومحمَّد إلى الحدّ الذي جعله بعد عودته إلى مكَّة وتسوية أموره يقرّر العودة إلى المدينة واعتناق الإسلام، والتحق بزوجه التي كانتْ في المدينة، إلَّا أنَّها توفيت في العام التالي.

في العام السَّادس (من صفر إلى ربيع الأول 628) وضع محمَّد خطة كبرى ضدّ مكَّة نفسها، أراد أن يشارك المؤمنون الذين كانوا معه مرَّة أخرى في موسم الحج، لكن لم يكنْ هناك أمل في ذلك إلَّا إذا كان مصحوباً بقوَّة عسكريَّة هائلة، لذلك طلب من أتباعه في المدينة والقبائل البدويَّة الصغيرة المجاورة، الذين دعموه مراراً وتكراراً، واعتنقوا الإسلام جزئيَّاً أو كليَّاً، أن يرافقوه في رحلة حج أكبر، ولكنَّ معظم البدو رفضوا، لو كان جيشه كبيراً بما يكفي، لكان من المحتمل أن يهدف إلى استعادة مكَّة في ذلك الوقت، ولكن الآن مع قوَّته التي تتراوح بين 1400 إلى 1600 فرد فقط، لم يكنْ هناك أيّ احتمال لحدوث ذلك.

لم تكنْ نيَّة محمَّد الحقيقيَّة حين اقترب من محيط الكعبة مجرَّد أداء الحج الأكبر، الذي يتمّ في الشهر الأخير، لكن أداء الحج الأصغر أيضاً، الذي

يمكن القيام به في الشهر السَّابق الذي لم يكنْ له نيَّات عدائيَّة، كانتْ نيَّاته صادقة حتماً.

ولكنَّ قريشاً نظرتْ إلى الموقف على نحو مختلف، فسلَّحت نفسها لمنع دخوله إلى المنطقة المقدَّسة، وبينما كان في عسفان؛ المحطة قبل الأخيرة في طريق الحج، سمع الاستعدادات في مكَّة، وشاهد حشود الفرسان، فانحرف بسرعة عن الطريق الرئيس، وسلك طرقاً صعبة من اتجاه آخر ليصل إلى المنطقة المقدَّسة، وأقام معسكره في الحديبية، على الحدود الجنوبيَّة أو الجنوبيَّة الغربيَّة لمكَّة، وأرسلتْ قريش رسولاً يستفسر عن نيَّاته، فأجاب بأنَّه جاء لغرض الحج فقط، وأرسلت الرسل من الجانبين دون التوصل إلى نتيجة، وظلَّ رأي قريش في رفضهم السماح له بالدخول، وعدّوا السماح لجيش بدخول مدينتهم رغماً عنهم أمراً مخجلاً وغير مقبول، وحتى لو كان ذلك يعني معاملة الحجاج كالأعداء، فإنَّ منعهم من أداء فريضة الحج كان يعدُّ كفراً، وأخيراً أراد محمَّد أن يقومَ بمحاولة أخيرة، ولقد عهد إلى عمر بالتفاوض مع قريش، لكن عمر قال إنَّ له أعداء شخصيين كثيرين في مكَّة، وإنَّ أسرته؛ بني عدي، ليستْ قويَّة بالقدر الكافي لحمايته، فاقترح أن يُرسَل عثمان بن عفان بدلاً منه، وتم ذلك، ولكنَّ عثمان أخفق في التفاوض مع زعماء قريش أيضاً، الذين لم يعترضوا على السماح له بأداء فريضة الحج لمحمَّد فقط، وليس للآخرين.

وبعد تأخر عثمان في العودة، انتشرتْ بين المسلمين فجأة شائعة مفادها

أنّه قُتِل، ففسَّر محمَّد ذلك على أنّه إشارة إلى أنّه يجب أن يتوقَّع الأسوأ من قريش، لذا أجرى مراسم رسميَّة لأداء القسم تحت شجرة «السنط»[1] حيث كان يقف، وطالب كلّ من حضر بالقسم على مرافقته حتى الموت، ثم عاد عثمان، واتَّضح أنَّ الشائعة كاذبة، فقد تحقَّق مفهوم «إرضاء الله»، وبينما لم يكن القسم ضروريَّاً في تلك اللحظة، فإنَّ كونه بين أولئك الذين يكرمونه كان يُعَدُّ اعترافاً مميزاً وخاصَّاً للغاية.

أرسلت قريش سهيلاً[2] للتفاوض على اتّفاق، كان جزء من رغبتهم هو أن يتمكنوا من إرسال قوافلهم مرَّة أخرى إلى المدينة، وجزء آخر كان الضغط من حلفائهم البدو المجاورين الذين عدّوا رفض أداء الحج عملاً مشيناً، ممَّا دفعهم للتوصل إلى اتّفاق رسميّ مع محمَّد، تم التوصل إلى هدنة لمدَّة عشر سنوات بشرط أن يتمكَّن المسلمون من قضاء ثلاثة أيام بوصفهم حجاجاً في الأرض المقَّدسة في العام التالي، كانت الشروط الأخرى متساوية لكلا الجانبين، باستثناء أنَّ أهل مكَّة الذين فروا إلى محمَّد دون إذن آبائهم أو أيّ ولي أمر آخر كان يجب تسليمهم، في حين لم تكنْ مكَّة ملزمة بتسليم أيّ مسلم هارب، وأصرَّ أهل مكَّة على الإشارة إلى محمَّد ببساطة باسم «ابن عبد الله» في الاتفاقيَّة، بدلاً

(1) هذه الواقعة المعروفة بين المسلمين تُسمَّى «بيعة الرضوان» أو «بيعة الشجرة»، وكانت تحت شجرة تُدعى «السمرة» أو «القرض»، وهي شجرة شوكيَّة من الفصيلة البقوليَّة. تنتشر هذه الشجرة في مناطق إفريقيا، والشرق الأوسط، وشبه القارة الهنديَّة، وتتميَّز بقدرتها الفائقة على تحمّل ظروف الجفاف ودرجات الملوحة العالية.

(2) سهيل بن عمرو بن عبد شمس المعروف بأبي يزيد العامريّ القرشيّ، كان من أبرز خطباء قريش، وأسلم يوم فتح مكَّة.

من «رسول الله»، وإضافة إلى ذلك، لم تكن الصيغة الافتتاحيَّة المستخدمة هي التحيَّة الإسلاميَّة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» بل «بسمك اللهمَّ»، التي كانتْ شائعة في مكَّة لبعض الوقت.

توقَّع المسلمون بعد أداء القسم أنَّهم سيشاركون في قتال وتحقيق للنصر، خاصة بعد أن أخبرهم محمَّد بحلمه بدخولهم مكَّة بوصفهم حجاجاً، ومع ذلك شعروا فجأة بخيبة أمل كبيرة، وعبروا عن غضبهم بصوت مرتفع، زاد الغضب هذا حين قام مكّيّ مسلم بالهرب بعد انتهاء الاتفاق، وتسليم نفسه مرَّة أخرى لوالده الكافر.

أُقْنِع محمَّد بصعوبة بأداء شعائر نهاية فترة الحج، بما في ذلك ذبح الأضحية وتقصير الشعر، وعلى الرَّغم من ذلك تحقَّق محمَّد مكسباً كبيراً من خلال هذا الاتفاق، حيث اضطرَّت قريش إلى التفاوض معه بمثلية، الآن لديه اتفاقيَّة سلام مع أخطر أعدائه، ويمكنه العيش بأمان والبدء في تنفيذ المشروعات الضخمة التي كان يخطِّط لها منذ فترة طويلة.

تزايدتْ شهرته بين العرب، بسبب الشائعات التي تفيد بأنَّه أجبر أهل مكَّة على السلام، وأنَّهم يجب أن يسمحوا للمسلمين بزيارة مكَّة في العام القادم، وعلى الرَّغم من الشروط السيئة للاتفاقيَّة لم تضره.

أمر في الوقت نفسه بنهاية زواج المؤمنين من النساء الكوافر، وبعد عودته من معركة الحديبيَّة، قاد محمَّد رحلة كبيرة بعد شهر أو بضعة أشهر،

حيث كان اليهود في خيبر، ولا سيَّما النضيريين الهاربين الذين استقرّوا هناك، قد أظهروا العداء تجاهه، واستهدفوا من قبل المسلمين عدَّة مرات، ثم أعلن محمَّد خطته، وانطلق بجيش من 1600 رجل وأكثر من 100 حصان، بما يفوق أعداد حملاته العسكريَّة السابقة، واستغلَّ الفرصة لصدم سكان خيبر حتى لم يهربوا إلا عند سماعهم صيحة «محمَّد والجيش!». وقد تعرَّضت حصون اليهود للغزو تدريجيّاً على مدى بضعة أيام، ولم تبدِ إلا الحصون الأخيرة مقاومة جديّة، ممَّا أسفر عن مقتل كثير من المسلمين، وفي النهاية استسلم الجميع بشرط الحفاظ على حياتهم، لكن مع تسليم كلّ ممتلكاتهم، وبعد استسلامهم وافق محمَّد على اقتراحهم بالحفاظ على حياتهم فقط، وهذا دفع الناس الذين ذهبوا في الصباح الباكر إلى عملهم في الحقول إلى التفرّق، أمَّا العمال الذين كانوا يؤجرون أراضيهم الخصبة وبساتين النخيل، والذين يعرفون كيف يستغلونها على نحو فعَّال، فقد سُمح لهم بالاحتفاظ بها، لكن كان عليهم تسليم نصف العائدات لأصحابها الجدد، ولم يقتل إلا كنانة لأنَّه رفض، حتى تحت التعذيب، الكشف عن كنوز النضير[1].

(1) السيرة النبويَّة، ابن هشام، ج 3، ص 799-800: «أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع الذي كان يحتفظ بكنز بني النضير، فسأله عنه فأنكر معرفته بمكانه. فأخبر رجل من يهود النبيّ أنَّ كنانة يذهب يومياً إلى خربة معيَّنة. فسأله رسول الله: «أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟» فأجاب كنانة: «نعم.» فأمر النبيّ بحفر الخربة، فوجدوا جزءاً من الكنز. عندما سُئل عن باقيه، رفض كنانة الكشف عنه. فأمر النبيّ الزبير بن العوام بتعذيبه حتى يعترف، فاستعمل الزبير زنداً في صدره حتى أشرف على الهلاك. ثم أمر النبيّ بتسليمه إلى محمَّد بن مسلمة، فقتله ثأراً لأخيه محمود بن مسلمة».

ثم تزوَّج محمَّد زوجه صفية بنت حيي بن أخطب، حيث نالت حريتها الشخصيَّة كهدية زواج، ويبدو أنَّها تكيَّفتْ بسهولة مع مصيرها بالزواج من الشخص الذي تسبَّب في وفاة أحبائها، أقيم حفل الزفاف قبل عودتهم إلى المدينة، لم تتحمل، يهوديَّة أخرى، كارثة دمار بيتها بسهولة، قدَّمت لمحمَّد شاة مسمومة. توفي أحد رفاق محمَّد مباشرة بعد تناولها، ولكنَّ الجزء المُخصَّص للنبيّ كان مسموماً بشدَّة؛ إذ اكتشف التسمم فوراً من الطعم السيّئ فتقيَّأ القطعة المختلطة بالسم، واعترفت فوراً، وتم إعدامه بحسب رواية، وتم العفو عنه بحسب رواية أخرى.

كانت الغنيمة هائلة، فاقتْ خيبر في الإنتاج على منطقة المدينة، وأصبحت هذه الزراعات الغنيَّة ملكيَّة لأصحاب محمَّد، ولقد أصبح كثير منهم أساساً لثرواتهم الهائلة فيما بعد، فقد أصبح بعض فقراء البدو فجأة أصحاب حصن غنيّ اقتحموه، ولم تقاوم فدك، وهي مستوطنة يهوديَّة، واستسلمتْ بالشروط نفسها التي استسلمتْ بها خيبر، وأصبحتْ ملكاً خاصاً لمحمَّد لأنَّها لم تكنْ تعدّ غنيمة حرب، لكن ليس من المستبعد أن يكون استسلام فدك قد حدث في وقت لاحق، فعند عودته استولى محمَّد على ممتلكات اليهود في وادي القرى، وبذلك احتلَّ منطقة غنيَّة بالكامل، وهو ما ينبغي أن يشجّعَ المؤمنين العرب الآخرين على الالتحاق بهذا الدين المنتصر من خلال الغنائم التي جمعوها، أمَّا فقراء اليهود فقد فقدوا آخر نقطة وقوف لهم حيث يمكنهم تحقيق موقف مستقل، وبعد وفاة محمَّد بقليل طردهم عمر من شبه الجزيرة العربيَّة تماماً.

وعند عودته وجد محمَّد ما أسعده كثيراً- المسلمون الذين فروا إلى الحبشة والذين جاؤوا إلى المدينة استجابة لدعوته، ولكيلا يعيشوا في الفقر، حصلوا فوراً على نصيب من غنائم خيبر، وكان من بين العائدين جعفر ابن عم محمَّد وأخو علي، وابنة أبي سفيان أم حبيبة، التي اعتنق زوجها النصرانيَّة في الحبشة، ومات على المسيحيَّة.

لقد تزوَّج محمَّد أم حبيبة، وكانتْ له دوافع سياسيَّة واضحة في هذه الزيجات مع بنات القادة المهزومين أو الذين ما زالوا يقاتلون ضده، فقد أراد أن يجتذبهن إليه أو أن يظهر كمكان انتصاره كاملاً، ولا بدَّ أن نلاحظ في كلّ هذه التصرفات أنَّ محمَّداً أخذ بالحسبان وجهات نظر العرب وآرائهم فيما يتعلق بالشرف والمجد، فقد سمح لنفسه بعدد كبير من الزوجات، بينما قصر أتباعه على أربع زوجات فقط (بالإضافة إلى عدد غير محدود من الجواري)، ومن الممكن أيضاً، على الأقلّ جزئيّاً، أن نعزو ذلك إلى رغبته في رفع مكانته وزيادة شهرته، وبعد عام من أداء الحج، ذهب محمَّد حاجّاً إلى مكَّة لأداء الحج الأصغر[1] الذي أصبح من حقه الآن وفقاً للاتفاقيَّة (في الشهر السابق لآخر شهر من عام 7 ربيع الأول 629)، وقد أخلت قريش المدينة، بينما كان الحجاج، كلّ واحد منهم مسلّح بسيف واحد فقط، على استعداد لحماية أنفسهم في حالة الخيانة، وكانتْ هناك مجموعة مسلَّحة معدّة في مكّة في

(1) ربَّما قرَّرتْ تجنب أداء فريضة الحج الأكبر الشهر الماضي، بسبب ازدحام كبير من جميع القبائل العربيَّة التي حضرتْ وكان يمكن أن تؤدي إلى حدوث صراع محتمل معهم بسهولة. [المؤلف]

حالة دخولهم، أدَّى محمَّد الطواف السبعة حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، ثم تبعه آخرون.

ويترك القارئ ليتخيَّل أحاسيس النبيّ حين عاد إلى بلدته بعد غياب طويل، ومارس المناسك المقدَّسة، وبعد إنهاء الرحلة، قُدِّمت التضحيات، وخلع رداء الحاجّ، وفي مكَّة تزوَّج ميمونة؛ الأخت الكبرى لعمه العباس، وأقام علاقات صداقة مع كثير من أهل قريش، لكن بعد مرور ثلاثة أيام، اضطرَّ إلى مغادرة مكَّة، بسبب ضغوط من بعض سكانها، وكانت العلاقة الوديَّة مع بعض قريش لها عواقب وخيمة، وعند عودته زاره خالد بن الوليد الذي حاربه، وعمرو بن العاص؛ فاتح مصر في المستقبل، وعثمان بن طلحة، حارس مفتاح الكعبة، ولم تكنْ أسباب هذا التحول واضحة، وتجدر الإشارة إلى أنَّ خالداً، الذي كان يحظى باحترام كبير لدى محمَّد، كان ابن عم ميمونة، ومن الصعب أن نتصوَّر تحوَّلاً حقيقيّاً بين هؤلاء الأفراد، على الأقلّ فيما يتعلَّق بخالد، مع إدراج رجال متميزين، فإنَّ هذا جذب كثيراً من الآخرين وقمع عداء كثير من الأعداء حتماً.

في هذه الأثناء، استمرَّت الهجمات الصغيرة ضدّ قبائل البدو بنجاح غالباً، توسَّعت الهجمات أكثر فأكثر، وزاد عدد المنضمين إلى الإسلام وكمية النهب، وُضِع الأساس بشكل متزايد لضرورة محاربة جميع الذين لا يقبلون الإسلام أو يستسلمون له من دون سبب آخر.

وبعد ذلك يتشدَّد هذا المبدأ حتى لا يبقى لعبادة الأصنام سوى

اختيارين، إمَّا الموت، وإمّا اعتناق الإسلام، في المقابل يجب أن يتم التسامح مع اليهود والنصارى كدفعة للجزية.

إنَّ قبولَ الإسلام بعدّه ديناً حقيقيّاً من قبل جميع الناس أمر يجب تشجيعه، وفي تلك الفترة أرسل محمَّد رسلاً إلى الحكام القريبين والبعيدين، بما في ذلك الإمبراطور البيزنطيّ وملك بلاد فارس، يدعوهم إلى قبول الإسلام والاعتراف به رسول الله[1]. ومع ذلك لم تحقّق هذه البعثات أيّ نجاح، حيث اختلف الأمراء الذين تلقوا الرسالة في مستوى القسوة التي رفضوا بها الرسالة، ووالي مصر؛ الحاكم اليونانيّ الملقب بالمقوقس، استجاب بلطف وحده، وأرسل بعض الهدايا إلى النبيّ، بما في ذلك جاريتانِ قبطيتان، احتفظ بإحداهما؛ مارية، كجارية، بينما أهديت الأخرى؛ سيرين، للشاعر حسان.

من ناحية أخرى أمر أمير عربيّ مسيحيّ على طول الحدود السوريَّة، وكان موالياً للإمبراطور، بقتل رسل محمَّد، بدأتْ صراعات خطيرة مع المسيحيين عند هذه النقطة، ولعلَّ الرسول كان يرغب في أن يتعرَّف إلى المسيحيَّة، ويفهم كيف تختلف معتقداتها رغم انقسامها إلى طوائف مختلفة، وذلك بسبب توسع تحالفاته السياسيَّة نحو الشمال أو عودته من أثيوبيا المسيحيَّة، ولم يتردَّد في مهاجمة المسيحيين إطلاقاً، وأدَّى مقتل الرسل أو بعض المسلمين إلى إرسال جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل إلى الشمال في رجب

(1) لم يذهب المبعوثون شخصيّاً إلى الأمراء البعيدين، بل سلّموا الرسائل إلى الحاكم التالي بينهم، ووصلت الرسالة إلى الملك الفارسيّ عن طريق حاكم البحرين (الساحل الشماليّ الشرقيّ للجزيرة العربيَّة) [المؤلف].

629، وتعيين زيد بن حارثة قائداً له.

وإذا مات زيد، تولَّى جعفر القيادة، وتبعه عبد الله بن رواحة، وتقدَّم الجيش حتى وصل إلى منطقة البحر الميت، وعلمت القوَّات الإسلاميَّة أنَّ هناك جيشاً يونانيّاً أكبر بكثير من العرب (والمسيحيين، وربَّما الوثنيين أيضاً) يتربص بهم، ورغم هذا تجرؤوا على خوض معركة مؤتة، لكنَّهم عانوا هزيمة كاملة، وسقط القادة الثلاثة المعينون بشجاعة في أثناء المعركة، واختير خالد بسرعة بوصفه زعيماً جديداً، ونجح هذا القائد الممتاز في إنقاذ بقايا الجيش، واستقبلت المدينة الجنود المنسحبين بالسخرية، حتى نهى محمَّد عن مثل هذه السخرية، وقد تأثَّر بشدَّة بفقد زيد المخلص وابن عمه الشجاع جعفر بن أبي طالب، الذي كان قد عاد لتوه من الحبشة، وبعد ذلك قاد عمرو مهمَّة نجحتْ في إخضاع بعض القبائل الواسعة النطاق أو إكراههم في الصحراء الشماليَّة، التي خطَّطت لإيذاء محمَّد بعد هزيمتها في مؤتة.

واستمرَّتْ سلطةُ محمَّد على القبائل البدويَّة في النمو، فقد استسلمتْ له قبائل قويَّة مثل غطفان وسليم وغيرهما من القبائل التي كانتْ تقاتله مؤخراً، وأرسلت إليه رسلاً، وكانتْ هذه القبائل تستسلم في المقام الأوَّل بدافع الضرورة أو المصلحة الذَّاتيَّة، وكانتْ تخضع أحياناً لأحد الحكام العرب الأقلّ شأناً على حدود الصحراء، لكن دائماً بقصد التحرّر من هذا الخضوع في أقرب وقت ممكن حتماً [1] كان من المزعج بالنسبة إليهم تحمل العادات

(1) يقومون حالياً بعمل شبيه مع الباشوات التركيَّة. [المؤلف].

غير المريحة المتمثّلة في الصلاة، حتى دفع العشر، لكن البدو لم يأخذوا كلّ هذا على محمل الجد، بالإضافة إلى ذلك كانتْ لديهم إمكانيَّة الحصول على تعويضات كبيرة عن الضرائب التي يدفعونها من خلال غنائم الحرب، ومع ذلك كان محمَّد يعرف كيف يكتسب ودّ الزعماء واحترامهم، ولذلك يشمل القبيلة كلّها، أحياناً من خلال اللطف والهدايا، وأحياناً أخرى من خلال السلوك النبيل.

القسمُ السَّادس

من فتح مكَّة إلى وفاة محمَّد

لقد ازدادتْ قوَّة محمَّد منذ صلح الحديبيَّة، حتى لم يعدْ هناك ما هو أفضل بالنسبة إليه من انتهاك صلح أهل مكَّة، فكان هناك هجوم بقيادة البكر، وهو فرع من قبيلة كنانة، وبمساندة بعض أفراد قريش، وهم فرع آخر من حلفاء محمَّد، من قبيلة بني خزيمة، فقتلوا بعضهم، وفوراً جاء بعض أفراد بني خزيمة إلى محمَّد يطلبون الانتقام والمساعدة، فوافق محمَّد فوراً على تلبية طلبهم.

وفي مكة بدأتْ أنباء مشاركة بعض المواطنين في القتال ضدّ حلفاء النبيّ تنتشر، ممَّا تسبَّب في قلق فوريّ من احتمال الحرب لأنَّ هذا من شأنه أن يكونَ انتهاكاً لصلح الحديبيَّة، وذهب أبو سفيان نفسه إلى المدينة لطلب التهدئة مع محمَّد، لكنَّه تلقى إجابة غير مرضية، وكان من المفترض أن تتوقع قريش

الحرب، لكنّها لم تتوقّع ظهور العدوّ بهذه السرعة، ومع ذلك أمر محمَّد قومه بالاستعداد، وقبل وقت قصير من المغادرة، أبلغهم بوجهة الرحلة.

حاول حاطب[1] المسلم الصالح الذي كان قلقاً على أقاربه في مكّة أن يخبرَ قريشاً باقتراب محمَّد، لكن رسالته اعترضت، فعاقب محمَّد حاطباً بالتوبيخ والاستبعاد، وازدادتْ قوَّة جيش المسلمين في أثناء الرحلة، فعند وصولهم إلى المحطة الأخيرة قبل مكّة، كان الجيش يتألف من نحو عشرة آلاف رجل، منهم ألف من قبيلة مزينة وسبعمئة من قبيلة سليم، وكانت الحملة في شهر رمضان من السنة الثّامنة (محرم 630)، فتوقف محمَّد عن الصيام عند اقترابه من مكّة، وتبعه الجيش كلّه، حيث كان من الصعب الصيام في أثناء الحملة العسكريَّة، واستمرَّ الجيش في التقدّم بسرعة.

ولم تسمع قريش إلّا شائعات غامضة حول هذا الأمر، ولم تتخذ أيّة استعدادات أو تدابير للدفاع عن نفسها، وكان العباس عم محمَّد قد جاء لمقابلته قبل أيام قليلة، واعتنق الإسلام ولقي ترحيباً حارّاً، واقترب منه بعض أهل مكّة الآخرين الذين كانوا في السابق معادين له بشدَّة، وبعد بعض التردّد قبلوا تحت رحمته، وقرب الظهران أمر محمَّد الجيش بإشعال أكبر عدد ممكن من النيران لإقناع مكّة فجأة بوجود جيش عدوّ قريب، ولا توجد مقاومة محتملة ضدّه، وكان العباس، الذي كان ما يزال يشعر بارتباط

(1) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة اللخمي، صحابيّ بدريّ، أسلم وهاجر مع المسلمين إلى المدينة المنورة.

أكبر بمسقط رأسه مكّة من ابن أخيه، يبحث عن شخص يمكنه نقل رسالة إلى أهل مكّة حول الموقف، وفي الطريق التقى بأبي سفيان، الذي كان برفقته اثنان آخران في جولة استطلاعيّة، وحين رأى أبو سفيان النيران التي لا تعدّ ولا تحصى، لم يكنْ من الصعب عليه أن يقتنعَ بأنَّ أيَّ مقاومة لن تؤدي إلَّا إلى إراقة دماء لا داعي لها، وكان من الأفضل له أن يذهب بنفسه إلى النبيّ.

ولقد بذلت الجهود لتحسين الأوضاع في مكّة، فتصوّروا فرحة النبيّ حين واجه خصمه اللدود يطلب منه المغفرة، لكن من أعظم المصاعب التي واجهها أبو سفيان اعترافه بأنَّ محمَّداً رسول الله، ومن ناحية أخرى فقد نال مكانة عظيمة في مكّة، حيث أعلن أنَّ كلَّ من لجأ إلى بيته، وكلّ من عاد إلى بيته، وأغلق أبوابه، وكلّ من لجأ إلى المسجد الحرام، فإنَّ حياته ستكون آمنة، وفي طريق العودة، أراه العباس الفصائل المختلفة والمجموعات العسكريَّة، وأخيراً الحلفاء الذين كانوا مسلحين بالكامل . المهاجرين والأنصار والنازحين من أهل مكّة، فقال أبو سفيان: «إنَّ أحداً لا يقاومه، والله يا أبا الفضل لقد عظم سلطان ابن أخيك الآن!»، فقال العباس: «قل النبوة»، فقال أبو سفيان: «نعم».

لقد كانتْ دعوةُ أبي سفيان وقرار أهل مكّة بالعودة إلى ديارهم النتيجة المرجوة، ولم يفكّر إلَّا عدد قليل من أعداء محمَّد اليائسين في المقاومة أو الفرار، أمَّا الباقون فقد انضمّوا إلى زعيمهم في قبول الحقيقة.

قسَّم محمَّد جيشه إلى أربعة ألوية لاقتحام مكّة من أربعة اتجاهات،

وحين صاح سعد بن عبادة قائد جيش المدينة فرحاً: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة اليوم يوم المعركة»، أخذ محمَّد الراية غاضباً، وكان حريصاً على الحفاظ على حرمة مكَّة قدر الإمكان، وسلَّمها إلى ابنه قيس.

نهى عن سفك الدماء، ما لم يكنْ هناك مقاومة، حدثتْ مواجهة على الجهة الجنوبيَّة فقط، انتصب هناك ابن أبي جهل عكرمة مع بعض الناس، لكن خالد، الذي اقترب من الجنوب بجيش مكوَّن بالكامل من البدو، طردهم سريعاً في الهروب، والبدو البرية تابعوا الهاربين بالقتل، سقط شخصان من جانب المسلمين فقط، وسقط ثمانية وعشرون من جانب خصوم محمَّد في هذه الأثناء، بعد أن تقدَّم من الشمال بنفسه أنهى القتل.

كان من أوائل أعمال الرسول الطواف حول الكعبة سبع مرات، ثم دخل الكعبة لأداء عبادته، فنظفها من الأصنام والصور التي كانتْ بداخلها، وأمر بهدم كلّ الأصنام في مكَّة، وأصدر عفواً عامَّاً، إلَّا عن عشرة أفراد وبعض الأشخاص الذين أغضبوا الرسول بارتكاب جرائم قتل أو ارتداد أو استهزاء به، فقتل منهم أربعة فقط، أمَّا الباقي فقد عفا عنهم بناء على شفاعة أصدقاء أو أقارب نافذين، ومنهم عكرمة الذي ورث عداوة أبيه لمحمَّد، وكان عكرمة وصفوان بن أمية قد هربا إلى الساحل بعد لقائهم بخالد، قاصدين السفر إلى اليمن، ولكنَّهما عادا بعد أن سمعا أنَّ محمَّداً يريد إنقاذهما، فطلب صفوان مهلة شهرين، وهي المهلة المسموح بها لقبول الإسلام، فأعطيه مهلة أربعة أشهر، وكان لعطف محمَّد على المهزومين، وصداقته

للجميع، ومصالحته لألد أعدائه، أثر عميق في أهل مكَّة.

لقد كان التسامح والنسيان هما السياسة المفضلة هنا، ولكن لا شكَّ أنَّ ميلها الطبيعيّ إلى التسامح والكرم هو الذي جعل هذه السياسة ممكنة، والآن يقبل أهل مكَّة الإسلام بصورة استثنائيَّة، ومع أنَّ كثيراً منهم لم يعتنقوا الدين إلَّا ظاهريَّاً، فإنَّ مجرى الأحداث كلّها جعل اللاجئ والعدوّ المكروه الآن حاكماً لأهل مكَّة ونصف شبه الجزيرة العربيَّة، وقوة لقد كان الإيمان الدينيّ والحماس سبباً في تحوّل كثيرين منهم إلى مسلمين صالحين، بعد أن كانوا أعداء للإسلام، ولقد تأثّر النبيّ تأثراً شديداً بالاستسلام الذي حدث دون قتال تقريباً في بلدته الحبيبة، وحين رأى أهل المدينة تعلقه بوطنه، خافوا أن يعود، ويستقرّ هناك من جديد من الآن فصاعداً.

لقد قال محمَّد الذي كان مديناً بكلّ شيء لأهل المدينة: «أينما تعيشوا أريد أن أعيش، وأينما تموتون أريد أن أموت!»، وبعد فتح مكَّة اضطر بلال إلى رفع أذانه من الكعبة، وكان مشهداً محزناً بالنسبة إلى قريش المتغطرسة أن يروا الإفريقيّ الخشن على كعبتهم المقدَّسة، وأشاد أحد قريش بأبيه بصوت عالٍ، لأنَّه مات قبل أن يشهد هذه العار.

وفي اليوم التالي قتل بعض الناس من قبيلة خزاعة في مكَّة رجلاً من قبيلة هذيل باسم الانتقام، وغضب محمَّد غضباً شديداً من ذلك، فدفع دية القتيل لأقارب الضحية، وأعلن أنَّ مكَّة والمنطقة المقدَّسة كلّها ستظلّ مقدَّسة كما كانتْ من قبل، وكان له الحقّ في دخول مكَّة بالقوَّة العسكريَّة،

لكن في ذلك اليوم المحدَّد فقط، وأكَّد بقوَّة في ذلك الوقت على أنَّ كلَّ الدماء التي أريقت قبل الفتح يجب أن تمرَّ دون عقاب، وأنَّ كلَّ الناس متساوون، من أجل وضع حدّ للصراعات المستمرَّة حول ثأر الدماء وتفوّق المسلمين.

لقد دفع محمَّد دية لأسر المتوفي وأعطاهم الهدايا، وكان موقف محمَّد المتغير واضحاً في حقيقة أنَّ الشعراء نفسهم الذين اعتادوا السخرية منه، ومن رفاقه في الماضي، أصبحوا الآن يتغنون في مدح مجده وشهرته ومكانته، في هذه القصائد يُحتفل بمحمَّد بعدّه بطلاً قويَّاً بدلاً من مجرّد نبيّ رسول، يتميز بكلّ الفضائل المعروفة لدى العرب، ولا سيَّما الكرم.

بقي محمَّد في مكَّة لمدَّة تتراوح بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، ثم شرع في حملة عسكريَّة جديدة، وهناك اجتمع جزء كبير من قبائل هوازن المتفرعة بكثافة للدفاع عن حريتها ضدّ محمَّد، بقيادة الشاب مالك بن عوف، وشارك أهل الطائف، الذين كانتْ لديهم حساسيَّة تجاه مكَّة، في الاستعدادات ضدّ محمَّد، معتبرين أنفسهم جزءاً من قبيلة هوازن، على الرَّغم من انتمائهم إلى قبيلة جعد التي هاجرت منذ فترة طويلة سابقاً.

تلقى محمَّد معلومات من كشافيه عن تحرّكات الأعداء، فعزَّز جيشه بألفي رجل من مكَّة والمناطق المجاورة، وقدَّم صفوان بن أمية، الذي لم يكنْ قد أسلم بعد، مئة درع وسيف، وعيّن عتاب[1] من أسرة أمية والياً على مكَّة،

(1) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، المعروف بأبي عبد الرحمن، من قريش في مكَّة، وأحد الصحابة. اشتهر بشجاعته وحكمته، وكان من نبلاء العرب

وعيّن معاذ بن جبل مدرساً دينيّاً، وحين نظر محمّد إلى جيشه القويّ الذي كان يتألف من اثني عشر ألف رجل، الذي كان يضمّ أهل المدينة وقريش وسالم وغطفان وقبائل أخرى، شعر بثقة عالية بالنصر، ثم أعلن فيما بعد أنَّ الاعتمادَ على العدد الكبير للجيش وحده كان سبب الهزيمة الأوَّليَّة في المعركة.

تجمَّعتْ قبيلة هوازن في سهل أوطاس المفتوح بين مكَّة والطائف، وتألفت من عشائر بارزة مثل كعب وكلاب، الذين ابتعدوا عن الاجتماع، وُضِعت النساء والأطفال وجميع الماشية خلف الجيش، حاول الشيخ دريد[1] المسن، الذي لم يعدْ بإمكانه المشاركة في المعارك، ولكنَّه يحمل عصا، إقناع مالك بن عوف بأنَّ هذا الوضعَ من شأنه أن يؤدي إلى تدمير القبيلة بالكامل إذا هزموا، ومع ذلك تجاهل مالك الفكرة، وعد إمكانيَّة الهزيمة، واعتقد أنَّ وجود العائلات والممتلكات من شأنه أن يحفّز المقاتلين على إظهار أقصى قدر من الشجاعة، أمر جيشه بالتحرّك نحو مخرج وادي حنين والانتشار في منحنياته، حين نزل المسلمون ببطء إلى الوادي في الصباح الباكر قبل شروق الشمس في ظروف ممطرة، هاجمهم العدوّ فجأة من قبل السلامية، الذين كانوا يقودون الجيش بالذعر وفروا، وسحبوا قواتهم التالية في الهروب،

وأشرافهم في بداية الإسلام. أعلن إسلامه يوم فتح مكَّة، وولّاه النبيّ إدارة مكَّة حين غادرها متوجهاً إلى حنين.

(1) دريد بن الصمة الجشميّ البكريّ الهوزاني، قائد وفارس بارز من قبيلة جشم، اشتهر بشجاعته وقيادته المحنكة في الجاهليَّة. شارك في نحو مئة غزوة دون أن يُهزم، وكان من أبرز شعراء العرب المعمّرين في عصره.

سرعان ما تراجع الجيش كلّه، ولقد نظر زعماء قريش، كأبي سفيان وغيره، إلى هذا الانسحاب بفرح خفيّ، لكن صفوان علق عليهم بأن يكفوا عن استخدام الكلمات المهينة، لأنّه سيكون من الأفضل لهم أن يحكمهم محمَّد كوطني، بدلاً من هوازنيّ.

وفي هذه الأثناء كان محمَّد يبحث عن مكان محمي صغير، وبقي معه بعض أتباعه الأقرباء، وكان أبو سفيان ممسكاً بزمام حماره الأبيض، وحين صدح صوته عالياً: «أنا النبيّ الصادق، أنا ابن عبد المطلب!»، لم يمر مرور الكرام، فطلب من العباس أن يستدعي المدينة بصوته القويّ، صيحة: «أيها الناس، يا بيعة أهل الرضوان!»؛ أي أيّها الرجال الذين أقسمتم عند الشجرة في الحديبيَّة بالقتال حتى الموت (انظر أعلاه)»، هذه الدعوة جعلت أصحابه يقفون على أقدامهم، ويصرخون «لبيك!» يا أيّها الناس، يا بيعة أهل الرضوان!، يا رجالاً أقسموا بالشجرة في الحديبية على القتال حتى الموت، هذا النداء جعل من سمعه يقف على أقدامه، ويصيح: لبيك، فاندفعوا إليه جميعاً مسرعين، ونظراً لعجز الإبل عن الدوران بسرعة في الوادي الضيق في أثناء الانسحاب العام، فلم تنزل إلّا لتصل إلى النبيّ، فحاصره نحو مئة من أهل المدينة، فتوقف القتال، وتوقف الفرار بسرعة أيضاً، وإن كانت بعض الفصائل لم تظهر إلا بعد انتصارها في المعركة، وبدأت معركة شرسة، وقتل عليّ ورجل آخر من أهل المدينة حامل لواء هوازن، وبعد معركة دامية هُزمت هوازن وفرت في اتجاهات مختلفة، فهرب بعضهم إلى الطائف مباشرة، بينما فرَّ آخرون إلى نخلة، فطاردهم الفرسان، وخاضت فصيلة قتالاً

مع مجموعة من هوازن كانوا يدافعون عن المخيم في أوطاس، وبعد معركة دامية اقْتُحِم المخيم، وقُبِض على جميع النساء والأطفال، وسقطت الماشية في أيدي المنتصرين.

وقد اضطرَّ مالك بن عوف إلى أن يشهدَ هذه الكارثة أمام عينيه من مكان مرتفع قريب، عاجزاً عن المساعدة، ففرَّ هو نفسه مسرعاً إلى الطائف، وقد قُتل الشيخ في أثناء فراره على يد شاب من قبيلة سليم، يقال إنَّه أنقذ أمه وجدته من الأسر، وعلى أيَّة حال، فمن المؤكَّد أنَّ البطل العجوز كان على علاقة ودية بقبيلة سليم، حيث كان هناك تفاهم جيد بين هوازن وسالم، الذين كانوا يعدون أقارب، ولم تكن الخسارة التي لحقتْ بالمسلمين ضئيلة، وإن كانتْ أسماء عدد قليل من الضحايا معروفة، لكن كان هناك نصيب كبير من الغنائم، ويقدر عدد النساء والأطفال الأسرى بستة آلاف، ومن الصعب تصديق العدد المذكور من الإبل والغنم المسروقة، وقتل خالد امرأة، فغضب محمَّد جداً من ذلك، وحظر ذلك على نحو قاطع، ونهى عن قتل النساء والأطفال، ونُقِلت كلّ الغنائم بالقرب من مكَّة، تقدَّم محمَّد في الوقت نفسه نحو الطائف لحصار هذه المدينة المهمَّة، تعرَّض لهطول من السهام، ممَّا أدَّى إلى مقتل عدَّة مسلمين، ممَّا اضطره إلى نصب المعسكر بعيداً قليلاً عن المدينة، نظراً لأنَّ مدينة الطائف كانتْ محصنة نسبيَّاً بقوة، فقد صنعت آلات للرمي وأسقف مظلات متحركة، لكنَّ الحصارين أشعلوا النار فيها بوساطة الحديد الساخن خلال الهجوم، وقتلوا كثيراً من الأعداء، كانتْ فنون الحصار غير متطورة بين العرب للغاية بما يكفي للأمل في أن يتمكَّنوا من الاستيلاء واقتحام المدينة عن طريق الهجوم.

حاول محمَّد طريقة أخرى لتدمير كروم العنب التي يملكها سكان الطائف الأثرياء، لكن حين رأى أنَّ هذا لن يدفعهم إلى الاستسلام تراجع عن ذلك، طلب أبو سفيان وآخرون من قريش من نساء قريش المتزوجات في الطائف المغادرة والانضمام إلى آبائهن وإخوانهن، لكن دون جدوى، بينما تمكَّن بعض العبيد من الفرار، أُطْلِق سراح المدينة، وأعلنتْ حرَّة، مع إمكانيَّة السيطرة عليها دون قتال بعد استسلام القبائل المجاورة، بعد نحو نصف شهر قرَّر محمَّد رفع الحصار والمضي قدماً في توزيع الغنائم، واجه محمَّد وفداً من قبيلة هوازن المهزومة، الذين عرضوا استسلامهم والتحالف، لكنَّهم طلبوا إعادة الغنائم. سمح لهم محمَّد بالاختيار بين عودة أسرهم أو ممتلكاتهم، فاختاروا الأوَّل، وافق محمَّد بسهولة على تنازل الجنود المسلمين القدامى عن نصيبهم من الأسرى، لكنَّ بعض زعماء البدو رفضوا الموافقة على أيّ شيء حتى وعدوا بالتعويض من الغنائم التالية التي سيتم الحصول عليها، وبدأ توزيع القطعان الآن، فاستخدم محمَّد نصيبه الشرعيّ، وهو الخمس لدفع الأموال إلى زعماء قريش والبدو.

ولكي يقيم محمَّد بأبي سفيان وابنه معاوية صلة بهم، تلقى مئة بعير كمكافأة، الذي أدَّى دوراً كبيراً بين أعدائه في أثناء حصار الطائف، فقد تلقى غيره هدايا صغرى، ووعد مالك بن عوف الذي بقي في الطائف بمئة بعير أيضاً، مع استعادة ثروته وعائلته، إذا حضر بنفسه، وتحرَّك وقبل الإسلام، وكان مالك بن عوف قبل إسلامه قد أصبح عدوّاً مزعجاً لقومه في مدينة الطائف، حيث كان يقطع عنهم مواشيهم التي ترعى خارج المدينة، وفي

الوقت نفسه تلقى أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد، والذين شاركوا في الغزو إمَّا بفتور وإمّا من أجل الغنائم، والذين عدّهم النبيّ مهمين لجذبهم إلى جانبه، هدايا سخيَّة، أمَّا أهل المدينة الذين حققوا هذا النصر الحاسم، تماماً مثل كلّ الانتصارات السابقة، فلم يتلقوا شيئاً، وكان هذا مبالغاً فيه بالنسبة إلى الحلفاء المخلصين، الذين انتقدوا بصوت عالٍ، ولكنَّ محمَّداً عرف بسرعة كيف يهدّئهم، ويحفزهم، ويشرح لهم أنّه لا يرى ذلك ضروريّاً بالنسبة إليه، لقد حاول تقوية إيمانهم ليس من خلال الممتلكات الدنيويَّة، حيث إنَّ نصيبهم الحقيقيّ سيكون النبيّ نفسه، بعد هذه المهمة الصعبة التي جلبت إليه الكثير من المتاعب، لم يكن الجميع راضين عن نصيبهم، ولم يكن من الممكن دائماً تهدئة السخط بإعطائهم المزيد، ذهب محمَّد في رحلة عمرة صغيرة إلى مكَّة، لكنَّه عاد في اليوم نفسه، حدث هذا بعد نحو عام واحد من الحج في السنة السَّابعة، وفي أوائل ربيع عام 630، عاد إلى المدينة بعد هذه الحملة الناجحة بين جميع حملاته.

وبعد فترة وجيزة من عودته فرح النبيّ محمَّد حين علم أنَّ جاريته المصريَّة مارية قد أنجبت طفلاً ذكراً، فأطلق عليه اسم إبراهيم (1)، على اسم جده الذي كان يعدّ مؤسّس الإيمان النقيّ إبراهيم، إلَّا أنَّ الفرحة لم تدم طويلاً، حيث توفي الطفل بعد نحو عام ونصف، فبكى الشيخ المسن

(1) في كتاب «حياة محمَّد» موير، ص 159: «مرت أكثر من خمسة وعشرين عاماً منذ ولادة آخر أبناء محمَّد، ولم تثمر زيجاته العديدة في المدينة عن أيّ أبناء. لذلك، كانت فرحته عظيمة بولادة ابنه في شيخوخته».

بمرارة، وحزن على فقدان الطفل، وفي تلك الأيام حدث كسوف للشمس، وفسره المسلمون على أنَّه علامة على الحزن على وفاة ابن النبيّ، وآمنوا بهذا الاعتقاد الخرافيّ، فواجه النبي محمَّد بحكمته وصدقه هذه الخرافة، وأوضح أنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان استجابة لموت أحد، وبسبب ماريا، دخل النبي محمَّد في صراع مرير مع زوجاته الغيورات، كاد أن يؤدي إلى تطليقهن جميعاً، وفي غضون ذلك كانت المناطق الخاضعة لسيطرة محمَّد تتوسَّع يوماً بعد يوم، وفي العامين الأخيرين من حياته لم يكنْ لديه ما يفعله سوى استقبال الوفود من القبائل التي استسلمت له أو التي كانت تتفاوض على شروط الاستسلام، وعند عودته أرسل ممثلين إلى كلّ القبائل والعشائر.

لم يتم قبولهم واستسلامهم بأذرع مفتوحة بل رُفِضوا وفي بعض الأحيان استخدم التأديب والقهر الكامل لأولئك الذين قاوموا من وفود البدو والسكان المحليين، الذين جاؤوا إمَّا بدعوة مباشرة وإمَّا طواعية، من ناحية أخرى كان أهل المدينة ومكَّة، يرحبون باستمرار بقلوب مفتوحة، لقد شهد النبيُّ بعض السلوكيَّات غير المقبولة من «بقايا الوثنيَّة» بين أهل الصحراء المتغطرسين، التي لن يسمحَ بها بين أتباعه الحقيقيين.

كان الأعداء الأقوياء في الجزيرة العربيَّة أذلَّاء، لكن في الشمال كانت تهدِّد قوَّة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، التي هزمت المسلمين في معركة مؤتة.

لم تكن الحملات الصغيرة وحدها كافية للحفاظ على احترام القبائل العربيَّة الشماليَّة في الأمد البعيد، بدأت حرب كبرى مع الإمبراطوريَّة

الرومانيَّة، وكان لا بدَّ من التعامل معها بحزم.

لقد أعدَّ محمَّد حملة عسكريَّة ضخمة في الشمال، ومع أنَّه كان عادة ما يخفي هدف حملاته، إلَّا أنَّه أعلن هذه المرَّة قبل وقت طويل أنَّه سيشنّ هجوماً على البيزنطيين، وقد فعل ذلك لجذب عدد كبير من المؤيدين الذين سينضمون إليه على أتم استعداد، إلَّا أنَّ الخوف من جيوش العدوّ المنضبطة والمنظّمة، فضلاً عن مشقة الرحلة الطويلة عبر الصحراء القاحلة عاق تقدّمهم، بسبب الحرارة والجفاف السائدين في ذلك الوقت، ونتيجة لذلك رفض معظم البدو، وحتى بعض الناس من المدينة المنورة ومكَّة الانضمام، وقد قدّموا أعذاراً واهية مختلفة، ولكنَّهم تعرَّضوا لانتقادات شديدة في القرآن فيما بعد، وفي الوقت نفسه واجه البدو عواقب أشدّ قسوة من محمَّد، إلَّا أنَّ بعض المؤيدين المخلصين كانوا أكثر حماسة، فقد تبرَّعوا بسخاء بمبالغ كبيرة من المال للمساهمة في تكاليف الحملة العسكريَّة، في المقام الأوَّل لشراء الطعام والإبل للجيش لركوبها.

ولأنَّه من غير الممكن لأحد أن يشاركَ في مثل هذه الرحلة الطويلة عبر الصحراء سيراً على الأقدام، فقد انطلق محمَّد بجيش كبير في بداية الخريف (9 ذو العقدة من سنة 630 م)، ورغم المبالغة في عددهم الذي بلغ ثلاثين ألف رجل، بما في ذلك عشرة آلاف فارس، فقد مرّوا بوادي حضرموت في طريقهم، وحين أرادوا أن يستريحوا من مشاق الصحراء في ظلالها وعيون مياهها، نهاهم محمَّد عن ذلك لأنَّ الوادي، بما فيه من مساكن وآثار منحوتة في

الصخر، كان يعدُّ موقعاً قديماً وموطناً سابقاً لقوم ثمود وعاد الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم، وكان محمَّد يخشى أن يمسَّ رفاتهم، وكذلك الأرواح الشريرة التي كانتْ تجوب الأرض وتسكنها، ووصل الجيش إلى تبوك، على مقربة من الطرف الشماليّ الشرقيّ للبحر الأحمر، واكتفى محمَّد هنا بقبول التسهيلات التي عرضها عليه السكان المجاورون، الذين كانوا في الغالب من المسيحيين، ولم ير من المناسب أن يتقدَّم هو نفسه ضدّ القوات البيزنطيَّة، ووجدوا بين الغزاة ملكاً مسيحيَّاً اسمه يوحنا، يحكم «إيلات والعقبة» في الطرف الشماليّ الشرقيّ للبحر.

ومن تبوك أرسل خالد إلى دومة الجندل، فأسر الأمير المسيحيّ في ليلة مقمرة في أثناء رحلة صيد، حيث قتل أحد إخوته، فأتى خالد بالأسير إلى محمَّد، حيث اعتنق الإسلام، وأصبح تابعاً مخلصاً له تحت حكمه، كما كان حال كلّ الأمراء الذين استسلموا، ورحل محمَّد بعد إقامة عشرة أيام، واختتم هذه الحرب التي كانتْ آخر معركة شارك فيها، في ذو الحجة 630 أو محرم 631، وعند عودته ألقى خطباً قاسية وعقابية في حقّ المتخلفين، وكلّما كان الإنسان أقوى وأشدّ إيماناً اشتدَّت معاملته، ووقعت أصعب المواقف مع ثلاثة من أشد رفاقه حماسة، فقد مكثوا في بيوتهم بلا عذر، فحرم على كلّ المسلمين أن يتعاملوا معهم، وبعد خمسين يوماً فقط أعلن النبيّ أنَّ الله قد غفر لمن أوشك على فقدان الأمل في رحمته، وقبلهم مرَّة أخرى، كان أحد هؤلاء الثلاثة الشاعر كعب بن مالك.

وبعد عودته، هدم محمَّد مسجداً بُني على نيَّة سيئة، ليدمروا به مسجد قباء، إنَّ هذه القصة مظلمة للأسف؛ إذ إنَّ الدوافع الحقيقيَّة التي جعلتْ محمَّداً يغضب بشدَّة من بناة المسجد غير معروفة، في هذا الوقت توفي عبد الله بن أبي سلول؛ أحد أعظم أعداء محمَّد، ودعه محمَّد عند وفاته، وأعلن الصلاة عليه، لكن الآن لم يعد عليه أن يأخذ مثل هذه الاعتبارات في الحسبان، حيث كان حزب خصومه يتراجع بسرعة.

وحين انتهى العام (ربيع الأول 631) عيَّن محمَّد أبا بكر قائداً للحج الأكبر، وهو المنصب الذي كان يشغله من قبل في العام السابق، لم يكنْ محمَّد يريد المشاركة في الحج طالما كان المشركون وممارساتهم الوثنيَّة حاضرين، لكنَّه الآن قرَّر إعلان الحرب على الوثنيَّة بالكامل، وقد حدَّد نص قرآنيٌ أنَّه من الضروريّ الالتزام بالهدنة مع عبدة الأصنام الذين وُقِّعت اتفاقيَّة سلام معهم لمدة معيّنة، لكن بعد انتهاء هذه المدة سيكون لديهم الاختيار بين الفناء أو التحول، وبعد انتهاء الأشهر الحرم، وهو الشهر الثَّاني من عام (10 جمادي الأول 631)، سيدخل في حالة حرب مطلقة مع جميع الوثنيين الآخرين، ومن الآن فصاعداً لن يشاركَ أحد من عابدي الأصنام في الحج، ولإعلان ذلك أرسل عليّاً إلى أبي بكر، وفي نهاية موسم الحج أبلغوا جميع الأمم أنَّ المشركين والناس المجتمعين أصبحوا ممنوعين من دخول الأماكن المقدَّسة، وأنَّهم ليس لديهم سوى خيارين: إمَّا قتال الأكثريَّة وإمَّا الانضمام إليهم.

ولقد اضطرَّت هذه الإجراءات بعض العرب إلى التعجيل بالرد، فقد

كان وضع أعدائهم يزداد سوءاً، وكان الضغط يشتدُّ عليهم باستمرار، فكان أهل الطائف، الذين قتلوا مؤخراً مواطناً جاءهم رسولاً متحمساً للدين الجديد، يجدون جيرانهم يسرقون البشر والماشية أمام أبوابهم، الأمر الذي دفعهم إلى الحيرة حتى قرَّروا إرسال وفد إلى محمَّد، وقد طلبوا شروطاً معينة تميزهم عن بقيَّة العرب، ولكنَّ محمَّداً لم يمنحهم إلَّا أنَّهم ليسوا في حاجة إلى تدمير أصنامهم بأيديهم، ولم يمنحهم تأجيلاً لتدمير تمثال معبودهم الرئيس، اللات، ولم يتساهلْ معهم بالصلوات الخمس، وحين لم يوافقْ على الطلب الأخير، قالوا له: «سنمنحك ذلك، وإن كان تدمير الآلهة إهانة وإذلالاً».

ولقد رافق البعثة الشريفة عند عودتها أبو سفيان وشخص آخر، وكلفوا بهدم التمثال الرئيسي في الطائف، وقد نفذوا هذه المهمّة وسط صراخ النساء وصيحاتهن العالية، ولا شكَّ أنَّ تدمير المسلمين للأصنام المقدَّسة كان له الأثر نفسه على عبادة الأصنام عند العرب، ونفس الشيء كان لظهور المبشرين المسيحيين في ذلك الوقت في أوروبا.

ولقد شهد عابدو الأصنام تحطم صورة معبودهم دون أن يلحقوا بأذى بالمدمر، ممَّا دفعهم إلى الاعتراف بعجزه والانتقال بسهولة إلى الإيمان الجديد، وامتدَّ حكم محمَّد وسيطرته إلى ما هو أبعد من المناطق التي وصلتها عبادة المعابد المكيَّة، فقد استسلم الحاكم الفارسيّ في اليمن، وخضع زعماء السواحل الجنوبيَّة والشرقيَّة وقبائلهم لسلطانه، وأُرسلت رسل ووفود من زعماء السواحل الجنوبيَّة والشرقيَّة وقبائلهم إلى المجتمعات المسيحيَّة الغنيَّة

في الشمال والشرق والجنوب، مطالبين بدفع الجزية، واعتنق أغلب البدو، المعروفون بكونهم مسيحيين، الإسلام دون تردد، حتى المسيحيون العرب المستقرّون لم يكونوا متمسكين بإيمانهم بقوَّة، ممَّا أدَّى إلى اختفاء المسيحيَّة تدريجيَّاً من شبه الجزيرة العربيَّة، ومع ذلك كانتْ هناك دائماً قبائل تتجنب التحوّل، وتقيم في مناطق وعرة، لكنَّها ظلَّتْ معزولة، وتحت تهديد دائم بالوقوع تحت سيف المسلمين، وكان ظهور أيّ فصيل إسلاميّ يؤدي دائماً تقريباً إلى الاستسلام الفوريّ. لم يكنْ هناك سوى صراع قويّ نسبيَّاً خلال هذه الفترة، فقد قاومت مدينة جرش في شمال اليمن التحول إلى الإسلام لفترة طويلة، لكنَّها في النهاية أجبرت على الاستسلام من قبل جيرانها الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.

وأظهرتْ ثورة أغلب العرب وغضبهم بعد وفاة محمَّد مدى محدوديَّة تأثير اعتناقه للإسلام عليهم، لكن مع انتشار قوَّة محمَّد إلى هذا الحد بدأت المنافسة في الظهور، حيث أعلن رجال في ثلاثة أماكن مختلفة أنفسهم أنبياء، واجتذبوا أتباعاً كثيرين، وسرعان ما اكتسب أحدهم، وهو الأسود العنسي، قوَّة كبيرة في اليمن، لكنَّه قُتل على يد السكان المحليين قبل وفاة محمَّد أو بعد وفاته بفترة وجيزة، أمَّا الاثنان الآخران، وهما طليحة؛ نبيّ قبيلة بني أسد، ومسيلمة؛ نبيّ قبيلة بني اليمامة، فقد برزا بقوَّة بعد وفاته، لكنَّهما هُزما في النهاية بعد صراعات شديدة، ولم يزعج هؤلاء الأفراد سلام محمَّد في أثناء حياته، وإلا لكان بلا شك قد وجه مهمته الأخيرة ضدّ أحدهما بدلاً من الرومان، وفي نهاية العام العاشر (ربيع الأول 632)، أدَّى محمَّد فريضة الحج،

وشرع في هذه الرحلة مع كثير من رفاقه من المدينة المنورة، وعند وصوله إلى الأراضي المقدَّسة بمكَّة أعلن أنَّ أصحابه الذين لم يقدموا التضحيات لن يؤدوا إلا الحجّ الأصغر، ثم توجهت الأعداد الكبيرة إلى جبل عرفات عبر وادي منى، وقد حرَّم النبيّ المشاركة في هذا الحج على أولئك الذين لم يتمكَّنوا من تقديم التضحيات المطلوبة، وسُمِح لعليّ، الذي كان قد عاد لتوه من اليمن حيث أسلمت قبيلة متمرّدة، بالانضمام إلى هذه الرحلة الكبرى بعد أن قدم تضحياته، وكانت الطريقة التي اتبعها محمَّد في أداء مناسك الحج خلال تلك الفترة بمكانة المعيار للمسلمين حتى يومنا هذا.

إنَّنا لا نخوض في التفاصيل، بل نكتفي بملاحظة أنَّه كان يلقي الخطب على المؤمنين في فترات مختلفة، فيذكرهم بواجباتهم الدينيَّة، ويزوّدهم ببعض التعليمات الجديدة، ومن أهم هذه التعليمات اقتراح سنة قمريَّة خالصة تتألف من اثني عشر شهراً دون أيّ تعديل، وتخصيص الأشهر الأوَّل والسَّابع والحادي عشر والثَّاني عشر كأشهر مقدَّسة على الدوام، على الرَّغم من الأهميَّة الحاليَّة للشهر الأخير فقط؛ شهر الحج، وتعبّر بعض المقتطفات من هذه الخطب القليلة عن شعور فخور بأنَّ محمَّداً رأى دينه منتصراً ظاهريَّاً وكاملاً في حد ذاته، ويتجلَّى الشعور نفسه في بعض الآيات التي نزلتْ في تلك الفترة من القرآن، ومع ذلك هناك في الوقت نفسه توقع بأنَّ مهمته ستنتهي قريباً.

كانتْ هذه الحجة بمكانة المغامرة الكبرى الأخيرة لمحمَّد، وقد أطلق

عليها المسلمون فيما بعد اسم «حجة الوداع»، وعند عودته نظّم محمَّد حملة عسكريَّة كبرى ضدّ البيزنطيين، وعيَّن أسامة بن زيد قائداً لها، على الرَّغم من اعتراضات آخرين لم يكونوا مستعدين لطاعة القائد الشاب، وبعد أن غادر هذه الحملة بصعوبة لم يعد بين الأحياء، ومع ذلك من المهم أن نلاحظ أنَّه ترك وراءه معركة ضدّ اليونانيين لأقاربه كإرث أخير، وكانتْ هذه الحملة العسكرية واحدة من آخر الأمور التي اهتمَّ بها بشغف في أيامه الأخيرة.

مرض النبيّ الذي تجاوز الستين من عمره في نهاية ربيع الثاني 632، ولسنا بحاجة إلى مشاركة محمَّد في الرأي الشَّخصيّ بأنَّ مرضه الأخير كان نتيجة للسم الذي تناوله قبل سنوات. (انظر أعلاه).

إنَّ الجهود الهائلة والاضطرابات التي استمرَّت 24 عاماً قد تكون كافية في نهاية المطاف لتدمير الطبيعة الرقيقة لدين أقلّ حساسيَّة، ومن المعلومات المحدودة المتاحة في التراث لا يمكننا تحديد طبيعة مرضه بدقة.

ما هو واضح إلى حدّ ما هو أنَّه عانى نوبات حمى شديدة، ظهر المرض أوَّلاً بعد زيارة للمقبرة، حيث ألقى خطاباً قصيراً على الموتى، حاول في البداية أن يظلَّ منتصباً، لكن هذا لم يدم طويلاً، حصل على إذن من زوجاته، اللائي كان يقضي مع كلّ واحدة منهن يوماً، للبقاء في بيت عائشة في أثناء مرضه.

في البداية كان ما يزال يؤم الصلاة العامَّة في المسجد القريب، لكن في

النهاية لم يعدْ قادراً على البقاء منتصباً، وربَّما فقد وعيه، فتولَّى أبو بكر إمامة المؤمنين في الصلاة، ربَّما لم تتحسَّن حالته بالعلاجات القويَّة، مثل صب الماء البارد بكثرة، إلى جانب الدواء الحبشيّ الذي كانت زوجاته تعطيه له دون إذنه في أثناء نومه، كان يعاني في كثير من الأحيان من الهلوسة العنيفة، لكنَّه كان يستعيد وعيه في النهاية في أثناء التأمل الهادئ، إنَّ التقارير والمناقشات حول أقواله في تلك الفترة متناقضة للغاية، وكلّها تقريباً غير موثوقة، لذا فمن الأفضل تجاهل هذه الخطب، ذات مرَّة طلب بعض المواد المكتوبة، لكن عمر، الذي لاحظ أنَّه يتخيَّل أشياء، أشار إلى عدم موافقته، كانت النساء يجتمعن حول المخيم يبكين حين تسوء حالته، ويحتضنونه كلّما بدا أنَّه يتحسَّن مرَّة أخرى.

وبعد أن أمضى بضعة أيام في مرض شديد شعر بالقوة للوقوف مرَّة أخرى، وذهب بقيادة عليّ والعباس إلى المسجد، أراد أبو بكر، الذي بدأ صلاة الصبح، أن ينحي عنه مسؤوليَّة الخلافة، لكنَّه أشار له بأن يستمرَّ، وبعد الصلاة ألقى محمَّد خطبة قصيرة على المؤمنين، كانتْ فرحتهم هائلة، حيث اعتقدوا أنَّ النبيَّ قد تعافى، حتى إنَّ أبا بكر حصل على إذن للذهاب إلى عائلته في حيّ بعيد، حيث كان يعتقد أنَّ محمَّداً سيكون قادراً على إمامة الصلاة التالية بنفسه.

بعد فترة وجيزة من عودة محمَّد تكرَّر المرض بشدَّة أكبر، وفي غضون ساعات قليلة أصبح بلا حياة. دارت أفكاره الأخيرة حول الملائكة والجنة،

توفي في حضن عائشة عند ظهر اليوم الثاني عشر من الشهر الثالث في السنة الحادية عشرة للهجرة، الذي يوافق 8 جمادي الثاني 632، وفقاً للتقويم «اليولياني»[1]. تسبَّب موته في اضطراب هائل بين المسلمين الذين لم يتوقعوا ذلك في تلك اللحظة، ولم يصدّق عمر نفسه الخبر، وبذل أبو بكر جهداً كبيراً لإقناع الناس وتهدئتهم، وبينما ظلَّ الجثمان فوق الأرض، بدأت الحركة لاختيار خليفة جديد، وقد جرت الحركة في الليلة التي تلت الثلاثاء حتى الخميس في المكان الذي توفي فيه النبيّ، وبعد دفنه كانتْ عمليَّة انتخاب أبي بكر قد اكتملت، وكانتْ بلا شك متوافقة تماماً مع رغباته، حتى إن لم تعترف بها جميع الأطراف بعد.

(1) في الواقع يبدأ الشهر عادة في اليوم الثّالث عشر، لكن عند حساب الأشهر على أساس وقت ظهور القمر، فإنّه يبدأ غالباً بعد يوم واحد، يوم وفاته هو أحد التواريخ القليلة المؤكّدة تماماً في تاريخ محمَّد. [المؤلف]

القسم السَّابع

شخصيَّة محمَّد

ممَّا قيل حتى الآن يجب أن يكونَ واضحاً للقارئ أنَّ الرجل الذي قام بأمور عجيبة ومدهشة لا يمكن أن يكون محتالاً عادياً، لكن لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ السرد السريع للأحداث السياسيَّة منذ الهجرة قد يصور شخصيَّته بصورة سلبيَّة بسهولة، وهنا نرى وصفاً للخداع المنظم والخيانة، بل حتى النفاق أحياناً في الانتقام العنيف، ونظراً لغياب هذه الصفات في فترة وجوده في مكَّة، فقد قيل إنَّ شخصيَّة محمَّد، الذي ظلَّ صامداً في مواجهة كلّ المصاعب في الفترة المبكرة، ربَّما تعرَّضت لإغراءات السلطة والسيطرة في فترة وجوده في المدينة، لكن لا يوجد تغيير في شخصيته مثل هذا، كما هو الحال مع بعض الرجال البارزين الآخرين الذين يزعمون أنَّ لديهم شيئاً مماثلاً.

إنَّ جذور كلّ هذه الأخطاء كانتْ واضحة عنده منذ البداية، وهي متأصلة في تصوره للنبوة، ووعيه الأخلاقيّ الصارم، وافتقاره إلى الوضوح في تفكيره في الأمور الروحيَّة على الرَّغم من حكمته العمليَّة العظيمة، ويمكن تفسير ذلك على وجه التحديد من خلال طبيعة شعبه والشرقيين بوجهٍ عام[1].

إنَّ تولي السلطة فتح الباب لظهور الجوانب السلبيَّة في شخصيّته وتطوّرها، والعاطفة المتزايدة مع تقدمه في السن، التي تدفعه إلى اتخاذ كثير من الخطوات الخاطئة تجاه الجنس النسويّ هي سمة لا نجد أيّ أثر لها في الفترة السابقة، إلَّا فيما يتعلَّق بالآيات القرآنيَّة القديمة التي تصف بشغف الحور العين، ولكي نقيم محمَّداً على نحو منصف يجب ألَّا ننظر إليه بعدّه نبيَّاً وواعظاً وحاكماً فحسب، بل يجب أن ننظر إلى معاملته لأتباعه وأصدقائه وحياته اليومية بوجهٍ عام أيضاً.

وهنا تبرز شخصيَّته الموثَّقة جيداً، وعلى نحو مشرق، على الرَّغم من جديته وكرهه للثرثرة، فقد كان صديقاً للأقلّ عربيٍّ، وكان يسأل عن أحوالهم بتعاطف دون أن يفقد شيئاً من كرامته، ويترك انطباعاً لا ينسى لدى كلّ من يلتقيه لأوَّل مرَّة، لقد جسد الأناقة الطبيعيَّة للأدب العربيّ، إلى جانب البساطة التي تتردد صداها مع كلّ انطباع، وعلى الرَّغم من جديته،

(1) قارن تلك الشخصيَّة لداود، يا لها من حقد وقسوة وخداع إلى جانب أنبل الصفات! [المؤلف]

كان يضحك بصدق حين يرى شيئاً مضحكاً، لكن حزنه على أحبائه كان يجلب الدموع المريرة، وكان يستهلكه الغضب الناريّ بسهولة ممَّا يجعل أتباعه يرتجفون عند رؤية الوريد بين حاجبيه يتورم، كان يتردَّد في رفض طلب شخص ما حين يكون هناك قراران، مفضلاً الحلّ الذي يجلب السلام والعدالة، لم تكنْ لديه صرامة حديديَّة في حياته أو تعاليمه، كان يغفر دائماً تقريباً للعدوّ المهزوم، والأمثلة كثيرة في مثل هذه الأمور، مع أنَّ مذبحة بني قريظة كانتْ حالة استثنائيَّة ونادرة للغاية، ولم يكنْ يتصرَّف بغطرسة أو استبداد تجاه أتباعه، وكانت التكريمات التي سعى إليها متواضعة إلى حد كبير، ولم تؤثر في الشعور العميق بالحريّة المتجذر في الثَّقافة العربيَّة، ومع كونه حاكماً على العرب كافة، وامتلاكه ممتلكات وعقارات واسعة، إلَّا أنَّه عاش حياة بسيطة تماماً، وكان يعيش مثل أبسط واعظ يتعرَّض للسخرية في مكَّة عموماً.

كان ينفق دخله الكبير كلّه على الأغراض الدينيَّة والحكوميَّة، ولذلك كان أبو بكر محقَّاً حين نزع محمَّد ممتلكاته من ابنته فاطمة[1]، لأنهَّا لم تكنْ مكتسبة كملك خاص، بل كانت ملكاً عاماً تملكه الدولة، وتستخدمه لمصلحتها، وكان يعيش مع زوجاته في أكواخ متواضعة من الطين وجريد النخيل، يمكن الوصول إليها باليد، وكان طعامه يتكون من التمر والخبز واللبن، ونادراً ما كان يأكل اللحوم، وطعامه لم يكنْ ليتكون من أكثر من

(1) القضيَّة المعروفة بـ«فدك».

طبق واحد في المرَّة الواحدة، وكانتْ أدواته المنزليَّة وملابسه بسيطة للغاية، وكان يكره كلّ أنواع الإسراف والترف مقارنة بالعرب الشرفاء الذين اعتادوا أرقى وسائل الرفاهية المتاحة في الشام وفارس ومصر، وكانوا ينظرون إليه بدهشة إلى نمط الحياة البسيطة الذي أرضى زوجاته بعد عقد من الزَّمان، ومع ذلك لم يرَ هذا النمط من الحياة ناقصاً مقارنة بالعرب، ولم يكن الزعيم المحترم يعيش حياة تختلف كثيراً عن حياة العبد المحرّر، ولم يجد أحد أيّ إساءة في أنَّ محمَّداً والخلفاء الأوائل كانوا يصلحون ملابسهم وأحذيتهم بأنفسهم، وأن يقوموا بمعاملاتهم بأنفسهم، بينما كان خلفاؤهم المستقبليون محاطين بحشود من الخدم، لذلك لم يكن بحاجة إلى عبيد، فكانتْ يداه، وأيدي زوجاته، وخدمات المؤمنين المتطوعين كافية، وكان العبيد الذين كانوا جزءاً من ذلك يتحرّرون تدريجيّاً، وكان استعمال العطور هو متعته وسعادته الوحيدة، وكان مخلصاً في صداقاته.

ووفقاً للعادات الشرقية كان يعامل زوجاته بكرامة نبيلة، ورغم تزايد الزيجات وما يصاحبها من منافسات جديدة، ظلَّ تعلقه بذكرى الأولى خديجة قائماً، ممَّا أثار غيرة عائشة بعد وفاتها بفترة طويلة، لقد نشأ محمَّد، وترعرع في عصر مليء بالتحيزات وبدون أيّ تعليم أدبيّ، ومع أنَّه ظهر، ووقف لمحاربة الخرافات، إلَّا أنَّه كان ما يزال يؤمن بالأساطير بقوَّة، كان يخاف الأرواح الشريرة، ويهتمُّ كثيراً بالأبراج والأحلام، كان الخيال والعاطفة يسيطران عليه إلى حدّ كبير، ممَّا تسبَّب في حجب رؤيته حين نظر إلى عالم الأرواح والتاريخ الماضي، كان محمَّد يفتقر إلى الشجاعة الجسديَّة الحقيقيَّة،

لكن ما يثير الإعجاب هو المرونة والصبر والمثابرة التي أظهرها في التغلب على خصومه في ظلّ أشد الظروف صعوبة، متحدياً بصمت كلّ السخرية والاستهزاء حتى حقَّق نجاحاته في النهاية، إنَّ شخصيَّةَ محمَّد تحتوي على كثير من الغموض والألغاز، ويمكن العثور على كثير من الرجال المهمين والشخصيَّات المؤثرة الذين يمتلكون خصائص متناقضة، لكن نادراً ما تكون بالدرجة الموجودة في محمَّد.

إنَّ التقييمات قد تختلف تبعاً للجانب الذي يتم التركيز عليه أكثر، حتى لو لم يُحدَّد أيّ تحيز معيَّن، وسوف يختلف الحكم بناءً على كيفيَّة رؤية المرء لهذا الجانب أو الجانب الآخر من طبيعته، حتى من دون أيّ شكل من أشكال التحيز، ومع ذلك يبقى هناك نوع آخر من التقييم، وهو التقييم الذي يستند إلى نتائج تأثيره، ومن هذا المنظور يميل المرء إلى إصدار حكم نهائيّ، قد يكون الإدانة المباشرة لقمع المسيحيَّة والتسبب في تدمير الأراضي الخصبة والمزدهرة ذات يوم، فضلاً عن فساد الأخلاق، بسبب تعدد الزوجات والعبوديَّة، وانحدار التعليم، ومع ذلك يجب على المرء أن يكون حذراً من الحكم السابق لأوانه والمبالغ فيه، سيكون من الظلم إلقاء اللوم على محمَّد وتحميله المسؤوليَّة عن أشياء، مع أنَّها نتائج ضروريَّة لتعاليمه، لم تكنْ متوقعة أو مرغوبة بها.

دعونا نرَ إذا ما كانتْ كلُّ هذه الأشياء منتجات إسلاميَّة حقيقيَّة، لم تكن الحالة الأخلاقيَّة في الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ومعظم البلدان الخاضعة

للحكم الإسلاميّ قبل الفتح أفضل بكثير ممَّا كانتْ عليه بعده، لقد كانت العبوديَّة موجودة في كلّ مكان حتى قبل الإسلام، ولم يكنْ إدخال تعدد الزوجات على الأقلّ بدعة جاء بها الإسلام، إنَّ العالمَ العربيَّ لا يمكن أن يتحمَّل وحده مسؤوليَّة الفساد الذي اشتهر به، إلَّا من خلال تأثير الأمم والثقافات الأخرى التي انحدرتْ أخلاقيّاً إذا ما فُحِصَتْ بموضوعيَّة.

إنَّ المسيحيَّة التي تمارسها المجتمعات الشرقيَّة الغارقة في الشعائر وعبادة الأصنام لن تكونَ قادرة على تحدي الإسلام أو مقارنته بها في كثير من الجوانب بعد تقييم عادل، وإنَّ اللوم الرئيس في خراب البلدان الإسلاميَّة يقع على عاتق سكانها السابقين والشعوب الشَّماليَّة القاسية التي تبنت الدين العربيّ، وليس الإسلام نفسه، وإذا كان التطور العلميّ قد تراجع إلى حد بعيد في هذه البلدان اليوم، فلا ينبغي لنا أن ننسى أنَّه ازدهر حين كانتْ أوروبا المسيحيَّة ما تزال في الظلام.

بطبيعة الحال لا يمكن أن ننسب أسوأ الأضرار التي لحقت بالعالم الإسلاميّ مباشرة إلى محمَّد، بل يرجع ذلك إلى غياب الحس الأخلاقيّ وروح الجنون التي تستبعد التسامح الحقيقيّ، إنَّ التفسيرَ الحرفيَّ الصارم للوحي يمنع أيّ تفسير يسمح بمزيد من الحريّة، ولذلك يعوق التقدّم بما يتماشى مع الحرف الصارم للقرآن، كلّ هذا يمكن العثور عليه في النبيّ محمَّد نفسه، الذي انحرف أتباعه على نحو مأساويّ عن تعاليمه.

إنَّ التقدّمَ الحقيقيَّ الذي حقَّقه الإسلام لبعض المجتمعات، مثل التخلي

عن عبادة الأصنام والعادات الوحشيَّة، لا ينبغي أن نتجاهله، فالإسلام لا يستطيع إلَّا أن يشعل فتيل الجنون في الأمم الساقطة، ويظلّ دوماً عائقاً أمام التقدم الروحيّ والأخلاقيّ الحقيقيّ.

وبغض النظر عن التأثير السلبيّ للإسلام في البشريَّة كلّها، فمن المهم أن نتذكَّر دائماً أنَّ الأخطاء التي ارتكبها محمَّد، التي أدَّت إلى هذه العواقب، كانتْ إلى حدّ كبير انعكاساً لأخطاء عصره وشعبه، ومع ذلك، فمن الواضح أنَّه كان يتمتع بصفات نبيلة، ويبدو أنَّه كان مقتنعاً تمامًا بمهمته لإنقاذ شعبه من العقاب الأبديّ من خلال توجيههم نحو الإيمان الحقيقيّ وإشراكهم في النعيم السماويّ.

المصادرُ العربيّة والأجنبيّة

1. ألويس سبرينجر، حياة محمّد وتعاليمه، وفقاً لمصادر لم تُستخدم حتى الآن، ثلاثة مجلدات، برلين مكتبة نوكلاي للنشر، 1861 .

ALOYS SPRENGER. DAS LEBEN UND DIE LEHRE DES MOHAMMAD NACH BISHER GRÖSSTENTHEILS UNBENUTZTEN QUELLEN BEARBEITET. BERLIN NICOLAI'SCHE VERLAGSBUCHHANDLUNG .1861

2. ألويس سبرينجر، « محمّد والقرآن، دراسة نفسيّة»، هامبورغ، 1889.

ALOYS SPRENGER. Mohammed und der Koran . Eine psychologische Studie. Hamburg. 1889.

3. إرنست رينان، «دراسات في التاريخ الديني والنقد»، ترجمة أوب فروثينجهام، راعي الكنيسة الوحدويّة الثّالثة في نيويورك، مع مقدّمة في السيرة الذاتيّة، نيويورك، الناشر كارلتون، «413 برودواي» «باريس: ميشيل ليفي فرير».

ERNEST RENAN. STUDIES OR RELIGIOUS HISTORY AND CRITICISM. AUTHORIZED TRANSLATION FROM THE ORIGINAL FRENCH. BY O. B. FROTHINGHAM, PASTOR OF THE THIRD UNITARIAN CHURCH IN NEW YORK. WITH BIOGRAPHICAL INTRODUCTION. NEW YORK: CARLETON, PUBLISHER, 413 BROADWAY. PARIS: MICHEL LEVY FRÈRES . M DCCC LXIV .

4. إرنست كوهن، نظرة عامّة على كتابات ثيودور نولديكي، الدراسات الشرقيّة، تُهدى إلى ثيودور نولدكه بمناسبة عيد ميلاده السبعين (2 مارس 1906) من أصدقائه

وطلابه، في مجلدين 1907.

Ernst Kuhn. Übersicht der Schriften Theodor NÖldekes، Orientalische Studien Theodor NÖldeke zum siebzigsten Geburtstag (2. MÄrz 1906) gewidmet von Freunden und SchÜlern.1907.

5. ألفريد فان كريمر، «تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام، مفهوم الله والنبوة وفكرة الدولة»، لايبزيغ، 1868.

Alfred von Kremer. Geschichte der herrschenden Ideen des Islams . Der Gottesbegriff , die Prophetie und Staatsidee . Leipzig :1868 .

6. ألفريد فان كريمر، «الحضارة الإسلاميَّة ومدى تأثيرها على الديانات الأخرى»، ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر، 1947.

7. ابن منظور، «لسان العرب».

8. ابن قتيبة، «تأويل مختلف الحديث».

9. ابن هشام، «السيرة النبويَّة».

10. ثيودور نولدكه، «تاريخ القرآن»، ترجمة الدكتور عارف تآمر، مطبعة الجمل بيروت، 2004.

11. ثيودور نولدكه، «حياة محمَّد» هانوفر، 1863.

Theodor NÖldeke. Das Leben Muhammed's. Nach den Quellen populÄr dargestellt . Hannover. 1863.

12. جوستاف وايل، «النبيّ محمَّد، حياته وتعاليمه»، شتوتغارت للطباعة والنشر، 1843.

Gustav Weil. Mohammed der Prophet , ſein Leben und seine Lehre .Stuttgart. Verlag der Z. B. Mezler'schen Buchhandlung . 1843 .

13. جوستاف وايل، «مقدمة تاريخيَّة نقديَّة في القرآن»، الطبعة الثانية المحسنة أخرى لوسيرن K بيليفيلد لايبزيغ، 1878.

Gustav Weil. Historisch kritische Einleitung in den Koran، Bielefeld und Leipzig. Verlag von Velhagen & Klasing . 1878.

14. جوستاف بفانموللر، سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ترجمة الدكتور محمود حمدي زقزوق.

15. جون فوك، العرب في الدراسات الأوروبيَّة، لايبزيغ، 1955.

JOHANN FÜCK. DIE ARABISCHEN STUDIEN IN EUROPA BIS IN DEN ANFANG DES 20. JAHRHUNDERTS . OTTO HARRASSOWITZ، LEIPZIG.1955.

16. جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، مطبعة دار الساقي، 2001.

17. جولدزيهر، «العقيدة والشريعة في الإسلام» تاريخ التطور العقديّ والتشريعيّ في الديانة الإسلاميَّة، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى، مطبعة المركز القوميّ للترجمة، القاهرة، 1913.

18. دافيد صمويل مارجوليوث، «محمَّد وظهور الإسلام»، مطبعة بوتنام، نيويورك ولندن، 1905.

David Samuel MARGOLIOUTH. MOHAMMED AND THE RISE OF ISLAM, PRESS,PUTNAM'S SONS, NEW YORK, LONDON, 1905 .

19. رودي بارت، «الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة في الجامعات الألمانيَّة»، ترجمة مصطفى ماهر، مؤسسة هنداوي للطباعة، 2017.

20. رودولف سيلهايم، «ثيودور نولدكه مؤسس الدراسات الإشراقيَّة الحديثة»، مجلة عالم الشرق، 2007، فرانكفورت.

Rudolf Sellheim Theodor NÖldeke (1836 -1930): BegrÜnder der modernen Orientalistik, Die Welt des Orients, 2007, Bd.

21. رينهارت دوزي، «مقالة في تاريخ الإسلام»، باريس، 1879.

Reinhart DOZY. ESSAI SUR L›HISTOIRE DE L›ISLAMISME . PARIS , 1879

22. رينهارت دوزي، «نظرة عامَّة على التاريخ الإسلاميّ»، ترجمة كامل الكيلاني، مطبعة مؤسسة هنداوي، 2012.

23. الزبيدي، «تاج العروس».

24. الزرقاني، «شرح الزرقاني على المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمَّديَّة».

25. سنوك هرخروني، مجلة الجمعيَّة الشرقيَّة الألمانيَّة، 1931، المجلد 85 .
SNOUCK HURGRONJE. ZEITSCHRIFT DER DEUTSCHEN MORGENLÄNDISCHEN GESELLSCHAFT, 1831, VOL. 85.

26. العهد القديم.

27. عبد المنعم شميس، « حرافيش القاهرة».

28. عبد الرحمن بدوي، «موسوعة المستشرقين»، مطبعة، دار العلم للملايين الطبعة الثَّالثة منقحة، 1993.

29. عبد الرحمن بدوي، «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهليّ»، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.

30. فؤاد حسنين، «ثيودور نولدكه»، العدد 216 من مجلة الثّقافة لشهر أكتوبر 1944.

31. القرآن الكريم.

32. كارل هينرش بيكر، «حول كينونة وطبيعة العالم الإسلامي»، الدراسات الإسلاميَّة الطبعة الاولى، 1924 .
CARL HENRICH BECKER. VOM WERDEN UND WESEN DER ISLAMISCHEN WELT ISLAMSTUDIEN, VERLAG QUELLE & MEYER IN LEIPZIG, 1924.

33. كوسان دي بيرسيفال، مقالة في تاريخ العرب قبل الإسلام في عهد محمَّد، وحتى تقلص جميع القبائل في ظلّ الشريعة الإسلاميَّة، باريس مكتبة فيرمين ديدوت فرير، مطابع المعهد، شارع جاكوب،1847.
CAUSSIN DE PERCEVAL. SUR L'HISTOIRE DES ARABES AVANT L'ISLAMISME , PENDANT L'ÉPOQUE DE MAHOMET, ET JUSQU'À LA RÉDUCTION DE TOUTES LES TRIBUS SOUS LA LOI MUSULMANE, PARIS, LIBRAIRIE DE FIRMIN DIDOT FRÈRES , IMPRIMEURS DE L'INSTITUT , RUE JACOB , 1847.

34. لويس سيديو، «ملخص التاريخ العربيّ»، مطبعة مؤسسة، هنداوي، ترجمة محمد أحمد عبد الرازق.

35. ليون كايتاني، «حوليات الإسلام»، دار النشر الإيطاليَّة، روما 1904.

LEONE CAETANI.ANNALI DELL'ISLÂM. Roma . Casa Editrice Italiana - Via Venti. 1904.

36. مجلة «الشرق» النمساويّة، سنة 1913.

ÖSTERREICHISCHE MONATSSCHRIFT FÜR DEN ORIENT. 1913.

37. نجيب العقيقي، «المستشرقون»، دار المعارف، القاهرة.

38. نزار هليل، «نولدكه – دراسات ونصوص تاريخيّة»، مخطوط لم يطبع.

39. هنري لامنس، «مهد الإسلام»، طبع على نفقة المعهد البابويّ، روما، 1914.

HENRI LAMMENS. BERCEAU DE ISLAM. SUMPTIBUS PONTIFICII INSTITUTI BIBLIC. 1914.

40. وليم موير، «حياة محمّد مع فصول تمهيديّة عن المصادر الأصليّة لسيرة محمّد وعن تاريخ الجزيرة العربيّة قبل الإسلام»، لندن، 1861.

WILLIAM MUIR. THE LIFE OF MAHOMET, WITH INTRODUCTORY CHAPTERS ON THE ORIGINAL SOURCES FOR THE BIOGRAPHY OF MAHOMET , AND ON THE PRE - ISLAMITE HISTORY OF ARABIA LONDON . 1861 .

41. وليم مونتغمري وات، «محمّد في مكّة»، ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبد الشيخ، طبعة القاهرة، 1994.

42. الواقدي، «مغازي الواقدي».

43. يوليوس فلهاوزن، «بقايا الوثنية العربيّة»، برلين، 1887.

JULIUS WELLHAUSEN . RESTE ARABISCHEN HEIDENTUMES GESAMMELT UND ERLÄUTERT, BERLIN, 1887.

44. يوليوس فلهاوزن، «محمّد في المدينة» برلين، 1882.

JULIUS WELLHAUSEN. MUHAMMED IN MEDINA. DRUCK UND VERLAG VON G. REMER. 1882.

فهرسُ المحتويات

يُعدّ هذا الكتاب من أبرز الأعمال التأسيسيّة في حقل الدراسات الغربيّة الحديثة عن السيرة النبويّة، ألّفه المستشرق الألماني الكبير ثيودور نولدكه، مستنداً إلى أمهات المصادر الإسلاميّة، ومستجيباً للروح النقديّة الصاعدة آنذاك، التي أعادت النظر في كثير من المسلّمات وسعت إلى دراسة السيرة بمنهج تاريخيّ صارم.

يعرض نولدكه حياة النبيّ محمد في سياقها الزمني والاجتماعي، متتبعاً محطّاتها من المولد إلى الوفاة، معتمداً تحليل الروايات الإسلاميّة الأولى ضمن أطرها الجغرافيّة والثقافيّة والسياسيّة، ويقدّم للقارئ فرصة للحوار النقديّ مع الإرث الاستشراقيّ، من موقع المعرفة والفهم، لا من موقع الرفض أو التبعيّة.

قيل في الكتاب:

أعتقد أنّ أيّ شخص يجب عليه التعامل مع تاريخ محمّد دون أن يكون قادراً على الرجوع إلى المصادر العربيّة، سيعمل على نحو أفضل مع هذا المقتطف البسيط «حياةُ محمَّد» الشهير، على سبيل المثال، مقارنة بكتاب سبرينجر الكبير «حياة محمَّد»، العمل الذي يهيمن حالياً على السوق في ألمانيا ..

يوليوس فلهاوزن



مستشرقٌ وباحثٌ ألماني، (1836- 1930)، تراوحت اهتماماته البحثية بين دراسات العهد القديم واللغات السامية والأدب العربي والفارسي والسرياني، كتب العديد من المقالات والدراسات (بما في ذلك عن القرآن). حصل نولدكه على درجة الدكتوراه عام 1856م وهو ما يزال في سن العشرين عن تاريخ القرآن، وعين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة غوتينغن عام 1861، وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل عام 1864.

The Academic Center for Research
CANADA- TORONTO

+964 780 226 2494
facebook.com/acadcntr
www.acadcr.com
info@acadcr.com

للحصول على كتب إصداراتنا

ISBN 978-1-998556-15-1
9 781998 556151